الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر ـ باتنة 1 ـ

كلية اللغة و الأدب العربي والفنون **قسم اللغة العربية وآدابها**

دور النظم في انسجام الخطاب عند الباقلاني

من خلال كتابه " إعجاز القرآن "

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي

تخصص : لسانيات

إعداد الطالب : **وليد** بوجلال إشراف الأستاذ الدكتور : **الشريف ميهوبي**

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الجامعة	الرتبة	الصفة
السعيد هادف	جامعة باتنة 1	أستاذ التعليم العالي	رئسا
الشريف ميهوبي	جامعة باتنة 1	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا
كمال قادري	المركز الجامعي بريكة	أستاذ التعليم العالي	عضوا
زهور شتوح	جامعة باتنة 1	أستاذ التعليم العالي	عضوا
ثُلَيْثة بليردوح	جامعة أم البواقي	أستاذ محاضر	عضوا
سليمان بوراس	جامعة المسيلة	أستاذ التعليم العالي	عضوا

السنة الجامعية : 1442 / 1443هـ 2021 / 2022 م

شكر

الحمد لله أولا وأخيرا

وبعد

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله ورعاهما.

وهما من مهّدا لي الطريق للوصول إلى هذا المقام.

وإلى المشرف الأستاذ الدكتور الشريف ميهوبي على ما بذله من أجل إتمام هذا البحث وتوجيهاته التي لم يبخل بها علينا طيلة هذه السنوات فله كل الفضل والشكر وخالص التحيات

وإلى الزوجة الفاضلة على صبرها وعنائها طيلة مدة البحث .

وإلى أعضاء لجنة المناقشة على جهدهم المبذول في قراءة هذه الرسالة وتحملهم مشاق الطريق للوصول إلى هذا المنبر لمناقشتها وتصويبها

وإلى كل من له يد من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث .

وبالله التوفيق

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على نبيّه الكريم وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدّين .

أما بعد :

مثّل نزول القرآن الكريم نقطة تحوّل في الثّقافة العربيّة، و غيّر مجرى التّفكير العربي؛ فانتقل من حضارة المشافهة إلى حضارة الكتابة، ومن حضارة الذّوق والفطرة إلى حضارة التّعليل والتّفسير، ومن حضارة الأدب والشّعر والخطابة إلى حضارة العلوم، وكان ذلك إيذانا بظهور مرحلة جديدة من البحث تستند إلى أسس علمية؛ مما أدى إلى ظهور علوم متنوعة الاختصاصات: النّحو، اللّغة، البلاغة، الفقه، الأصول، التّفسير، علوم القرآن، وعلم الكلام وغيرها، وكلّها تتجه صوب القرآن الكريم؛ قراءة وتفسيرا وتأويلا؛ وأغلبها تتعامل مع النص المركزي في الثقافة العربية .

تهدف الدراسات القرآنية إلى قراءة الخطاب القرآني وفهم دلالاته، وكشف معانيه وجوانبه الجمالية وخصائص أسلوبه، واستنباط أسرار إعجازه، و لم تكن مقتصرة على مستوى واحد في التّحليل، وإنما شملت جميع المستويات اللّغوية؛ فالتّحليل النصي ليس بِدعا في الدرس اللّساني الحديث، بل نجد في التراث العربي الكثير من الآليات والأدوات الإجرائية التي تصب في قالب الممارسات النصية .

إن القرآن الكريم نص متكامل في جميع مستوياته اللغوية؛ يمتاز في جوهره بالترابط وحسن السبك ، وهذا ما دفع معظم الدارسين ـ قديما وحديثا ـ للاجتهاد في البحث عن أسرار نظمه وإعجازه، واستكشاف بنياته الداخلية والوقوف على بلاغته

وجماليات انسجام عناصره، ومحاولة استنباط معانيه الكلية التي تتجاوز بناءه على مستوى الجملة .

إن أبرز الجوانب المتعلقة بهذا الكتاب ما يتعلق بانسجام نظمه ؛ فلا يغيب عن ذهن كل باحث أن القرآن الكريم أنزل منجما ، إلا أنه يعتبر كالكلمة الواحدة متّسقة المباني منسجمة المعاني ، لذلك يرى العلماء أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في النّظام المحكم الذي نُسجت عليه ألفاظه وآياته وسوره ، ومن بين هؤلاء؛ أبو بكر الباقلاني (ت403هـ) في كتابه : "إعجاز القرآن " الذي عرض قضية انسجام القرآن وتماسكه من خلال نظمه وتأليفه وحسن رصفه .

تقوم هذه الدراسة على فكرة مركزية تهدف إلى محاولة الكشف عن دور النظم في انسجام الخطاب عند الباقلاني من خلال كتابه " إعجاز القرآن " ؛ باعتباره من المؤلفات المهتمة بالإعجاز دراسة وتحليلا؛ وتنظر إليه كوحدة لغوية متماسكة ومترابطة.

وقد وقع الاختيار على هذا الكتاب ليكون مدونة للبحث لأسباب منها :

ـ كونه من أهم المؤلفات التي اهتمت ببيان إعجاز القرآن الكريم من خلال نظمه وحسن تأليفه .

ـ أن الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) حاول عقد مقابلة بين نظم الخطاب القرآني وغيره من الخطابات العربية ، من أجل إثبات انفراد الخطاب القرآني بحسن نظمه وسبكه على مستوى الألفاظ والآيات والسور وعلى مستوى القرآن كله ، فاستند إلى العديد من الإجراءات التي تعد من صميم التحليل النصي .

ـ درس الباقلاني نصوصا كاملة في كتابه مبينا من خلالها دور النظم في انسجامها .

و سعيت من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق عدة أهداف منها :

ـ إبراز جهود علماء الإعجاز القرآني قديما وإسهاماتهم في مجال التحليل النصي .

ـ الكشف عن دور النظم في انسجام الخطاب عند الباقلاني في كتابه(إعجاز القرآن).

ـ استنباط معايير الإعجاز القرآني ومظاهر الانسجام عند الباقلاني .

فجاء العنوان كالتالي :

(دور النظم في انسجام الخطاب عند الباقلاني من خلال كتاب إعجاز القرآن)

أما الإشكالية التي تعالجها الدراسة فتتمحور حول كيفية تحقق انسجام الخطاب القرآني في نظر الباقلاني من خلال النظم ؟ وأهم المعايير التي اعتمدها الباقلاني للحكم على انسجام القرآن ؟

و تنبثق عنها عدة تساؤلات تفتح نوافذ متعددة للبحث منها :

ـ ما المقصود بالنظم وما دوره في بيان كيفية ترابط النص القرآني وانسجامه ؟

ـ وما المنهج الذي اعتمده الباقلاني لإثبات انسجام القرآن ؟

ـ لماذا اعتمد على عنصر المقارنة بين الخطاب القرآني والخطاب الشعري ؟

ـ ما هي مظاهر الانسجام عند الباقلاني ؟

ـ هل يرقى مبدأ النظم عند الباقلاني إلى مستوى نظرية نصية متكاملة ؟

وقد انتهجت في هذه الدراسة المنهج الوصفي بالاستناد إلى إجراءات التحليل والاستقراء ؛ في ضوء ما جاءت به اللسانيات النصية الحديثة من أدوات التحليل النصي ؛ لغرض الكشف عن أهم الممارسات النصية في الدراسات القرآنية عموما ؛ وفي كتاب (إعجاز القرآن) خصوصا.

وتحقيقا لمقاصد البحث جاء وفق منهجية محددة ، عمدت من خلالها إلى تقسيمه إلى مدخل وأربعة فصول وخاتمة :

المدخل : كان بعنوان (التفكير النصي في الثقافة العربية القديمة)

عرضت فيه بعض ملامح التفكير النصي في الثقافة العربية القديمة من خلال ما ورد في كتب التفسير وعلوم القرآن و إعجاز القرآن ، مبينا آليات تحليل الخطاب القرآني عند المفسرين وعلماء القرآن والبلاغيين وعلماء الإعجاز؛ مبرزا مكانة الباقلاني ، وأهمية كتابه (إعجاز القرآن) كمؤلف ذي رؤية نصية في التحليل؛ له وزنه في دراسات إعجاز القرآن .

الفصل الأول : اللسانيات النصية وإشكالية البحث اللساني العربي المعاصر

عرضت فيه ثلاث قضايا :

ـ اتجاهات البحث اللساني العربي المعاصر ومناهجها في التحليل ؛ مشيرا إلى إشكالية المصطلح اللساني في الدراسات اللسانية العربية .

ـ الأطر النظرية والتحول المنهجي الذي مسّ اللسانيات النصية في نشأتها وتطورها .

ـ تلقي النظرية اللسانية النصية في الثقافة العربية الحديثة ، وما تعانيه من فوضى مصطلحية في جهازها المفاهيمي .

الفصل الثاني : بلاغة الخطاب القرآني من النظم إلى الإعجاز

مهّدت لهذا الفصل بالبحث عن العلاقة بين البلاغة والإعجاز، ثم عرضت تحول قضية الإعجاز من مبدأ الفطرة والذوق إلى مبدأ الاستدلال والتعليل، و مرجعياتها الفكرية والثقافية في التراث العربي؛ مبرزا أثرها في نشأة قضية النظم، ثم انتقلت إلى الحديث عن أسس ومفاهيم فكرة النظم وتطورها عند علماء العربية.

الفصل الثالث : معايير الإعجاز عند الباقلاني ـ مقاربة نصية ـ

كانت بداية هذا الفصل بعرض مفاهيم النص والخطاب والعلاقة بينهما؛ ثم الحديث عن المنهج الذي سلكه الباقلاني في مؤلفه (إعجاز القرآن) مبينا غايته وأهم القضايا التي فصّلها بالدراسة والتحليل، ثم تناولت معايير الإعجاز القرآني عنده من وجهة نظر نصية .

الفصل الرابع : انسجام الخطاب ـ قراءة في المفاهيم والآليات المنهجية في كتاب إعجاز القرآن ـ

تحدثت فيه عن مبدأ الانسجام عند الباقلاني ومظاهره مبرزا دور النظم في انسجام الخطاب ، ثم عرضت نماذج من التحليل النصي التي قدمها في كتابه، مستنبطا مظاهر الانسجام في دراسته لجزء من سورة النمل ومعلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري ، ثم ذيّلته بملاحظات حول منهج الباقلاني في بيان الإعجاز .

وختمت الدراسة بجملة من النتائج التي وصل إليها البحث .

وقد اعتمدت في هذا الدراسة؛ إضافة إلى مدونة البحث (إعجاز القرآن) لأبي بكر الباقلاني؛ على مجموعة من المصادر والمراجع منها :

ـ بيان إعجاز القرآن للخطابي .

ـ دلائل الإعجاز و الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني.

ـ كتاب التمهيد و كتاب الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني.

ـ الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي.

ـ الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن أشرف عبد البديع عبد الكريم.

ـ اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ـ دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته لحافظ إسماعيلي علوي.

ـ النص والخطاب والإجراء لروبيرت دي بوجراند .

ـ نحو أجرمية للنص الشعري لسعد مصلوح.

ـ علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات لسعيد بحيري.

ـ مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات لشوقي البوعناني.

ـ في لسانيات النص وتحليل الخطاب نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم لعبد الرحمن بودرع.

ـ لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب لمحمد خطابي.

ـ أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري لمحمد زغلول سلام .

وغيرها من الكتب .

وفي الختام أحمد الله عز وجل على أن وفقني لإنجاز هذا البحث، كما أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف ؛ الأستاذ الدكتور "الشريف ميهوبي" على توجيهاته وعلى الجهد الذي بذله من أجل إتمام هذا البحث .

كما لا يفوتني أن أشكر أعضاء لجنة المناقشة على جهدهم المبذول في قراءته ومناقشته.

والله الموفّق

01 / 11/ 2020م باتنة

وليد بوجلال

مدخل :

التفكير النصي في الثقافة العربية القديمة

(الأصول المعرفية والآليات الإجرائية)

أولا : ملامح التفكير النصي في الثقافة العربية القديمة.

ثانيا : آليات تحليل الخطاب القرآني في الدراسات القرآنية.

ثالثا : كتاب (إعجاز القرآن) لأبي بكر الباقلاني ــ رؤية نصية في التحليل ــ

أولا : ملامح التفكير النصي في الثقافة العربية القديمة

كان القرآن الكريم مورد التفكير في الحضارة العربية الإسلامية، حيث نشأت العلوم العربية خدمة له وارتبطت به ارتباطا وثيقا، فاتسمت بتداخلها وتكاملها على مستويات مختلفة، و قد كرّس الباحثون جهودهم حوله دراسة وتفسيرا ،فكان بمثابة القاعدة الأولى لتأسيس ممارسة نصيــة في الثقافة العربية ، و شكل محور الرحى لتلك العلوم، وانكبّ المفسرون وعلماء القرآن والبلاغيون وعلماء الإعجاز على دراسته؛ بحثا عن مقاصده و أسرار البيان ووجوه الإّعجاز فيه، ومثّل ما أنتجه المشتغلون في هذا الاتجاه البذور الأولى لبلورة البحث النصـي في التراث العربي.

وقد انبثقت الدراسات المهتمة بهذا المجال، من مميزات نص القرآن الكريم ووحدته الكلية ؛ باحثة في أساليبه البيانية والجمالية، للوصول إلى فهمه غاية الفهم ، وتدبر معانيه ، وإدراك مقاصده و أحكامه؛ ثم إظهار وجوه إعجازه، آخذة بعين الاعتبار السياق الثقافي والاجتماعي الذي ورد فيه؛ إذ لم يفصله الدّارسون عن بيئته اللغوية والاجتماعية والثقافية .

فاتجهت بحوث العلماء صوب كتاب الله دراسة وتحليلا ، من أجل فهمه والتعمق في معانيه ، وتعددت اتجاهات الدراسات القرآنية ، واختلفت مناهجها ، وهدفها الأساس هو فهم القرآن الكريم واستنباط أحكام الشرع منه ، فشكّل نواة الحضارة العربية الإسلامية ، إذ تتجاذبه كل العلوم ، تنطلق منه ثم تلتقي فيه ، فقد " دُرس لغويا في كتب معاني القرآن و غريبه وإعرابه، ودرس أدائيا ـ قراءة وكتابة ـ في كتب القراءات صحيحها و شاذّها ورسم المصحف وجمعه، وتناوله الفقهاء في كتب الأصول

والأحكام، وتناوله البلاغيون في كتب الإعجاز وبديع القرآن ... وكل هذه الأشكال من التعامل مع القرآن الكريم كانت باعتباره كتابا مقدسا معجزا ومصدرا للتشريع"[1].

لم تكن العلوم العربية التي نشأت حول القرآن الكريم منفصلة عن بعضها ، بل كانت متكاملة في إطار نسق واحد وهو خدمة القرآن الكريم ، وبذلك شكّل " التراث منظومة فكرية واحدة ، تتجلى في أنماط وأنساق جزئية متغايرة في كل مجال معرفي خاص . لم يكن سيبويه ـ مثلا ـ وهو يضع البناء النظري والقوانين الكلية للغة العربية معزولا عن إنجازات الفقهاء والقراء والمحدثين والمتكلمين ، وبالمثل لم يكن عبد القاهر الجرجاني ، ومن سبقه ومن تلاه من البلاغيين ، يمارسون نشاطهم الفكري في مجال البلاغة خارج إطار علم الكلام وأصول الفقه ، ناهيك بعلوم اللغة والنحو " [2]، ولذلك فإن العلوم العربية بمختلف اختصاصاتها كانت منصبة على النص القرآني ، واتخذت منه ميدانا للدراسة ، فهما وتأويلا ، أو حفاظا عليه من اللحن ، ولم تكن معزولة عن بعضها .

يقول الباحث عبد الرحمن بودرع مثمنا دور علماء القرآن والبلاغة والتفسير في تعاملهم مع النص القرآني ، ومبرزا محور التقائها مع البحث اللساني الحديث :" ومن المعلوم أن النص القرآني تناوله بالبحث والتفسير والتأويل علماء الفقه والأصول والتفسير والبلاغة والنحو ، ولكن علماء القرآن والمفسرين البلاغيين للقرآن الكريم ، كان

---

[1] ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السياق ،منشورات جامعة أم القرى ،المملكة العربية السعودية ،ط1 ، 1424هـ ، ص104.

[2] نصر حامد أبو زيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، المركز الثقافي العربي ،(الدار البيضاء ، بيروت) ط7 (2005م) ، ص 6

لهم النصيب الأوفر في مقاربة النص القرآني ، وذلك بتوظيف كثير من العلوم والآليات والأدوات التي تحيط بالنص الكريم ، من جوانب متعددة وتستكشف قيّمه الدلالية وجوانبه الجمالية وعلاقاته الكلية ، فكان هذا العلم مؤهلا لأن يكون أقرب إلى النهج الذي نهجته لسانيات النص وتحليل الخطاب ، وهو صالح لأن يصاغ منه أنموذج تحليلي يستخرج أعماق النص ، ويكشف قيَّمه الجمالية، بل ليُكتشف به مزيد من المزايا الجمالية التي تنطوي عليها اللغة العربية ذاتها " [1] .

ويقول محمد عكاشة :" ومن يطالع كتابي (البرهان في علوم القرآن) للزركشي، و(الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي، يعلم أن علماء التفسير استوفوا منهج علم اللغة النصي الحديث وتفوقوا عليه من قبل أن يظهر في الدراسات الحديثة"[2].

وعليه فإن التفكير النصي ليس وليد العصر الحديث، بل كان لعلماء القرآن وعلماء الإعجاز والبلاغيين الدور الكبير في كثير من الممارسات النصية في الثقافة العربية من خلال تعاملهم مع النص القرآني، وليس بعيدا عنا ما أنتجته تلك الدراسات من زخم مصطلحاتي في هذا المجال؛ توحي دلالاته إلى الترابط والانسجام :

[1] عبد الرحمن بودرع ، في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية 2013/02/16م، جامعة الملك سعود. ص 14/ 15.

[2] محمد عكاشة ، تحليل النص " دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي " ، مكتبة الرشد ناشرون ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،الطبعة الأولى1435هـ/ 2014 م ، ص 17 .

كالاتصال والامتزاج والالتئام والالتحام والتلاحم ، والاتساق ، والائتلاف ، والاقتران ، والارتباط ، و الملاءمة، والمناسبة ، والتناسب ، وغيرها [1].

وإذا عدنا إلى التراث العربي في شقه الذي يتعامل مع القرآن الكريم دراسة وتحليلا وتفسيرا ، نجد أنه غني بملامح وأصول للممارسات النصية المبثوثة في كتب القدماء ، والتي نجدها تتكامل فيما بينها لتشكل منهجا في التحليل النصي تتعامل معه من جوانبه المتعددة ، وعلى مستوياته المختلفة .

تمكّن المفسرون وعلماء القرآن وعلماء الإعجاز من بلورة نظرة شاملة حول تحليل النص القرآني ودراسته دراسة كلية ، واستطاعوا أن يؤسسوا منهجا متكاملا لدراسة الخطاب القرآني على مستوى التنظير وعلى مستوى الممارسة التطبيقية ، مستندين في ذلك على آليات متجذّرة في الدراسات القرآنية ، ومنبثقة من رحم الثقافة العربية الإسلامية التي لها خصوصياتها المميزة لها عن غيرها من الثقافات ، حيث اعتمد المفسرون في تفاسيرهم على أسباب النزول التي تمثل السياق الخارجي للنص القرآني ، كما اهتم علماء القرآن بعلم المناسبات الذي استنبطوا مبادئه من خلال البحث في البناء الداخلي للقرآن الكريم عن العلاقات الرابطة بين أجزائه، وأسّس علماء الإعجاز لقضية النظم التي تمثل ثمرة التفكير البلاغي الإعجازي ، وكلها أدوات إجرائية منهجية متكاملة تهدف إلى فهم النص القرآني وتفسيره ، وبيان دلالاته ، وإدراك أسرار إعجازه.

[1] ينظر : محمد العبد ، النص والخطاب والاتصال ، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي ، مصر ، ط 1 ،2014 م، ص78.

بدأ علماء الإعجاز البحث في القرآن الكريم باعتباره خطابا منسجما ومتماسكا، فسعوا إلى الكشف عن الآليات التي يتحقق بها هذا الانسجام ، والتي تبحث عن كيفية تماسك الآيات القرآنية مع بعضها "حتى تكون كالكلمة الواحدة منسقة المعاني منتظمة المباني " [1] في إطار النظرة الكلية إلى نص القرآن الكريم .

وأهم ما يدل على هذه النظرة الكلية إلى القرآن الكريم ودراسته دراسة نصية شاملة؛ تلك الآليات التي اعتمدها المفسرون ، والشروط التي وضعوها لمفسّر القرآن الكريم ، من خلال تفسير القرآن بالقرآن ، وذلك أكبر دليل على ترابط أجزائه وانسجام معانيه .

يقول السيوطي مفصلا ذلك : " من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن فما أُجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر منه ... فإن أعياه ذلك طلبه من السنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له"[2]، ثم يأتي في المرتبة الثالثة تفسير القرآن بأقوال الصحابة التي تعتمد على السياق الخارجي للخطاب القرآني .

وضع علماء القرآن بعض المبادئ الأساسية لتلك الممارسات النصية المتعلقة بدراسة القرآن الكريم وتحليله من أجل الكشف عن مواطن الإعجاز فيه ، فقد كان " عملهم يقوم أساسا على النظرة إلى النص القرآني كاملا، إلى درجة أنهم رأوا القرآن

---

[1] بدر الدين محمد الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث القاهرة (مصر) ط3، (1404هـ،1984م) ،ج1،ص36.

[2] جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، تقديم وتعليق أبو الحسن مصطفى ديب البغا ، دار الهدى عين مليلة (الجزائر)،ج2 ، ص 1198 .

الكريم كالكلمة الواحدة ، كله آخذ بعضه بيد بعض ، فأكدوا التماسك الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي والدلالي ، وكذلك التماسك النصي ، وأيضا أكدوا المناسبة بين حروف الكلمة الواحدة وكلمات الجملة الواحدة وجمل النص الواحد ونصوص القرآن كله" [1]، وقد أشار (بدر الدين الزركشي745-794هـ) إلى ارتباط التفسير بفكرة النظم ، وبين أنه من شروط المفسر مراعاة نظم الكلام ، فقال :" ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي "[2]، فنظم الكلام له دور كبير في تحديد المعنى المقصود.

وإذا كان المفسرون قد وضعوا مبادئ المعالجة النصية للقرآن الكريم ، من أجل فهمه و إدراك معانيه وتأويله ، فإن علماء البلاغة المهتمين بالإعجاز القرآني ، أمثال: الخطابي و الباقلاني والجرجاني ، كان لهم الدور الفعّال في الممارسات النصية المتعلقة بانسجامه وتماسكه ، من خلال ما أبدعوه من مؤلفات في نظرية النظم، للبحث عن أسراره ووجوه إعجازه ، وما كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني من ذلك ببعيد ، وهذه شهادة لأحد المختصين في البحث عن ملامح الدراسات النصية في كتب إعجاز القرآن ،إذ يقول : " كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني يمثل نقطة تحول فاصلة في تاريخ البحث في هذا الاتجاه " [3] ، ولعله حكم هذا الحكم على الباقلاني وإعجازه لعلمه بمكانة هذا المؤلَف في علم الإعجاز ، وكذلك لاطّلاعه الواسع على

---

[1] صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية في السور المكية ، دار قباء، القاهرة ط1 ، 2000م .ج 1 ، ص 50 .

[2] بدر الدين الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج1،ص317.

[3] أشرف عبد البديع : الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن ، مكتبة الآداب القاهرة ، مصر ، 2008م، ص 19 .

القضايا التي عرضها بالدراسة والتحليل والنقد ، إذا اهتم بقضية النظم وعالجها معالجة نصية بتحليله لنصوص من القرآن الكريم، ونصوص من الشعر الجاهلي والشعر العباسي ونقدها ، معتمدا مبدأ الموازنة بينه وبينها .

ثانيا : آليات تحليل الخطاب القرآني في الدراسات القرآنية

مثّل القرآن الكريم لبّ الدراسات القرآنية، فاشتغل به المفسرون وعلماء القرآن وعلماء الإعجاز ، كلّ حسب اتجاهه ومذهبه ، وتمحورت مؤلفاتهم حوله بحثا وتفسيرا، واستعملوا العديد من الآليات والأدوات الإجرائية لتحليل الخطاب القرآني ودراسته دراسة نصية كلية متكاملة ، وذلك ما يدل على وعيهم بمدى أهمية التحليل النصي ، وإدراكهم أن القرآن الكريم نص متكامل متسق في بنائه ومنسجم في معانيه ومقاصده ولا يمكن تفكيكه ، ومن بين الآليات التي اعتمدوها في الدراسة والتحليل ما يلي :

1 السياق عند علماء التفسير :

يعرّف الزركشي علم التفسير بقوله :" التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكَمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ "[1].

من هذا التعريف نجد أن علماء القرآن اشترطوا على المفسر العلم بأسباب النزول كشرط أساسي واجب عليه معرفته ؛ وأسباب النزول تصنّف ضمن السياق

[1] بدر الدين الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج1 ، ص 13.

المقامي للنّص القرآني ، إذ يعتبر عنصرا مهما ومبدأ أساسيا في بيان الدلالة لدى المتلقي، والنص لا تكتمل دلالته إلا من خلال السياق الذي يرد فيه.

يقول محمد عبد الباسط عيد: " وللسياق مكانة في علوم القرآن ، ينهض به علمان قائمان برأسيهما هما : علم معرفة أسباب النزول ، وعلم معرفة المكي والمدني ، بالأول يتمكن المتلقي من معرفة العلاقة بين جزء محدد من النص (آية أو أكثر) والواقع الخارجي الذي هو سبب نزول النص ، وبالثاني يتمكن المتلقي من معرفة السياق التاريخي والاجتماعي الذي به اختلف الخطاب المكي عن المدني ، وهذا يعني أن السياق في هذا النظر يستوعب العناصر ذاتها التي انتهت إليها نظريات تحليل الخطاب المعاصرة " [1] .

لقد أدرك علماء القرآن والمفسرون أهمية السياق في التحليل النصي للقرآن الكريم، واستندوا إلى شروط يجب على المفسر العلم بها قبل أن يخوض غمار الكلام في كتاب الله عز وجل ، "وأكثر هذه الشروط يصب في السياق والمقام وما يحيط بالنص القرآني من ظروف ومن ملابسات لابد للمفسر من الوعي بها قبل مباشرته تفسير النص القرآني "[2]، وقد أكد صاحب البرهان ذلك قائلا :" ومعلوم أن تفسيره يكون بعضه من قبيل بسط الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها ، وبعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض لبلاغته ولطف معانيه ، ولهذا لا يستغنى عن قانون عام يعوّل

---

[1] محمد عبد الباسط عيد : النص والخطاب (قراءة في علوم القرآن) ، مكتبة الآداب القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2009م ، ص 24 .

[2] هادي نهر ، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي ، دار الأمل للنشر ، الأردن، ط1،(1427هـ - 2007م). ص 269 .

في تفسيره عليه ، ويرجع في تفسيره إليه ، من معرفة مفردات ألفاظه ومركباته ، وسياقه ، وظاهره وباطنه ، وغير ذلك مما لا يدخل تحت الوهم ، ويدق عنه الفهم "[1] .

إن أبرز ما يجب على المفسرين مراعاته عند التفسير هو معرفة المكي والمدني ومعرفة أوقات النزول وحالاته، وأسباب النزول التي تمثل السياق الخارجي للنص القرآني [2]، وقد فصّلوا القول في مباحث سياق الموقف وعناصره ، كزمان ومكان وأسباب النزول.

يقول الزركشي في معرفة المكي والمدني :" المكي ما وقع خطابا لأهل مكة،والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة ،لأن الغالب على أهل مكة الكفر فخوطبوا بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وإن كان غيرهم داخلا فيهم ، وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾وإن كان غيرهم داخلا فيهم " [3] ، ويقول أيضا في بيان فوائد معرفة أسباب النزول :" بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز ، وهو أمر تحصّل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا " [4].

وهذا ابن كثير (ت751هـ) يؤكد في مقدمة تفسيره ضرورة معرفة السياق للتفسير ، ويشير إلى أن أصح أنواع التفسير " أن يفسر القرآن بالقرآن فما أُجمل في مكان فقد فسّر في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن

---

[1] الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج 1 ، ص 15 .

[2] ينظر : نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، ص 111

[3] الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج1 ، ص 187 .

[4] المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 22 .

وموضحة له" [1] وإذا لم يتمكن المفسر من التفسير وفق هذا المبدأ ، فيجب عليه الرجوع إلى أقوال الصحابة " فإنهم أدرى بذلك؛ لما شهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم"[2].

نشير هنا إلى قضية أساسية تتمثل في أن ما ذكره ابن كثير من أنواع التفسير يعتبر من صميم التحليل النصي ، فالنوع الأول من أنواع التفسير يوضح مدى ترابط أجزاء القرآن، وانسجامه الكلي ، أما النوع الثاني والثالث(التفسير بالسنة والتفسير بأقوال الصحابة) فإنهما يبرزان أهمية السياق في معرفة مقاصد الله عز وجل في كتابه العزيز .

والمراد بالسياق عند المفسرين هو أحد أمرين ؛ كما بيّنه ردة الله الطلحي :

الأول : السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها، وأوضح ما عبر به عن هذا المفهوم لفظا الحال والمقام .

الثاني : السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي ورد فيه الكلام، ويشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام[3].

---

[1] إسماعيل بن عمر بن كثير : تفسير القرآن العظيم ،تحقيق سامي بن محمد السلامة ، دار طيبة للنشر ، المملكة العربية السعودية ، ط2،(1420هـ،1999م)ج1،ص07.

[2] المصدر نفسه ، ج1،ص07.

[3] ينظر : ردة الله الطلحي، دلالة السياق ص50-51.

إن المعنى الثاني يقترب من معنى النظم عند علماء الإعجاز ، فهذا بدر الدين الزركشي (745-794هـ) يبرز أهمية السياق وعلاقته بالنظم قائلا : " ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له ، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجّوز ، ولهذا نرى صاحب الكشاف يجعل الذي سيق له الكلام معتمدا وكأن غيره مطروح "[1].

أشار الزركشي إلى أحد المفسرين الذين يعتمدون السياق كآلية إجرائية للتفسير؛ وهو (الزمخشري467-538هـ) في تفسيره (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، مبرزا العلاقة الوطيدة بين السياق والنظم ، باعتبارهما آليتين من آليات التحليل النصي عند المفسرين .

إن معرفة أسباب النزول ، ومعرفة المكي والمدني ، وتفسير القرآن بالقرآن ، وتفسيره بالسنة وأقوال الصحابة ، كل هذه العناصر تعتبر أدوات إجرائية خاضعة لسياق النص بنوعيه ؛ يعتمد عليها المفسرون في دراستهم للقرآن الكريم.

2 المناسبات عند علماء القرآن :

تمكّن المفسرون و علماء القرآن من بلورة رؤية متكاملة لدراسة النص القرآني ، للابتعاد عن النظرة التجزيئية له ، ثم البحث عن تلك العلاقات الرابطة بين أجزائه ، بداية من أبسط العناصر اللغوية فيه وهي الحروف ثم الكلمات ثم الآيات حتى السور ، وحاولوا إظهار أوجه المناسبة والترابط بينها من خلال علم المناسبات الذي يبرز انسجام القرآن الكريم وتماسكه .

[1] الزركشي : البرهان في علوم القرآن ،ج 1 ، ص317.

نبّه علماء القرآن إلى قاعدة أساسية يتم من خلالها اكتشاف العلاقات الرابطة بين أجزاء القرآن الكريم ، والوقوف على مواطن التناسب بين آياته وسوره ، وهذه القاعدة تعد ممارسة نصية ، إذ تحيط بالنص من كل جوانبه الداخلية والخارجية .

يقول السيوطي مبيّنا ذلك : " الأمر الكلي لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات... وتنظر عند إنجاز الكلام في المقدمات ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له ... فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإن عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية وكل سورة وسورة "[1].

أشار جلال الدين السيوطي إلى عدة قضايا نصية تلمّ بكيفية تحليل الخطاب القرآني عن طريق علم المناسبات موضحا مبادئه الأساسية و المتمثلة في:

ـ معرفة السياق .

ـ معرفة موضوع الخطاب .

ـ دور المتلقي في فهم الخطاب .

ـ علاقة السياق بموضوع الخطاب والمتلقي .

ـ أهمية نقطة بداية الخطاب في إيصال الدلالة إلى المتلقي .

ـ بيان القصد المراد من وراء الخطاب .

---

[1] السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ج2 ، ص 982.

وغاية هذه المبادئ مجتمعة تؤدى إلى الكشف عن أسرار النظم في الخطاب القرآني.

ويقول بدر الدين الزركشي في وصف كتاب الله عز وجل وما يختص به من ترابط وانسجام بين أجزائه :" فهو من تناسب ألفاظه ، وتناسق أغراضه ، قلادة ذات اتساق، ومن تبسم زهره ، وتنسم نشره ، حديقة مبهجة للنفوس والأسماع والأحداق ، كل كلمة منه لها من نفسها طرب ، ومن ذاتها عجب ، ومن طلعتها غرة ، ومن بهجتها درة ، لاحت عليه بهجة القدرة ، ونزل ممن له الأمر، فله على كل كلام سلطان و إمرة ، بهر تمكّن فواصله ، وحسن ارتباط أواخره و أوائله ، وبديع إشاراته وبديع انتقالاته ، من قصص باهرة إلى مواعظ زاجرة ، وأمثال سائرة ، وحكم زاهرة ، وأدلة على التوحيد ظاهرة " [1].

إن هذا النص الذي أوردناه للزركشي يوحي أن القرآن الكريم يتميز بخاصية الانسجام ، وهو سر من أسرار إعجازه ، لذلك اهتم العلماء بدراسته ضمن علم المناسبات الذي كشف به عن تلك الروابط الظاهر أو الخفية بين الألفاظ والآيات والسور .

[1] الزركشي بدر الدين ، البرهان في علوم القرآن ، ج 1 ، ص 4 .

والمناسبة في اللغة توحي بالاتصال والاقتران ؛ واتصال الشيئين يقتضي وجود علاقة تربط بينهما بأي وجه من الوجوه . يقول (ابن فارس 395 هـ): " النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال الشيء بالشيء، منه النَّسب"[1].

أما اصطلاحا ؛ فعلم المناسبات يُعنى " بالكشف عن الترابط اللفظي والمعنوي بين آي الذكر الحكيم وسوره "[2]، ويهتم بالبحث عن " وجه الارتباط بين الآية والآية التي تليها ، والسورة و السورة التي تليها، وفاتحة السورة وخاتمتها ونحو ذلك. أو هي وجه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض."[3]

وقد بيّن برهان الدين البقاعي أهمية وفائدة علم المناسبات في الدراسات القرآنية قائلا: "وعلم المناسبات تعرف منه علل الترتيب وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب ، وثمرته الإطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب "[4] ، ويوضح أن القرآن الكريم وحدة واحدة لا يمكن الفصل بين أجزائه، رغم أنه أنزل منجما في أكثر من عشرين سنة ، ولأسباب متفرقة، " وقد تنزل الآيات على الأسباب الخاصة ،

---

[1] أحمد بن فارس :معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة إتحاد الكتاب العرب 1423هـ /2002م، ج5 ، ص448.

[2] محمد عامر محمد ،(1432هـ2011م)، أثر المناسبة في توجيه المعنى في النص القرآني ،أطروحة دكتوراه في فلسفة اللغو وآدابها ،جامعة الكوفة ص 09 .

[3] الرومي فهد بن عبد الرحمن بن سليمان ، 2005 م ، دراسات في علوم القرآن الكريم ،مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، السعودية ، ص447 .

[4] البقاعي برهان الدين إبراهيم بن عمر ، 1969م ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ،تحقيق محمد عبد الحميد ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، مصر ، ج1 ،ص5.

وتوضع كل واحدة مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن ، وحسن السياق ، فذلك الذي وضعت معه الآية نازلة على سبب خاص للمناسبة ، إذا كان مسوقا لما نزل في معنى يدخل تحت ذلك اللفظ العام " [1].

إن علماء القرآن لم يهتموا كثيرا بالجانب النظري لعلم المناسبات بقدر ما كانت اهتماماتهم كبيرة بالجانب التطبيقي له ، فنجد الزركشي مثلا يذكر الأصل اللغوي للمناسبة ، ثم يشرع مباشرة في بيانها من خلال إيراد الأمثلة المناسبة من القرآن ، إلا أن السيوطي كان أكثر تفصيلا من الزركشي في باب أنواع المناسبات ، فإذا كان الزركشي يكتفي بذكر المناسبة بين الآيات والمناسبة بين السور ، فإن السيوطي يفصل كثيرا في المناسبات بين السور وداخل السورة الواحدة .

يرى الزركشي أن " الذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكمّلة لما قبلها، أو مستقلة ، ثم المستقلة ، ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي ذلك علم جمّ ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له"[2].

إن هذه النصوص التي بيّن فيها العلماء ماهية المناسبة وفائدتها؛ تصب كلها في قالب البحث عن العلاقات المعنوية بين أجزاء الكلام لتجعل منه بناء متلائما؛ أي منسجما، ينطلق من الجانب الشكلي لاتساق الألفاظ وصولا إلى انتظام وانسجام معانيها ، فيكون القرآن كله في قالب واحد ، مثل الكلمة الواحدة.

---

[1] الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج1 ، ص 25 .

[2] المصدر نفسه ، ج1 ، ص 37 .

وقد بيّن الزركشي أهم العلاقات الدلالية التي تحكم علم المناسبات قائلا:"المناسبة أمر معقول ،إذا عرض على العقول تلقته بالقبول ، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ، ومرجعها ـ والله أعلم ـ إلى معنى ما رابط بينها : عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، وغير ذلك من أنواع العلاقات . أو التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ونحوه " [1]. وكلها علاقات دلالية تسهم في انسجام الآيات من خلال المناسبات.

اهتم بهذا النوع من العلوم بعض علماء القرآن أمثال :

ـ فخر الدين الرازي (ت 606هـ) في(مفاتيح الغيب).

ـ بدر الدين الزركشي(ت 794هـ) في (البرهان في علوم القرآن)

ـ برهان الدين البقاعي (ت 885هـ) في (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) ،

ـ جلال الدين السيوطي(ت 911هـ) في (تناسق الدرر في تناسب السور) وكتاب (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع) .

اعتبر علماء القرآن علم المناسبات من أهم الآليات الإجرائية لدراسة وتحليل الخطاب القرآني دراسة كلية والنظر إليه نظرة شمولية تبين أوجه الترابط بين أجزائه وتكشف عن تماسكه وانسجامه .

[1] الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج1 ، ص 25 .

3 النظم : عند علماء الإعجاز

بدأت ملامح قضية النظم تلوح في الأفق عند المتكلمين كالجاحظ، ثم استوت فكرة قائمة اعتمد عليها علماء الإعجاز لبيان وجوه إعجاز القرآن الكريم، كالخطابي و الباقلاني، حتى نضجت نظرية متكاملة في البلاغة والإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني .

اعتمد البلاغيون وعلماء الإعجاز على النظم كوسيلة من وسائل بيان أسرار إعجاز القرآن الكريم، وبينوا أنه مبدأ أساسي في ذلك ، واستندوا عليه أداة إجرائية لدراسة الخطاب القرآني ، ولذلك كانت حاجة علماء الإعجاز إلى علوم البلاغة ماسة ، بل جعل بعضهم تعلم البلاغة شرطا ضروريا لاستنباط مكامن الإعجاز وأسراره، ومن خلال هذه الدراسة سنتوسع في تفصيل قضية النظم كممارسة نصية في التراث البلاغي و علم الإعجاز .

إن الإشارات التي ذكرناها عند المفسرين و علماء البلاغة والإعجاز؛ من أسباب النزول ، وعلم المناسبات ، وقضية النظم ، تعدّ كلها ملامح للتفكير النصي في الثقافة العربية ، باعتبارها ثقافة نصية في أساسها ، فكل الدراسات والبحوث اللغوية وغير اللغوية التي ترعرعت في حضن التراث العربي ، كان مبدؤها القرآن الكريم حفاظا عليه من اللحن ، وصولا إلى فهمه شرحا وتفسيرا وبيان إعجازه .

ثالثا : كتاب (إعجاز القرآن) لأبي بكر الباقلاني ــ رؤية نصية في التحليل ـ

يمثل علم الإعجاز اتجاها نصيا في التراث العربي عموما ، وفي علوم القرآن خصوصا ، إذ ينطلق من النص القرآني مادة للدراسة والتحليل، ويستند إلى آليات إجرائية تمزج بين الدرس البلاغي والفكر الكلامي ، ويسعى إلى البحث عن معايير إعجاز القرآن الكريم ، وعليه تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها إعادة قراءة الفكر البلاغي للباقلاني في ظل فكرة النظم من خلال كتابه (إعجاز القرآن)الذي يشكل نواة تأسيسية لمنهج متكامل لممارسة نصية ، منبثقة من النظرة الشمولية للخطاب القرآني.

قدم الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) مقاربة نصية مبنية على أسس منهجية ، تسعى إلي دراسة نظم القرآن الكريم ، موازنة مع نظم الشعر ، متخذا من الخطاب القرآني حيزا تطبيقيا للبحث عن معايير الإعجاز ، واهتم بتحليل قصائد شعرية ميدانا للممارسة النصية .

اعتمد الباقلاني في دراسته على شقّين متكاملين ، مهّد لكتابه في الشّق الأول بالمستوى التنظيري لبيان الإعجاز من خلال آلية النظم ، ثم أردف ذلك بالمستوى التطبيقي الذي اشتغل من خلاله على تحليل نصوصه المختارة ، إلى أن وصل به البحث إلى القول بانفراد الأسلوب القرآني في فصاحته وبيانه ، وأنه أعلى من أسلوب أجود الشعر العربي في نظمه وحسن تأليفه وجودة رصفه وانسجامه .

أدرك الباقلاني قيمة الشعر ومنزلته في الثقافة العربية ، فآثر اختيار ما اتفق النقاد على أنه أجود الشعر العربي ليكون محور الموازنة بينه وبين الخطاب القرآني ، وكان اختياره مستمدا من مقاربات العرب للنص القرآني لما معهم من خطابات، وذلك من أجل إدراك حقيقة هذا الوافد الجديد ، وما له من مزايا تجعله أعظم شأنا ، باحثا

عن وجوه الإعجاز التي تجعل منه خطابا معيارا للفصاحة والبلاغة في الثقافة العربية؛ يستند إليه الأدباء والنقاد للحكم على مدى جودة نصوصهم الأدبية .

استند الباقلاني في اختياره على فكرة مقاربات العرب قديما للقرآن مع ما هو معروف لديهم من خطابات تمثل أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة ، وتسيطر على ثقافة قوم هم أدرى بلغة هذا النص الجديد في ذلك العصر ، ولما " كان الشعر مجال تفوقهم كانت المعجزة نصا لغويا "[1] ، وقد اتجه الباقلاني لاختيار قصائد شعرية مرموقة المنزلة في ثقافتهم لتكون الموازنة في أعلى مستوياتها ، فلا تتم الموازنة إلا مع أجود كلامهم لتشمل الأحكام النقدية ما دونه من النصوص.

يعتبر مشروع الباقلاني في إعجاز القرآن ممارسة نصية خالصة، فقد " مارس التحليل النصاني من خلال دراسته وتحليله لجزء كبير من معلقة امرئ القيس وجزء كبير من قصيدة البحتري ـ أهلا بذلكم الخيال ـ "[2]، بالإضافة إلى تلك التعليقات والشروح واللمحات النصية التي ذيل بها مباحثه في الخطب التي انتقاها، مثل خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخطب الخلفاء الراشدين ، وأشهر الخطب والرسائل العربية التي صنفها من أجود الكلام العربي ، وكذلك تحليله لآيات من سورة النمل ، وبحثه عن علاقات التناص بينها وبين الآيات الواردة في سياق القصة الواحدة في سور مختلفة .

---

[1] نصر حامد أبو زيد ، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، ص 138 ،

[2] حسين خمري ، نظرية النص ، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ، الجزائر العاصمة ، 1428هـ / 2007م. ص 325.

انتقى الباقلاني مجموعة من النصوص النثرية من فنون الكلام العربي، لتكون محور المعالجة النصية ، معللا ذلك بقوله : " الخطب يحتشد لها في المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الضخام ، ولا يتجوز فيها ، ولا يستهان بها ، والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه ، ويشمر لها عن جد واجتهاد " [1]، فلا يقع فيها إخلال ، ممثلة لبّ ما يملكه الخطيب أو صاحب الرسالة ، فهو يتخير أفصح الألفاظ وأبلغ العبارات لأداء المعنى في سياقها الثقافي ، فتتحقق بها البلاغة المبتغاة من خلال إيصال المعنى المنشود بإيجاز .

كما اختار أيضا نصين شعريين ؛ الأول لشاعر جاهلي لا شك في إجادته في نظم الشعر ، والثاني لشاعر عباسي متفق على أنه من أصحاب الصنعة، فدرس القصيدتين دراسة نصية ، متخذا من الموازنة بين نظمهما ونظم القرآن الكريم مبدأ أساسيا في تحليلهما .

[1] أبو بكر محمد الباقلاني: (**إعجاز القرآن**) ؛ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، 2013م ، ص 184.

أبو بكر الباقلاني (338هـ ـ 403هـ) : هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، أبو بكر القاضي ، المعروف بالباقلاني ، أو بابن الباقلاني ، والباقلاني : نسبة إلى الباقلاء وبيعه ، فقد كان والده يشتغل ببيع الباقلاء ، فنسب إليها. والقاضي : لأنه تولى القضاء لعضد الدولة البويهي ، وكان يعتبر رئيس القضاة، بيده أمر تعيينهم وتوليتهم [1].

ولد بالبصرة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة للهجرة ، ونشأ فيها ، وأخذ من علمائها، ثم رحل إلى بغداد ونهل منها علما غزيرا ، وأقام فيها حتى توفاه الله تعالى سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة، وقد عاش في كنف والده الذي كان من عامة الناس ، يتاجر بالباقلاء وإليها نسب .[2]

كان أبو بكر الباقلاني سنيّا على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري ، وكان من أبرز الأئمة الذين ساهموا في انتشار المذهب وتثبيت قواعده والدفاع عنه ، وخاصة في وجه المعتزلة ، وبعض الفرق ممن حاولوا النيل من عقيدة أهل السنة ، فكان لهم بالمرصاد ، ونافح عن دين الله بما أوتي من حجة و قوة وبرهان، أما مذهبه الفقهي فكان المذهب المالكي[3] ، حيث تبرز شخصيته العلمية القوية من خلال مؤلفه (إعجاز القرآن) ، وتظهر قدرته على المحاججة والرد على خصومه ، فقد كان " بارعا في الجدل ، عالي القدر في علوم القرآن ، والسنة والكلام ، تعرض لكثير من

---

[1] ينظر : مقدمة تحقيق كتاب الانتصار للقرآن الكريم لأبي بكر الباقلاني ، تحقيق محمد عصام القضاة ، الطبعة الأولى ، دار ابن حزم للنشر ، بيروت ـ لبنان، 1422هـ ـ 2001م ، ص 17 .

[2] ينظر : أبو بكر الباقلاني ، الانتصار للقرآن الكريم ، ص 18 .

[3] المصدر نفسه ، ص 19 .

المعارضين والمخالفين ، وقارعهم الحجج ، وجادل علماء الروم وظهر عليهم، مما أثار إعجاب معاصريه به" [1] .

للباقلاني الكثير من المؤلفات ، معظمها في الدفاع عن القرآن الكريم و أشهرها : إعجاز القرآن ، و الانتصار للقرآن ، وكتاب التمهيد .

أما كتابه (إعجاز القرآن) فقد حظي بمكانة رفيعة ومنزلة عالية بين مؤلفات الإعجاز القرآني ، و" مثل نقطة تحول فاصلة في تاريخ البحث في هذا الاتجاه"[2]، فعدّه بعض الدارسين أهم كتاب أُلّف في هذا الاتجاه .

يقول محقق كتاب (ثلاث رسائل في الإعجاز) معلقا على الباقلاني ومؤلَّفه (إعجاز القرآن) : " فأما الباقلاني فمن أعلام المؤلفين في إعجاز القرآن ، وكتابه في هذا يعتبر عمدة الباحثين في الموضوع "[3]، ولذلك نال اهتماما واسعا لدى الدارسين والمحققين ، وحظي بشهرة بلغت الأفاق في مجال إعجاز القرآن الكريم .

---

[1] محمد زغلول سلام ، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ، مكتبة الشباب بالمنيرة، الإسكندرية ، مصر ، الطبعة الأولى (1372هـ/ 1952م) ص 267.

[2] أشرف عبد البديع ، الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن ن ص 19 .

[3] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 1976م، ، ص 164 .

الفصل الأول :

اللسانيات النصية وإشكالية البحث اللساني العربي

أولا : اللسانيات النصية (الأطر النظرية والتحول المنهجي)

ثانيا : اللسانيات النصية في الثقافة العربية (فوضى المصطلح وتلقي النظرية)

أولا : اللسانيات النصية(الأطر النظرية والتحول المنهجي)

1 نشأة اللسانيات النصية :

اتجه البحث اللساني في مراحل تطوره نحو "النص" ليشكل نواة للدراسة ، فظهرت اللسانيات النصية ووجهت اهتمامها إليه دراسة وتحليلا ، فاللغة يتم إنتاجها في قالب نصوص بمختلف أشكالها ، متعلقة بسياقاتها المختلفة ، لذلك كان النص الأرضية الخصبة التي احتضنت الدراسات اللسانية في هذه المرحلة باتخاذه وحدة كبرى قابلة للتحليل والدراسة .

مثّل النص قاعدة أساسية وموضوعا مركزيا أعطى نفَسًا جديدا للدراسات اللغوية ، وعلى هذه القاعدة " قامت لسانيات النص ، فأحرزت تقدما على نفسها بعد أن كانت حدود الدرس مقصورة على لسانيات الجملة "[1] ، وشكلت حلقة من حلقات التطور في الدراسات اللغوية منذ نشأتها من ناحية الموضوع والمنهج ، راسمة بذلك تحولا في مسار الدرس اللساني الذي " أخرجها من مأزق الدراسات البنوية التركيبية التي عجزت في الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية البنوي والدلالي والتداولي "[2] ، فاللغة تدرس ضمن السياق الدلالي والتداولي الذي أنتجت فيه ، وهي خاضعة للظروف الاجتماعية والثقافية التي تحيط بها ، وليست ظاهرة معزولة عنها .

يمثل هذا التحول اللساني نقلة نوعية في مسار اللسانيات العامة ؛ تحاول ربط الحدث التواصلي(النص) بكل ما يحيط به من سياقات مختلفة من أجل الإيغال في وصف وتحليل اللغة بكل ما تقتضيه عملية التواصل من علاقات تجعل " النصوص هي

[1] منذر عياشي : الأسلوبية وتحليل الخطاب ، مركز الإنماء الحضاري حلب (سوريا) ط1 ، 2002 م ، ص 136.

[2] خولة طالب الإبراهيمي : مبادئ في اللسانيات ، دار القصبة للنشر (الجزائر) الطبعة الثانية ، 2006م، ص167.

المدار الحقيقي للاتصال للغوي"[1]، وقد وجب دراستها دراسة كلية مستندة إلى منهج يعتمد على آليات إجرائية محددة .

وعلى هذا الأساس " اقترحت اللسانيات النصية منهجا متميزا في وصف وتحليل النصوص ينطلق من نبذ النظرة الجزئية والتحرك في جميع الاتجاهات للكشف عن بنى النص المتضامنة ودلالاته وقرائنه ومعانيه النحوية وسياقه الخارجي "[2] ، لتشكل نظرة كلية في ذهن المتلقي عن النص وعن محيطه؛ تساعده في الوصول إلى فهمه وتحليله تحليلا موضوعيا انطلاقا من الإجراءات المستعملة في الدراسات النصية .

أكّد (فولفجانج هاينمنه) عند حديثه عن مرتكز الدراسات النصية على قضية الاتصال اللغوي بقوله :" لم يعد النص نفسه وبناؤه النحوي أو الدلالي الآن نقطة الارتكاز في دراسات علم اللغة النصي ، بل الممارسات الاتصالية العملية التي تؤسس النص؛ حيث تكون قابلة للتوضيح فقط بواسطة سياقات مجتمعة اجتماعية شاملة "[3].

إن الهدف الرئيس من هذه الدراسات هو فهم النصوص وإدراك دلالاتها لدى المتلقي ، ويتأكد ذلك بما ذهب إليه محمد خطابي أنه " لا يتسنى فهم التعابير والأقوال (الخطاب بصفة عامة) إلا بوصفها في سياقها التواصلي زمانا ومكانا ومشاركين ومقاما " [4] ، والحاصل أن وظيفة النصوص هي إدراك الوظيفة التواصلية للغة ويتبين

[1] خالد حميد صبري : اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة ، بحث في الأطر المنهجية والنظرية ، دار ومكتبة عدنان ، بغداد (العراق)، منشورات الاختلاف (الجزائر العاصمة) ، الطبعة الأولى ، 1436هـ / 2015م ، ص 30.

[2] نعمان بوقرة : المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، ص 36 .

[3] فولفجنج هاينه من ، ديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي ، ترجمة : فالح بن شبيب العجمي، مطبعة جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية ، 1419هـ / 1999م ، ص 61 .

[4] محمد خطابي : لسانيات النص ، ص 49 .

هذا من تعريف "برينكر" للنص على أنه:" وحدة لغوية وتواصلية في الوقت نفسه "[1]، ويوضح ذلك أكثر بوصفه " تتابعا محدودا من علامات لغوية متماسكة في ذاتها ، وتشير بوصفها كلا إلى وظيفة تواصلية مدركة" [2] .

وفصل القول أن "برينكر" في تعريفه للنص يشير إلى قضيتين أساسيتين هما :

ـ تماسك النص وترابطه وحداته من الناحية الداخلية .

ـ تعلقه بالسياق الذي يساهم في تحديد دلالته العامة بكونه أهم عنصر في عملية التواصل.

2 مسار الدراسات اللسانية النصية :

إن التطور الذي شهدته اللسانيات في القرن العشرين جعلها تتجه إلى النص لسبر أغواره واكتشاف عوالمه ؛ واللسانيات النصية كغيرها من الدراسات لم تنبثق من العدم ، إنما كانت إرهاصاتها الأولى مع اللغوي (زليج هاريس) من خلال عمله :(تحليل الخطاب) 1952م حيث يعد أول من أسس علم النص الحديث [3] ، وذلك عند دراسته للخطاب وكل ما يتعلق به، "واهتم بتوزيع العناصر اللغوية في النصوص والروابط بين النص وسياقه الاجتماعي" [4] ، وقد كان هاريس بهذا الإنجاز فاتحة عهد جديد في مجال الدراسات اللسانية من حيث الموضوع والمنهج .

---

[1] كلاوس برينكر : التحليل للغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج ، ترجمة سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار للنشر ، القاهرة مصر 1425هـ /2005م ، الطبعة الأولى ، ص 27

[2] المرجع نفسه ص 27

[3] ينظر : سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، الطبعة الأولى 1997م، القاهرة مصر ، ص 20

[4] صبحي إبراهيم الفقي : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، ص 23 .

يمكن أن نميز بين ثلاث مراحل في مجال تطور الدراسات اللسانية النصية :

المرحلة الأولى :

ترجع مبادئ المرحلة الأولى لنشأة اللسانيات النصية إلى تلك الإشارات المبدئية الداعية إلى اتخاذ النص قاعدة للتحليل اللساني وتجاوز مجال الجملة .

يندرج ما قدمه هاريس في تحليل الخطاب ضمن المرحلة الأولى لدراسة النص التي اعتبرها (روبرت دي بوجراند) إشارات تلمح إلى أنه " ينبغي للنص أو الخطاب أن يكون أساسا للدراسات اللسانية "[1] ، فقد حاول هاريس " توسيع حدود موضوع البحث اللساني الذي كان قد توقف عند الجملة فقط ، بجعله يتعدى حدود الجملة إلى الخطاب بكامله "[2] ، ومع ذلك تبقى جهوده في توسيع موضوع الدراسات اللسانية عبارة عن بدايات يعلق عليها دي بوجراند بأنها " لم تؤثر في مسيرة اللسانيات المألوفة ولم تصل إلى دراسة النص كاملا "[3].

المرحلة الثانية : بعد تقدم الدراسات اللغوية تبلورت أفكار جديدة و ظهرت دراسات تهتم بالنصوص ، وذلك خلال فترة السبعينات حيث البداية الفعلية لهذا العلم [4]، حسب ما أورده سعيد حسن بحيري .

بدأت هذه المرحلة بما قدمه (هالداي و رقية حسن) عن الاتساق في اللغة الانجليزية ، وذلك عام (1976م) ، حيث اعتمدا على دراسة الاتساق وأساليبه

---

[1] روبرت دي بوجراند : النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة،ط1481،1هـ / 1998م، ص 65 .

[2] عبد الواسع الحميري : الخطاب والنص " المفهوم ، العلاقة ، السلطة " ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1429 هـ/ 2008م ، ص 90 .

[3] روبرت دي بوجراند : النص والخطاب والإجراء ، ص 65.

[4] ينظر سعيد حسن بحيري :علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، ص 1.

المختلفة، وفي عام (1977م) يقدم الباحث الهولندي (فان ديك) في كتابه(النص والسياق) رؤية جديدة في التعامل مع النصوص ، ويضيف بعدا ثالثا في التحليل النصي هو البعد التداولي[1]، و اعتمد في ذلك على دراسة العلاقة بين النص والسياق .

أراد (فان ديك) من خلال هذا المؤلف أن يؤسس لعلم يهتم بتحليل النصوص،و" يأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد التي لها صلة بالخطاب ، بما في ذلك الأبعاد البنيوية والسياقية والثقافية" [2].

يستمر (ديك) في دراساته النصية ويطورها ، لينشر عام 1980م كتابه (علم النص مدخل متعدد الاختصاصات) الذي يرى فيه أن المهمة الأساسية لعلم النص" أن يصف الجوانب الأساسية لأشكال الاستعمال اللغوي وأشكال الاتصال ويوضحها ، كما تحلل في العلوم المختلفة ، في ترابطها الداخلي والخارجي "[3]. وكان كتابه الثاني أكثر شمولا من الأول ؛ بيّن فيه الأنساق الاجتماعية والنفسية المؤثر في فهم النص واستراتيجيات الإنتاج والتلقي [4] .

خلال هذه المرحلة ينتقل الدرس النصي من مجرد إشارات إلى ضرورة توسيع مجال الدراسة اللسانية إلى ممارسات نصية متعلقة بجوانب مختلفة في النصوص؛ من حيث بنيتها اللغوية الشكلية وتماسكها السطحي، ثم بنيتها العميقة وانسجامها الدلالي ، واتخاذها

[1] ينظر حسام أحمد فرج : نظرية علم النص ، رؤية منهجية في بناء النص النثري ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط 1، 2002م ، ص 17.

[2] محمد الأخضر الصبيحي : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه ، ص 62.

[3] فان ديك : علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة سعيد حسن بحيري ،دار القاهرة للكتاب ، مصر الطبعة الأولى ،1421هـ / 2001م ، ص 11

[4] ينظر : حسام أحمد فرج ، نظرية علم النص، ص 17 .

موضوعا أساسيا في الدراسات اللسانية، ثم البحث في البعد التداولي لها وعلاقتها بالسياق.

المرحلة الثالثة :

توسع مجال البحوث اللسانية في الثمانينات حيث " أخذت الدراسات النصية تنحو منحى جديدا وذلك على يد (روبرت دي بوجراند) في كتابه (النص والخطاب والإجراء)، إذ يوجه علم النص إلى التركيز على النواحي الاتصالية للعملية اللغوية "[1] ، بعد تأكيده على أن" الخاصية الأولى للنصوص من باب أولى هي: كونها ترد في الاتصال " [2].

وضع (روبرت دي بوجراند) رؤية جديدة في التعامل مع النصوص واقترح سبعة معايير ترتكز عليها الدراسة اللغوية للنص من وجهة نظره ، وقد أشار محمد الأخضر الصبيحي " أن الدراسات النصية لم تبلغ أوجها إلا مع اللغوي الأمريكي (روبرت دي بوجراند) في الثمانينيات من القرن العشرين" [3] .

اقترح (دي بوجراند) المعايير التي تثبت نصية النصوص ، ومن خلالها يكون التحليل النصي وهي : الاتساق ، الانسجام ، القصد ، القبول ، رعاية الموقف (السياق)، التناص ، الإعلامية [4].

إن تحليل النصوص انطلاقا من هذه المعايير يمس جميع جوانبها ، إذ ينتقل التحليل تدريجيا من البنية السطحية للنص (الاتساق) إلى البنية الدلالية له (الانسجام)،

[1] خليل بن ياسر البطاشي : الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب ، دار جرير للنشر ، عمان ، الأردن ط 1، (1430هـ / 2009م) ص 46.

[2] روبرت دي بوجراند : النص والخطاب والإجراء ، ص 64

[3] محمد الأخضر الصبيحي : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقاته ، ص 63.

[4] ينظر : روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ص 103، 104 .

حتى يصل بالمعني إلى ذهن المتلقي من خلال مشاركته بنصوص أخرى (التناص) وربطه بسياق الموقف .

تتميز اللسانيات النصية بأنها علم لم يتعلق في نشأته وتطوره ببلد بعينه [1] ، ورغم كونه علما متداخل الاختصاصات إلا أنه " أصبح في طريقه للاستقلال على يد فان ديك و هالداي وروبرت دي بوجراند وآخرين "[2] ، حيث أضاف كل واحد منهم نظرة في تحليل النصوص إلى أن اتخذت منهجا شموليا لا يقصي أيًّا من المشاركين في إنتاج الخطاب وفهمه وتأويله .

ثانيا: اللسانيات النصية في الثقافة العربية الحديثة(فوضى المصطلح وتلقي النظرية)

يمكن الحديث ضمن هذا المبحث من الدراسة عن قضيتين مترابطتين؛ الأولى متعلقة بكيفية تلقي اللسانيات النصية في الثقافة العربية ، والثانية متعلقة بالمصطلحات المستعملة من خلال هذا التلقي ، حيث نجد تذبذبا واختلافا في الاستعمالات الدالة على المعنى ذاته ، وهذا ما يثير اضطرابا معرفيا في ذهن القارئ العربي يجعله يتيه بين كثرة المصطلحات وتباينها ، ويخلق فوضى مصطلحية لديه .

1 فوضى مصطلحات لسانيات النص:

اهتم الباحثون بتحديد موضوع الدراسة في اللسانيات النصية وجعلوها فرعا من فروع علم اللغة الذي " يهتم بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى ، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها الترابط أو التماسك ووسائله ، وأنواعه ، والإحالة أو المرجعية وأنواعها ،

[1] ينظر : سعيد حسن بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، ص 101.

[2] أحمد عفيفي : نحو النص ، ص 34.

والسياق النصي ، ودور المشاركين في النص (المرسل والمستقبل)، وهذه الدراسة تتضمن النص المنطوق والمكتوب على السواء"[1].

إن تحديد موضوع الدراسات النصية بهذا الشكل يجعلها تحيط بجوانب عديدة داخل النص وخارجه ، ويشير إلى أهم الوسائل الإجرائية في التحليل النصي مثل : الاتساق،الانسجام ، الإحالة ، السياق، المؤلف ، المتلقي ، وكلها عناصر مهمة تؤكد أهمية التحليل النصي لإدراك الدلالة التامة للنص [2]. فالتحليل اللساني من هذه الزاوية يهدف أساسا إلى فهم النصوص في سياقاتها وإدراك مدى انسجامها وترابطها وفق ما تقتضيه معايير النصية .

إن المتتبع للدراسات اللسانية العربية الحديثة المهتمة بهذا الموضوع تواجهه إشكالية المصطلحات المستعملة للدلالة على هذه البحوث المتعلقة بالنص ، فيجد تعددا في العبارات التي تحيله إلى دائرة لسانيات النص ، إذ تختلف من قطر إلى آخر أو من دارس إلى آخر ، وهذا التعدد والاختلاف لم يقتصر فقط على اسم العلم ، بل يمتد إلى جزئياته وأدواته الإجرائية كالانسجام والاتساق والسبك والحبك والتضام و الالتئام وغيرها، ناهيك عن التداخل الحاصل بين مصطلحي النص والخطاب وهما نواة الدراسات النصية.

وهذه أهم المصطلحات المستعملة للدلالة على هذا العلم الذي يهتم بتحليل النصوص ودراستها دراسة لسانية :

ـ نحو النص

ـ نحو النصوص

[1] صبحي إبراهيم الفقي : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، ص 36 .

[2] ينظر : المرجع نفسه ، ص 15 .

ـ علم اللغة النصي

ـ علم لغة النص

ـ علم النص

ـ نظرية النص

ـ لسانيات النص

ـ لسانيات الخطاب

ـ تحليل الخطاب اللساني

ـ أجرومية النص

من خلال تتبع الدراسات اللسانية النصية العربية الحديثة نجد أن بعض الباحثين يميلون إلى استعمال مصطلح دون آخر ، وهذا راجع إلى المرجعيات الفكرية التي يعتمد عليها كل باحث .

فهذا الباحث (أحمد عفيفي) أحد المهتمين بالدراسات النصية ، يشير إلى التداخل الاصطلاحي في هذا المجال ، ويبيّن أن مصطلح "علم لغة النص" يقصد به لسانيات النص ، أما "علم النص" فهو مرتبط بالنقد الأدبي ويعلق على تلك الاستعمالات قائلا :" لسانيات النص تعني علم اللغة النصي أو نحو النص "[1] ، إلا أنه يستعمل في كتاباته

[1] أحمد عفيفي : نحو النص ،اتجاه جديد في الدرس النحوي ، ص 32 .

المصطلح الأخير (نحو النص) بدل لسانيات النص أو علم اللغة النصي ، وإلى جانبه نجد "الأزهر الزناد" يعتمد المصطلح ذاته ولكن بصيغة الجمع: (نحو النصوص) [1] .

وكذلك الباحث محمد الشاوش في كتابه (أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية . تأسيس نحو النص)[2] ، ومحمد أبو خرمة في كتابه (نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى)[3] فهما يستعملان المصطلح نفسه (نحو النص) .

وأما سعد مصلوح فإنه يضيف استعمالا رابعا هو: (أجرومية النص)[4]، وذلك في دراسة نشرها في مجلة فصول بعنوان : نحو أجرومية للنص الشعري (دراسة في قصيدة جاهلية).

(نحو النص) مصطلح لا يلغي الاستعمالات الأخرى ، وإنما هناك من يميل إلى استعمال مصطلح (علم اللغة النصي) مثل صبحي إبراهيم الفقي [5] ، ومحمد العبد في

---

[1] ينظر : الأزهر الزناد نسيج النص ، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء (المغرب) ط1، 1993م ص 18 .

[2] ينظر : محمد الشاوش ، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية " تأسيس نحو النص "، الجزء الأول ، جامعة منوبة تونس ، المؤسسة العربية للتوزيع (تونس) الطبعة الأولى ،1421هـ/ 2001م ، ص 79.

[3] ينظر : محمد أبو خرمة ، نحو النص . نقد النظرية وبناء أخرى . عالم الكتب الحديث ، إربد (الأردن) الطبعة الأولى ، 1425هـ /2004م ، ص 81.

[4] ينظر : سعد مصلوح ، نحو أجرومية للنص الشعري (دراسة في قصيدة جاهلية) مجلة فصول : مجلد 10 ، عدد (2/1) 1991م ، ص 153.

[5] ينظر : صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، ص 36 .

كتابه (النص والخطاب والاتصال) [1]، وكذلك سعيد حسن بحيري الذي يرى أن علم لغة النص أحدث فروع علم اللغة [2].

أما المصطلح الثالث (لسانيات النص) فهو الأكثر شيوعا بين الدارسين، حيث نجده عند محمد خطابي في كتابه (لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب) وعند نعمان بوقرة الذي يشير إلى الترادف الحاصل بين الاستعمالين بقوله :" نحو النص هو مصطلح يقابل لسانيات النص "[3]، وهو يميل إلى استعمال مصطلح (لسانيات النص) في كتابه: (المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب)، وصرّح بذلك في كتابه (الخطاب والنظرية والإجراء) بقوله : " نستعمل في هذه الدراسة مصطلح نحو النص مرادفا لمصطلح لسانيات النص ولسانيات الخطاب " [4].

يبيّن الجدول التالي أهم الاستعمالات الدالة على لسانيات النص :

المصطلح	الباحث	عنوان كتابه
علم اللغة النصي	ـ صبحي إبراهيم الفقي	ـ علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق(دراسة تطبيقية في السور المكية)
علم لغة النص	ـ سعيد حسن بحيري	ـ علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات

[1] ينظر : محمد العبد ، النص والخطاب والاتصال ،الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي ،مصر ، ط 1 ،2014م ، ص 69.

[2] ينظر : سعيد بحيري علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات ، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان) مصر ، الطبعة الأولى 1997م ، ص 01.

[3] نعمان بوقرة : المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، ص 140.

[4] نعمان بوقرة : الخطاب والنظرية والإجراء ، دار جامعة الملك سعود للنشر ،المملكة العربية السعودية ، ص 12 .

	ـ إلهام أبو غزال وعلي أحمد خليل ـ محمد العبد	ـ مدخل إلى علم لغة النص ـ النص والخطاب والاتصال
نحو النص	ـ أحمد عفيفي ـ محمد الشاوش ـ محمدّ أبو خرمة ـ أشرف عبد البديع ـ سعد مصلوح	ـ نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ـ أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية " تأسيس نحو النص" ـ نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى ـ الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن . ـ العربية من نحو الجملة إلى نحو النص .
أجرومية النص	ـ سعد مصلوح	ـ نحو أجرومية للنص الشعري : " دراسة في قصيدة جاهلية "
لسانيات النص	ـ محمد خطابي ـ نعمان بوقرة ـ جميل عبد المجيد	ـ لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ـ المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب . ـ البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية .

لسانيات الخطاب ولسانيات النص	ـ خالد حميد صبري ـ عبد الرحمن بودرع ـ نعمان بوقرة	ـ اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة ـ في لسانيات النص وتحليل الخطاب ـ قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم . ـ الخطاب والنظرية والإجراء
علم النص	ـ محمد الأخضر الصبيحي ـ صلاح فضل ـ حسام أحمد فرج	ـ مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه ـ بلاغة الخطاب وعلم النص ـ نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري .

يمكن أن نشير إلى بعض الملاحظات حول هذه الاستعمالات الواردة في الجدول:

ـ تختلف المصطلحات المستعملة حسب الأقطار التي ينتمي إليها الباحثون من قطر إلى آخر بين المشرق العربي والمغرب .

ـ بعض الباحثين ملتزمون باستعمال مصطلح(لسانيات) بإضافته إلى مصطلح (النص) حسب ما تم الاتفاق عليه في الدورة الرابعة للسانيات سنة 1978م على استعمال مصطلح اللسانيات والتخلي عن غيره من المصطلحات التي تثير كثيرا من الغموض والالتباس[1].

[1] ينظر : مصطفى غلفان ، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين ، ص 151 .

ـ نجد استعمالين مختلفين لباحث واحد في مؤلفين مختلفين فسعد مصلوح مثلا يستعمل مصطلحين مختلفين أجرومية النص، و نحو النص .

2 تلقي اللسانيات النصية في الثقافة العربية الحديثة

ما إن أرست اللسانيات النصية أسسها ومبادئها على خارطة البحث اللساني حتى أقبل عليها بعض اللسانيين العرب يهتمون بها دراسة ونقلا إلى الثقافة العربية ، ومن أوائل الذين سلكوا هذا الاتجاه؛ الباحث المغربي محمد خطابي بمؤلفه الذي نشره عام 1991 م (لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب) ، ثم توالت بعده العديد من الدراسات والبحوث .

يمكن أن نميز في مجال اللسانيات النصية العربية الحديثة بين ثلاثة أصناف من الدراسات، حسب موضوعها ومجال تطبيقاتها ، حيث نجد بعضها تقدم ما أنتجه البحث النصي الغربي للقارئ العربي في قالب تعريفات ومفاهيم نظرية ، ودراسات أخرى تهتم بالجانب التطبيقي فتتخذ من النصوص العربية مجالا لتطبيق إجراءات المنهج الغربي عليها ، سواء كانت نصوصا شعرية أو نثرية ، وهناك أبحاث أخرى تتجه إلى تأصيل الدراسات النصية الحديثة في التراث العربي بمختلف تخصصاته وتحاول الكشف عن جذور البحث النصي وأصوله في الإنتاج الفكري العربي القديم .

و ليست الغاية من عرض هذه الدراسات الوقوف على أراء أصحابها بغية تقييمها ونقدها ، بل الهدف من ذلك هو عرض تلك الآراء وتصنيفها من أجل معرفة موقع الدراسات العربية ضمن مضمار اللسانيات النصية عموما .

أولا : دراسات نظرية مفاهيمية

وهي تلك البحوث التعريفية التي تهتم بتقديم ما أنتجه الدرس اللساني النصي الغربي للقارئ العربي في شكل نظري أو على شكل ترجمة له من أجل تسهيل الإطلاع على ما وصل إليه الفكر الغربي في حيز اللسانيات النصية ، وهي بحوث تندرج ضمن ما أسماه مصطفى غلفان :(الكتابات التمهيدية)، وهذا النوع من الدراسات تلتزم " المنهج التعليمي القائم على التوضيح والتبيان والشرح ، وما يتطلبه كل ذلك من وسائل مساعدة كالأمثلة والرسوم البيانية، وتروم هذه الكتابات تقديم اللسانيات ومفاهيمها النظرية والمنهجية بشكل مبسط قصد تيسير المعرفة اللسانية للقارئ العربي سواء كان مبتدئا يلج عالم التخصص، أو قارئا ينشد التسلح باللسانيات للاستفادة منها في مجالات فكرية أخرى ، من فكر عربي، أو نقد أدبي، أو تاريخ أو ما شابه ذلك " [1] .

ينطلق أصحاب هذا الاتجاه في دراساتهم من نقل أهم النظريات النصية الغربية للقارئ العربي للتعريف بها مبينين مناهجها ومبادئها ووسائلها وإجراءاتها وأعلامها وأهم اتجاهاتها ، وقد اهتم بذلك ثلة من اللسانيين منهم :

ـ حسن بحيري (علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات):

الباحث "حسن سعيد بحيري" له باع طويل في الدراسات النصية العربية بمؤلفاته ، أو من خلال ترجماته للعديد من المؤلفات التي تُنظّر للبحث النصي .

أهم مؤلف للباحث هو (علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات) نشره عام 1997م،عُني فيه بتقديم تعريف لعلم لغة النص للقارئ العربي ، وبيان أهم مفاهيمه

[1] مصطفى غلفان : اللسانيات العربية الحديثة ، ص 91.

الأساسية واتجاهاته ، وقد ألَّفه كمدخل نظري إلى البحث النصي " يتناول جوانب جوهرية من هذا العلم ، تليه دراسات في نظرياته واتجاهاته" [1] .

انطلق بحيري من مدخل نظري نقدي ركّز فيه على " إيضاح علاقة علم لغة النص بعدة علوم تتداخل معه تداخلا شديدا "[2] ، ليعرض بعدها مفاهيم النص وتعريفاته وأشكاله وأبنيته ، ثم أهم الاتجاهات في التحليل النصي ، حيث قسمها إلى ثلاث اتجاهات رئيسة كما ذكرها في كتابه :

1 تجزئة النص عند فاينريش: الذي ينطلق من مسلمة مفادها أن النص : " تكوين حتمي أجزاؤه ثابتة ، بمعنى أنه وحدة كلية مترابطة الأجزاء "[3] ، وقد بين بحيري أن صاحب هذا الاتجاه " اعتمد في تحديد وحدة النص على مجموعة من السياقات الدلالية التي تتضافر لتكون التماسك الكلي "[4]. فالنص من هذا المنظور مجموعة من الأجزاء التي تتماسك بوجود السياق لتشكل وحدة دلالية كبرى يسهل تحليلها وفهمها .

2 نحو النص عند فانديك : يتحدث بحيري عن محاولات فانديك " بأنها محاولات متقدمة إلى حد بعيد في شرح عملية الترابط (النحوي) بين المتواليات النصية ، والتماسك(الدلالي) بين الأبنية النصية الكبرى ، وقد ارتكز فيها جميعا على أسس دلالية منطقية " [5]، فالتحليل النصي لا يكتمل بالمستوى النحوي التركيبي فقط، ولا المستوى الدلالي لتحديد المعنى العام للنص من أجل إدراك دلالته الكلية لدى المتلقي ، بل يتمّ " بإضافة المستوى الثالث وهو المستوى التداولي : مستوى الحدث الكلامي وما يتطلبه من

[1] سعيد حسن بحيري : علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ص 02 .

[2] المرجع نفسه ، ص 03.

[3] المرجع نفسه ، ص192.

[4] المرجع نفسه ، ص 192.

[5] المرجع نفسه ، ص 220.

قيود ومعايير ، فلم يعد كافيا أن يوصف المنطوق من جهتي بنيته النحوية والدلالية ، وإنما باعتبار الحدث المنجز من خلال إنتاج مثل ذلك المنطوق ،أي أن إضافة هذا المستوى ستمكن من إعادة بناء جزء من المقتضيات التي تجعل الأقوال (المنطوقات / الجمل الصغرى) مقبولةً تداوليةً ، وبمعنى آخر مناسبتها بالنظر إلى السياق التواصلي الذي تنجز فيه "[1] . فمن خلال السياق التواصلي للنصوص وبنياتها النحوية والدلالية يستطيع المتلقي أن يصل إلى التحليل الكلي للنص ومن ثم إدراك وفهم معانيه .

3 التحليل التوليدي للنص عند "بتوفي" (أو التحليلي النحوي . الدلالي للنص) :

يبيّن بحيري أن صاحب هذا النموذج يرى أن النظرية النحوية هي الأساس في التعامل مع النص باعتباره وحدة كلية [2] ، وهو متأثر بتشومسكي ، حيث يؤكد أنه " لا بد أن يوضح كفاءات المتحدثين والمستمعين في الوقت ذاته ، أي كيف يبدأ المتحدث من المعنى ويصوغ المتتابعات الجملية المتضمنة له في وحدة مترابطة ، ثم كيف تمضي هذه العملية التواصلية ، إلى أن يبدأ المستمع في تلقي هذه التتابعات ليرتد إلى المعنى تارة أخرى"[3]. فهذا النموذج يعتمد على المستويات الثلاثة : النحوي والدلالي والتداولي.

وللباحث سعيد حسن بحيري إسهامات أخرى في اللسانيات النصية أغلبها على شكل ترجمات لمؤلفات غربية منها :

ـ علم النص مدخل متداخل الاختصاصات(فان دايك) (2001م) .

ـ مدخل إلى علم لغة النص (فولفجانج هاينيه مان و ديتر فيهجيجر) سنة (2004م) .

[1] سعيد حسن بحيري : علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، ص 231 .

[2] ينظر: المرجع نفسه ، ص 256 .

[3] المرجع نفسه ص 256.

ـ التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج(كلاوس برينكر) (2005م) .

ـ علم لغة النص نحو أفاق جديدة مجموعة مقالات لمجموعة من المؤلفين (2007م).

ـــ أحمد عفيفي " نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ":

تميزت دراسة أحمد عفيفي التي نشرها عام 2001م بأنها دراسة نظرية ؛ انطلق فيها من عرض مفاهيم بعض المصطلحات اللسانية كالجملة والنص ونحو النص ، ليقدم تبريرا لضرورة الانتقال بالدراسات اللسانية من الجملة إلى النص [1] ، ثم يفصل البحث في الترابط النصي و أشكاله ووسائله [2].

ـــ محمد الأخضر الصبيحي : "مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقاته" 2008 م

يشير عنوان الدراسة إلى أنها تتكون من شقين :

الشق الأول : بدأه بعرض تاريخي لنشأة هذا الاتجاه الجديد ، ثم تفصيل عوامل تأسيسه وتبرير الانتقال من دراسة الجملة إلى دراسة النص ، إذ يبيّن أن الانتقال بالبحث إلى مستويات تتجاوز الجملة يعود أساسا إلى " أن هذه الأخيرة نالت كفايتها من التمحيص والدراسة من جميع نواحيها وأن الوقت قد حان للانتقال إلى دراسة ظواهر لغوية أخرى هي النصوص بجميع أنواعها " [3].

قدم محمد الأخضر الصبيحي تبريره لانتقال الدراسات اللسانية من حيز الجملة إلى النص بعدما عرض رأي خولة طالب الإبراهيمي التي تذهب إلى أن " الجملة ليست هي

[1] ينظر : أحمد عفيفي ، نحو النص ، ص 37 .

[2] ينظر : المرجع نفسه ص 91.

[3] محمد الأخضر الصبيحي : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه ص 66 .

الوحدة القاعدية للتبادلات الكلامية والخطابية، بل النص هو وحدة التبليغ والتبادل " [1] ، ثم يتواصل حديثها عن ذلك إلى أن تقول أنه " ينبغي إذن أن نتجاوز إطار الجملة لنهتم بأنواع النسيج النصي التي يحدثها المتكلمون أثناء ممارستهم الكلامية " [2].

و من أجل أن يثبت الصبيحي رأيه يعرض تبريرا آخر نقله عن تمام حسان من مقدمة ترجمته لكتاب روبرت دي بوجراند (النص والخطاب والإجراء) يدعو فيه إلى ضرورة تجاوز دراسة الجملة بحجة أن " الاتصال لا يتم بواسطة وصف الوحدات الصغرى صوتية وصرفية ، ولا بعرض الوحدات النحوية ، وإنما يتم باستعمال اللغة في موقف أدائي حقيقي، أي بإنشاء نص ما ، وقد يطول هذا النص أو يقصر " [3] .

بعد عرضه لهذه التبريرات ينتقل إلى الحديث عن موضوع علم النص ويفصل مباحثه :" الاتساق ، الانسجام ، المقصدية ، المقبولية ، السياق ، التناص "[4] .

الشق الثاني : ذكر فيه الجوانب التطبيقية لهذا العلم؛ حيث يبين فوائده التعليمية في مجال تعليمية النصوص ، ويؤكد أن هدف ذلك يرجع أساسا إلى المتعلم إذ " يكسبه كفاية نصية عالية على المستويين القرائي والإنتاجي (الكتابي) معا "[5].

---

[1] خولة طالب الإبراهيمي : مبادئ في اللسانيات ص 168 ، وينظر : محمد الأخضر الصبيحي : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه ص 64

[2] خولة طالب الإبراهيمي : مبادئ في اللسانيات ص 168 .

[3] تمام حسان من مقدمة ترجمة كتاب (النص والخطاب والإجراء) لروبرت دي بوجراند ، ص 4.

[4] محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص 81 .

[5] المرجع نفسه، ص 121.

ثانيا : دراسات تطبيقية

هي تلك الدراسات التي يعتمد فيها أصحابها على جزء نظري يبين من خلالها أهم المفاهيم الخاصة بالنظرية النصية الغربية وأهم إجراءاتها ووسائلها، وجزء تطبيقي يحاول من خلاله تطبيق تلك الوسائل الإجرائية على مدونة نصية عربية ، شعرية أو نثرية أو قرآنية .

ـ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق . دراسة تطبيقية على السور المكية:

تهدف دراسة صبحي إبراهيم الفقي إلى تحليل أقدس النصوص العربية تحليلا نصيا يساير ما وصلت إليه هذه النظرية من تحليل نصي معاصر[1] ، وقد اختار شطرا من هذه النصوص لتطبيق ما أنتجته النظريات اللسانية من آليات إجرائية في التحليل النصي على النص القرآني ؛ متخذا من السور المكية مدونة تطبيقية لبحثه .

يعلل الباحث اختياره لنص مقدس وفصيح وغير بشري بأن السور المكية " تحمل دلالة كلية تتمثل في أنها تتحدث عن قضية العقيدة ، الألوهية والربوبية والعبودية ، وما يتعلق بها من ذكر آلاء الله ، والجنة والنار والقصص ...وغير ذلك ، والوحدة الدلالية هذه تتمثل في التماسك النصي في أعظم صورة له "[2]، وقد اعتمد على الوسائل الإجرائية للتماسك النصي من أجل إثبات هذه الوحدة الدلالية بين السور المكية .

قسم الفقي دراسته إلى جزأين :

[1] ينظر صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ص 12 .

[2] المرجع نفسه ، ص 15 .

جزء نظريٌّ: بيّن من خلاله أهم المفاهيم الخاصة بالنص وعلم اللغة النصي ، ولمّا كان التماسك النصي أهم مظهر من مظاهر التحليل في النظرية اللسانية النصية، سعى إبراهيم الفقي إلى بيان مفهومه وأهميته وأدواته ، وعلاقاته بالسياق والمتلقي[1].

جزء تطبيقي : حاول من خلاله إثبات التماسك النصي في السور المكية ، مبيّنا مرجعية الضمائر بأنواعها ، ومنها الضمائر الشخصية و الإشارية و الموصولية ، إذ ينطلق في تحليله من توضيح و معرفة القضية التي تعالجها السور المكية، وذلك من أجل إدراك العلاقة بين وسائل التماسك النصي والموضوع الأساسي للمدونة [2].

كانت انطلاقة الدراسة من فاتحة الكتاب ، حيث شملت أمرين :

ـــ علاقات الآيات بعضها ببعض في السورة نفسها .

ـــ علاقات السورة مع السور الأخرى [3].

استند الباحث في تحليله على الضمائر وبيان مرجعيتها الداخلية والخارجية بالاعتماد على موضوع كل سورة وسياقها ، وفي النهاية وصل في خاتمة بحثه إلى تأكيد وظيفة الضمائر في تحقيق التماسك النصي[4].

ـــ سعد مصلوح : نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية

انطلق سعد مصلوح في دراسته من معيارين أساسين من معايير النصية عند دي بوجراند هما الاتساق والانسجام ، ليحاول من خلالهما بيان مظاهرهما في قصيدة (لابنة

[1] ينظر : صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، ص 92.

[2] ينظر: المرجع نفسه ، ص 173.

[3] ينظر: المرجع نفسه ص174 .

[4] ينظر : المرجع نفسه ص 240.

عجلان) للشاعر الجاهلي المرقش الأصغر* ، فأورد نص القصيدة وعرّف بصاحبها ، وذكر مناسبتها [1].

استهل الباحث دراسته ببيان أهم المفاهيم المتعلقة بالنظرية النصية وأهم إجراءاتها المنهجية ، مبينا الطريق الذي سلكه في التحليل ، كاشفا عن أسسه المنهجية في الدراسة النصية ، ومتخذا من معياري الاتساق والانسجام أدوات إجرائية للتحليل النصي ؛ وفق ما أفرزته النظرية اللسانية النصية عند الأمريكي روبيرت دي بوجراند ، من معايير نصية ، وقد بين مصلوح المفاهيم الأساسية لتلك المعايير متخذا منها منهج الدراسة ، ومحاولا تطبيقها على النص العربي .

بيّن مصلوح الغاية من سلوكه هذا المنهج داعيّا إلى " ضرورة العمل على إرساء منهج لساني في نقد الأدب العربي ، يكون فيه النص أو الخطاب الأدبي هو موضوع الدراسة ، ويكون فيه منهج الدراسة لسانيا "[2]، وأكد على الحاجة الماسة إلى إرساء هذا المنهج في الدراسات العربية ، وأنه آن الأوان إلى " تغيير القبلة البحثية ، وذلك بالانتقال بالنحو العربي (واللسانيات العربية بعامة) من طور ظل فيه حبيس أسوار الجملة ، أي الكلام المفيد فائدة يحسن السكوت عليها ، إلى دور يكون فيه النحو (بالمفهوم الواسع للمصطلح) قادرا بوسائله على محاصرة النص ووصفه ، والكشف عن علاقاته التي

[1] ينظر سعد مصلوح ، نحو أجرمية للنص الشعري ،دراسة في قصيدة جاهلية ، مجلة فصول مجلد، 10،عدد 1-2 (م1991)، ص 151 .

*المرقش الأصغر : ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة من بني بكر بن وائل وهو عم طرفة بن العبد صاحب المعلقة المشهورة ،أما مناسبة القصيدة فقد كانت حديثا عن هند بنت عجلان ، وهي جارية صاحبته فاطمة بنت المنذر ، ينظر المرجع نفسه ، ص 151 .

[2] المرجع نفسه ، ص 153 .

تتحقق بها نصية النص بما هو حدث تواصلي مركب ، ذو بنية مكتفية بنفسها ، قادرة على الإفصاح والتأثير والفعل " [1].

قسّم الباحث القصيدة إلى وحدات نصية ، واستند في تحديد مقاطعها على رصد تحولات الضمائر الشخصية فيها كبرهان على كفاءة التقسيم [2]، ثم انتقل مباشرة للكشف عن وسائل السبك النصي على مستوى البنية الشكلية الظاهرية في النص ، باحثا ومستنبطا آليات تحقق الحبك على المستوى العميق فيه .

وصل سعد مصلوح في خاتمة دراسته وفق المنهج النصي الذي اتبعه في التحليل إلى الحكم على القصيدة بإحكام نسجها على مستوى التشكيل اللغوي للنص (ظاهر النص) وانسجامها على مستوى عالم النص ، وأن " من المعايير التي بها يكون النص نصا ؛ هما معيار السبك ومعيار الحبك ، وهما معياران كاشفان عن ثراء النص الأدبي والقدرات الكامنة والفعالة فيه بما هو إنتاج إبداعي يتحقق في اللغة وباللغة " [3] .

ـ حسام أحمد فرج : نظرية علم النص(رؤية منهجية في بناء النص النثري)

سعى حسام أحمد فرج في دراسته إلى تحليل نصوص نثرية عربية بالاعتماد على ما قدمه دي بوجراند في نظريته التي تنطلق من كون النص " حدث اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير ، وهي الربط والتماسك و القصدية و المقبولية و الإخبارية والموقفية و التناص"[4] .

[1] سعد مصلوح ، نحو أجرمية للنص الشعري ،دراسة في قصيدة جاهلية ، ص 153 .

[2] ينظر: المرجع نفسه ، ص 155 .

[3] المرجع نفسه ، ص 165 .

[4] سعيد حسن بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، ص 146.

واختار نوعا من النصوص النثرية التي يرى أنها مناسبة وجيدة للدراسة النصية، وهي الرسائل الإخوانية في عصر المرابطين والموحدين ، وعلّل اختياره هذا بأن الرسائل الإخوانية عبارة عن " خطاب ممتزج بسياقه ، أي أنها موقف اتصالي صريح ومباشر، لذلك اكتسبت قيمة اتصالية عالية ، إذ تقدم صورة للعلاقات بين الأصدقاء في الأندلس في سياق تاريخي واجتماعي محدد"[1]. وهذا ما جعلها مناسبة للتحليل وفق ما عرضه دي بوجراند ، وهدفه في ذلك هو " الوصول إلى رؤية منهجية شمولية وموضوعية في التعامل مع النص ، تحــاول أن تصل إلى تحديد هويتــه عبر طرق عدة لغوية و دلالية و براجماتية"[2].

عرض الباحث تحليله للنصوص التي اختارها وفق رؤية منهجية تساير ما عرضه دي بوجراند ، حيث بدأ تحليله انطلاقا من بيان مفهوم السياق وعلاقته بالنص وأنواعه ، ثم انتقل مباشرة إلى عرض السياق التاريخي الذي وردت فيه الرسائل الإخوانية وأهم الظروف الاجتماعية التي تحيط بها، إذ يتحدث في الفصل الأول عن معياري القصدية و المقبولية من الناحية النظرية ، ثم يعرض مقاصد الرسالة الإخوانية من حيث كونها " نص موجه من شخص بعينه إلى متلق محدد ، بهدف إيصال معلومة ما بشكل مؤثر "[3].

[1] حسام أحمد فرج : نظرية النص ، رؤية منهجية في بناء النص النثري ، ص 11.

[2] المرجع نفسه ، ص 19.

[3] المرجع نفسه ، ص56.

ثالثا : دراسات تأصيلية في التراث العربي

تعتمد هذه الدراسات على فكرة العودة إلى الإنتاج اللغوي العربي القديم لتتخذ منه موضوعا للدراسة ، وهذا ما يسميه مصطفى غلفان (لسانيات التراث)[1] ، ويبين أن " من غايات لسانيات التراث وأهدافها قراءة التصورات العربية القديمة وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللساني الحديث والتوفيق بين نتائج الفكر اللغوي القديم والنظريات اللسانية الحديثة ، وبالتالي إخراجها في حلة جديدة تبين قيمتها التاريخية والحضارية "[2] .

وقد انتشر هذا الاتجاه كثيرا في الدراسات اللسانية العربية الحديثة التي " تهدف إلى تسليط مقولات الفكر اللساني المعاصر على التراث اللغوي القديم بغية تقييمه "[3]،كما عبّر عن ذلك الباحث عبد السلام المسدي ، ويقابل ذلك اتجاه آخر يميل إلى العودة إلى التراث " تأسيسا للمستقبل بما يسمح ببعث الجديد عبر إحياء المكتسب " [4].

ومن الذين سلكوا هذا الاتجاه نجد :

محمد خطابي (اللسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب): سلك الباحث منهج قراءة التراث العربي من أجل البحث عن ملامح الدراسات النصية فيه، خاصة وأن الدراسات العربية القديمة كانت تتمحور حول دراسة نص كامل هو القرآن الكريم .

إن دراسة محمد خطابي من بواكير البحوث التي تهتم بالنصوص؛ إذ " لم تعرف اللسانيات العربية كتابة نصية قبل عام 1988م ، فقد شهد هذا العام أولى المحاولات النصية المتمثلة بالأطروحة الجامعية التي أنجزها الباحث محمد خطابي بعنوان (مظاهر

[1] ينظر: مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية الحديثة ، ص 132.

[2] المرجع نفسه ، ص 92 .

[3] عبد السلام المسدي : التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ،تونس ، 1981م ، ص 14

[4] المرجع نفسه ، ص12.

انسجام الخطاب) ، ثم طبعت كتابا في سنة 1991م بعنوان : لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب "[1] .

مهّد الباحث لكتابه بتساؤل جوهري انصبّ حوله موضوع الدراسة يتمثل في قوله : " كيف ينسجم الخطاب الشعري ؟ " [2].

و من أجل أن يجيب عن إشكالية بحثه استعان بأهم المقترحات الغربية في تحليل الخطاب وهي :

أولا : عرض أفكار هالداي ورقية حسن في الاتساق من خلال كتابهما (الاتساق في اللغة الانجليزية) ، وفصّل الحديث عن مظاهره : الإحالة ، والاستبدال ، والحذف والوصل والاتساق المعجمي ، وقد عنوَن هذا المقترح بالمنظور اللساني الوصفي [3] ، وهذه الوسائل تهتم بتحقيق الاتساق النصي على المستوى اللغوي (الشكلي) .

ثانيا : قدم نظرة "فان ديك" في انسجام الخطاب من خلال كتابه (السياق والنص 1977م) ؛ فبحث عن " المظاهر الخطابية التي تقف لسانيات الجملة عاجزة أمامها ، ومن هذه المظاهر : موضوع الخطاب ، الانسجام ، البنية الكلية " [4]، وقد صنف نظرة فان ديك ضمن ما أسماه (منظور لسانيات الخطاب) .

ثالثا : اعتمد في هذا الاقتراح على آراء (براون) و(يول) في الانسجام من خلال كتاب (تحليل الخطاب 1983م) الذي يراه " نقلة نوعية في مجال تحليل الخطاب ، وذلك بما يحتويه من اقتراحات ومناقشات لوجهات نظر متعددة تنتمي إلى تخصصات

[1] خالد حميد صبري : اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة ، ص 107.

[2] محمد خطابي : لسانيات النص ، ص 6 .

[3] ينظر : المرجع نفسه ، ص 11

[4] المرجع نفسه ، ص 27.

متنوعة تهتم هي أيضا بتحليل الخطاب " [1] ، و فصّل في هذا الجزء مبادئ انسجام الخطاب حسب وجهة نظرهما .

بعدما عرض محمد خطابي المقترحات الغربية في لسانيات النص عرّج على التراث العربي ليحاول الإجابة عن سؤال طرحه في مقدمة الكتاب عن المساهمات العربية القديمة في مجال الدراسات النصية فقال : " ألا يمكن أن نجد في التراث العربي المرتبط أساسا بالممارسة النصية مساهمات قابلة لأن تدرج في لسانيات الخطاب بصفة عامة وفي انسجام الخطاب بصفة خاصة ؟" [2]

والهدف من هذه الإشارات إلى التراث العربي القديم كما يقول خطابي هو :" إعادة الحياة إلى هذه الإسهامات باعتبار أن فيها نظرات لا تقل أهمية وخصوبة عما قدمه الغربيون "[3].

يعدّ عمل محمد خطابي بمثابة باكورة البحث النصي في الثقافة العربية ، الهدف منه الكشف عن مدى إسهامات العلماء العرب في مجال الدراسات النصية ومحاولة ربطها بالمبادئ النظرية والمنهجية المتعارف عليها في لسانيات النص الحديثة.

اهتم الباحث في هذا الجزء من الدراسة بما يمكن أن يكون إجابة عن سؤاله وذلك من خلال عدة علوم هي : البلاغة والنقد الأدبي والتفسير ، وقد عرض أراء مجموعة من العلماء في هذه الاختصاصات حيث نجده يعرض أراء كل من: عبد القاهر الجرجاني وأبي يعقوب السكاكي في البلاغة ، وآراء الجاحظ وابن طباطبا في النقد ، و الزمخشري

[1] محمد خطابي : لسانيات النص ، ص 47.

[2] المرجع نفسه ، ص 7

[3] المرجع نفسه ، ص 95.

وفخر الدين الرازي وابن عاشور التونسي في التفسير ، وآراء بدر الدين الزركشي وجلال الدين السيوطي في علوم القرآن.

انتقل الباحث إلى الجزء الثالث من الدراسة ، وهو جزء تطبيقي ، حلل فيه قصيدة (فارس الكلمات الغريبة) للشاعر أدونيس (علي أحمد سعيد)، وفق الآليات الإجرائية المعتمد عليها في التحليل في النظرية اللسانية النصية .

تعد دراسة محمد خطابي من الدراسات الرائدة في لسانيات النص ،إذ انطلق مما أفرزته الدراسات الغربية في هذا المجال، باحثا عن أصول الانسجام النصي في التراث العربي بمختلف اختصاصاته ، والغاية من ذلك هو اختبار مجموعة من المفاهيم سواء منها المقترحة من قبل الغربيين أو المستخلصة من الممارسات النصية التحليلية في مباحث البلاغة والتفسير والنقد الأدبي و وتجريبها على نصوص عربية [1] ، وذلك إجابة عن إشكالية بحثه : كيفي ينسجم الخطاب الشعري؟

ـ جميل عبد المجيد :

يشتغل الباحث جميل عبد المجيد في أبحاثه بين علمي البلاغة واللسانيات النصية، ويسعى إلى الانتقال بعلم البلاغة من بلاغة الجملة إلى بلاغة النص كمشروع يجب تضافر الجهود وتكاملها من أجل تحقيقه [2] .

وكبادرة نحو تحقيق هذا المشروع ألّف كتابا بعنوان (البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية) ، جاء محاولة لإعادة النظر في البديع من منظور اللسانيات النصية، ثم أردفه بكتابه (بلاغة النص) ، الذي يعد دراسة تطبيقية ، اجتهد فيها الباحث

[1] ينظر : محمد خطابي : لسانيات النص ، ص 209.

[2] ينظر : جميل عبد المجيد ، بلاغة النص (مدخل نظري ودراسة تطبيقية) ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى 1999م ، ص 8 .

لتطبيق الأدوات الإجرائية النصية على نصوص شعرية عربية تتمثل في قصيدة للشاعر تأبط شرا ، " كما تقف هذه الدراسة على فكرة (النظم) عند عبد القاهر الجرجاني ، للإفادة منها ومحاولة تطويرها والانتقال بها من (نظم الجملة) إلى (نظم النص) ، وتجريب هذه النقلة تطبيقيا في قصيدة جاهلية للشاعر (الطفيل الغنوي) " [1] .

أولا (البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية 1998م)

كانت هذه الدراسة منطلق مشروع جميل عبد المجيد الذي يهدف إلى إعادة النظر في مباحث البديع من منظور اللسانيات النصية سعيا إلى تجديد الدرس البلاغي ، وبحثا عن إمكانية التحول بعلم البديع من الأفق القديم المتمثل في تحسين الكلام من خلال المحسنات اللفظية والمعنوية ، والانتقال به إلى أفق البحث النصي من خلال معياري السبك والحبك .

ارتكزت هذه الدراسة على إشكالية مركزية هي :

هل يمكن الانتقال بالدرس البديعي من الأفق القديم (أفق التحسين) إلى الأفق الجديد (أفق الربط) ؟ وكيف ؟ [2]

سعت هذه الدراسة إلى الإجابة عن هذه الإشكالية بالاعتماد على مقارنة علم البديع باللسانيات النصية ، والبحث عن كيفية الربط والتماسك من خلال المحسنات البديعية،وقد استهلها في الباب الأول بالحديث عن علم البديع في البلاغة العربية، وبين دلالة المصطلح وأهم الفنون التي تندرج تحت غطائه ، أما في الباب الثاني فتطرق إلى الحديث

[1] جميل عبد المجيد ، بلاغة النص (مدخل نظري ودراسة تطبيقية) ، ص 8 .

[2] ينظر : جميل عبد المجيد ، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، 1998م ، ط 1 ، ص 7

عن البديع من منظور اللسانيات النصية ، وإبراز دوره من خلال تحويله من التحسين اللفظي إلى سبك النص ، ثم الانتقال به من تحسين المعنى إلى حبك النص .

ثانيا (بلاغة النص ـ مدخل نظري ودراسة تطبيقية 1999م)

يمثّل هذه المؤلف الشطر الثاني من مشروع جميل عبد المجيد البلاغة النصي ؛ فقد استهله الباحث بمدخل نظري عالج فيه مفاهيم نظرية خاصة بعلم البديع ، وبيّن أن وظيفته متعلقة بتحسين الكلام ، فأورد تعريف القزويني له :" هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، وهو ضربان : معنوي ولفظي "[1] ، ليتخذ منه أفقا جديدا يمكن استشرافه من منظور اللسانيات النصية ، ليعرض مفهوم السبك وأدواته الإجرائية .

أما فكرة نظم النص التي عرضها فإنه شرحها بقوله : " تتمثل فكرة (نظم النص) في اتخاذ النص كله وحدة للتحليل اللغوي ، بوصف النص وحدة واحدة تتعالق أجزاؤها وتتفاعل فيما بينها لتنتج دلالة كلية للنص " [2] ، وبين أن النظم عند الجرجاني " إنما هو نظم الجملة وليس نظم النص ، ذلك أن عبد القاهر ركز على كشف العلاقات النحوية بين المفردات داخل الجملة أو البيت ، ولم يتجاوز ذلك إلى النص بتمامه " [3] ، ولذلك سعى بتحليله للشعر الجاهلي إلى الكشف عن الروابط بين أجزاء النص التي قد تبدوا مفككة ، وفق آلية النظم ، فوسم هذا النوع من الدراسة بالتحليل النظمي[4] .

---

[1] الخطيب القزويني (ت 739) ، التلخيص في علوم البلاغة (تلخيص كتاب مفاتيح العلوم للسكاكي) تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 2009م ، ص 86 . وينظر جميل عبد المجيد: بلاغة النص ، ص 14.

[2] جميل عبد المجيد ، بلاغة النص ، ص 30 .

[3] المرجع نفسه ، ص 29 .

[4] ينظر : المرجع نفسه ، ص 32.

يبدأ الباحث دراسته التطبيقية بتحليله للقصيدتين الجاهليتين على التوالي منتهجا طريقة تجزيء النص إلى محاور دلالية ، ثم بدأ التحليل شاملا جانبين أساسيين:

الجانب الأول : الصور البيانية في النص ، باحثا عن دورها في تحقيق الترابط بين أجزاء النص ، للوصول إلى الدلالة الكلية للنص .

الجانب الثاني : المعاني النحوية المستخدمة في النص ومدى فاعليتها في تحقيق الترابط النصي في دلالتها على الدلالة الكلية للنص [1] ، ناقلا دوره من التحسين اللفظي إلى الربط النصي .

أما القصيدة الأولى لتأبط شرا فقد اعتمد في تحليلها على البحث عن المحسنات البديعية بأنواعها اللفظية والمعنوية ، ثم نقل دلالتها ووظيفتها من تحسين الكلام إلى الربط بين أجزاء النص الشعري ، وأما القصيدة الثانية للطفيل الغنوي ، فقد اعتمد في تحليلها على قضية النظم ، باحثا عن الصور البيانية الواردة فيها ، مبرزا دورها في تحقيق الترابط النصي في القصيدة .

ـ أشرف عبد البديع عبد الكريم (الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم2008م) :

اهتم الباحث أشرف عبد البديع بقضية عرضت في بعض مؤلفات التراث العربي، وهي وجوه الإعجاز القرآني ، فدرسها من وجهة نظر حديثة وفق ما تقدمه لسانيات النص من أدوات وإجراءات ، و يرى أن " نصوص هذه المؤلفات تحتاج إلى قراءات جديدة وواعية بغية الوصول إلى تصورات وأفكار واضحة ومحددة حول رؤيتهم لتحليل النص القرآني وكيفية تسخير تلك المكونات التي مزجت بين عناصر لغوية وعناصر نقدية وأدبية

[1] ينظر: جميل عبد المجيد ، بلاغة النص ، ص 33 .

ومزية كل وجه دون الوجه الآخر "[1] ، فمن خلال هذه الرؤية حاول الباحث أن يستكشف ملامح نحو النص في كتب الإعجاز القرآني .

فجاء بحثه مزجا بين الدرس اللغوي والبلاغي في التراث العربي والدرس النصي الحديث ، بُغية الوصول إلى نتائج تتعلق بأهم المفاهيم والتصورات الأساسية المكونة للإعجاز القرآني وعلاقتها بنحو النص ، مستنبطا أهم معايير النص عند الباحثين في الإعجاز القرآني في ضوء الاتجاه النصي .

استند الباحث في دراسته على أهم الدراسات الأساسية في علم الإعجاز القرآني والمتعلقة بالجانب اللغوي والبلاغي ، مثل أعمال الباقلاني والرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. وقد سعى في بحثه إلى " عقد صلة بين مقولات وآراء الباحثين في الإعجاز ، وما يمكن أن تمثل عناصر (مفاهيم) أساسية مكونة للإعجاز، وما جاء عند علماء النص "[2] ، وذلك محاولة منه للربط بينهما ومعالجة القضايا المتعلقة بالنص والتي تمثل نقطة اشتراك بين التراثيين والمعاصرين ، مبينا المنطلقات الفكرية فيما يتعلق بأوجه الإعجاز من جهة ، وإظهار معايير النص وفق رؤيتهم من جهة أخرى .

حدد الباحث المقاصد الأساسية من بحثه في هذا الاتجاه فيما يلي[3] :

ـ محاولة تقديم رؤية الباحثين في الإعجاز القرآني فيما يمكن أن يسمى نحو النص العربي .

[1] أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي في كتب إعجاز القرآن ، مكتبة الآداب القاهرة ، مصر ، 2008م ، ص 2 .

[2] المرجع نفسه ، ص 2 .

[3] ينظر : المرجع نفسه ص 8 .

ــ تحديد العناصر النصية الدقيقة لأوجه الإعجاز القرآني فيما يتعلق بسبك وحبك النص من منظور عربي .

قسم الباحث دراسته إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : اهتم فيه بدراسة اتجاهات البحث النصي في التراث العربي .

الفصل الثاني : حاول فيه الكشف عن معايير النص عند علماء الإعجاز .

الفصل الثالث : ناقش فيه المفاهيم والتصورات الأساسية المكونة للإعجاز القرآني وعلاقتها بنحو النص .

الفصل الرابع : قدم من خلاله بعض الملاحظات المتعلقة بمعايير النصية عند الباحثين في الإعجاز كالسبك والحبك والائتلاف والتلاؤم والارتباط والمناسبة ، وذلك بناء على تصور روبيرت دي بوجراند لمعايير النصية .

كانت دراسة أشرف عبد البديع محاولة للربط بين التراث والمعاصرة[1] ، هادفة إلى البحث عن المعايير النصية في مؤلفات إعجاز القرآن التي استند عليها لتحقيق غايته ، فاختار مجموعة من الرسائل وبعض المؤلفات ورتبها في الدراسة حسب تاريخ وفاة أصحابها [2] :

ـ النكت في إعجاز القرآني: لأبي الحسن عيسى بن علي الرماني (296هـ ، 386هـ).

ـ بيان إعجاز القرآن : أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابي (318هـ، 388هـ).

ـ إعجاز القرآن : أبو بكر بن محمد الباقلاني (ت 403هـ).

[1] ينظر : أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي في كتب إعجاز القرآن ، ص 6.

[2] ينظر: المرجع نفسه ، ص 8 .

ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل (الجزء السادس عشر : إعجاز القرآن) : القاضي أبو الحسن محمد عبد الجبار (ت 415هـ).

ـ الرسالة الشافية ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، أسرار البلاغة في علم البيان : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني (ت 471هـ) .

ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين الرازي محمد بن عمر (ت 606هـ).

ـ المجيد في إعجاز القرآن المجيد : كمال الدين عبد الوهاب الزملكاني (ت 651هـ).

ـ تناسق الدرر في تناسب السور ومعترك الأقران: جلال الدين السيوطي (ت911هـ).

رصد الباحث في دراسته مجموعة من القضايا البلاغية والنحوية ، و اعتبرها معاييرا للنصية عند أصحاب المؤلفات في إعجاز القرآن ، ولكن الملاحظ أنه كرر الكثير منها ، وأعاد ذكر بعضها مقترنا مع بعضها الآخر، ومن هذه المعايير التي رصدها:" بديع النظم، عجيب التأليف ، حسن النظم ، بديع التأليف والرصف ، الفصل والوصل ، الضم والجمع ، وجودة النظم وحسن الوصف ، المناسبة ، المماثلة ، المطابقة ، التجنيس،المقابلة ، الموازنة ، المساواة ، رد الأعجاز على الصدور ، التكميل والتتميم ، الترصيع ، الترصيع و التجنيس ، التفسير ، الالتفات ، التكرار ، النظم ، التقديم والتأخير، القصر والاختصاص ، الحذف ، السجع ، الإيجاز ، الرجوع ، الاستهلال ، التخليص ، التتميم " [1]. وبعدما ذكر هذه المعايير عقّب عليها بذكر أوجه الاتفاق بين بعض المؤلفات ، وانفراد بعضها عن الآخر .

إن البحث في هذا الاتجاه الذي سلكه الدارس يعدّ محاولة لبعث التراث العربي المهتم بالجانب الإعجازي للقرآن الكريم في ثوب جديد . يقول الباحث :" إن العناصر

[1] أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي في كتب إعجاز القرآن ، ص 49 .

التراثية يمكن أن تتشكل في إطار جديد ، يحافظ على الهوية التراثية ، ويشكل منها (نحو النص) العربي الذي يدعم جوانبه من عدد من التيارات ، هذه التيارات تقع ضمن دائرة البلاغة العربية بشكل عام ، التي تضم بين جوانبها : المعاني ، البيان ، البديع " [1]

ومجمل القول أن الكتاب تضمن عرضا لاتجاهات البحث النصي في التراث العربي ، مبرزا معايير النصية عند علماء الإعجاز ، ومبينا أهم المفاهيم والتصورات الأساسية المكونة للإعجاز القرآني وعلاقتها بنحو النص .

ـ محمد العبد: (النص والخطاب والاتصال 2014م)

خصص محمد العبد في كتابه (النص والخطاب والاتصال) فصلا للبحث عن حبك النص من منظور التراث العربي ، استهله بتوطئة تحدث فيها عن علاقة البلاغة بعلم لغة النص، مبينا مفهومي النص والحبك ضمن معايير النصية لروبرت دي بوجراند .

أوضح محمد العبد الهدف من دراسته التي ترنو إلى " الكشف عن تبصُّرات القدماء ومنظوراتهم إلى خاصية الحبك ، وتسعى من وراء ذلك إلى استصفاء المبادئ والتصورات التي يمكن لها أن تتخذ مرتكزات لتحليل النص العربي تحليلا مناسبا ، لا يغفل عن خواصه ومعاييره البنائية والاتصالية ، من حيث إن النص ـ في المقام الأول ـ إنتاج بيئته الاجتماعية والحضارية ـ وهو في الوقت نفسه ـ يدل عليها ويمارس فيها وظائفه " [2] ، ويرى أن علم لغة النص وتحليل الخطاب هو نقطة الالتقاء بين علم اللغة وعلم البلاغة ، إذ " تتخذ هذه الدراسة من فحص مفهوم الحبك و مرادفاته في تبصرات التراث العربي وسيلة لبلورة المفاهيم والمنظورات اللغوية والبلاغية وتوثيق الصلات بينها

[1] أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النحوي في كتب إعجاز القرآن ، ص 68 .

[2] محمد العبد : النص والخطاب والاتصال ، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي ،مصر ، ط 1 ،2014م ، ص 69 .

في تحليل الخطاب "[1] ، وبذلك يشكل علم اللغة النصي من وجهة نظر محمد العبد ثمرة الازدواجية بين البلاغة وعلم اللغة .

اتجه الباحث إلى التراث العربي لاستكشاف ملامح الحبك عند القدماء، مبرزا أهم المفاهيم القديمة التي تدل على مفهوم الحبك أو تقترب منه : كالاتصال ، والامتزاج ، والالتئام، والالتحام ، والتلاحم ، والاتساق ، والائتلاف ، والاقتران ، والارتباط ، والملاءمة والمناسبة ، والتناسب، وغيرها[2] ، ثم قدم بعض الإشارات التي توحي في مضمونها إلى وعي القدماء بقضية الحبك النصي في العمل الأدبي ، مستدلا ببعض العلماء أمثال : الجاحظ ، ابن قتيبة ، ابن طباطبا ، أبو هلال العسكري ، وذكر آراءهم في ضرورة الترابط بين أجزاء الكلام وتلاحمها ، مؤكدا أن خير الكلام عندهم المسبوك المحبوك [3] ؛ كما عالج قضايا أخرى عند البلاغين متعلقة بحبك النص مثل : حسن الاستهلال ، وحسن التخلص ، والانتهاء ، من منظور حازم القرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) .

أما في كتب علوم القرآن فقد عالج قضية التناسب بين النصوص ، متخذا من كتاب السيوطي (تناسق الدرر في تناسب السور) ميدانا لاستكشاف مبادئ الحبك في نص القرآن الكريم ، كما أبرزها السيوطي .

وفي نهاية دراسته يعرض خلاصة ما وصل إليه داعيا إلى إمكانية تطوير علم لغة نصي عربي وفق المبادئ المستقاة من التراث العربي القديم ، قائلا :" ومهما يكن من أمور، فقد وقف القدماء على توصيف طائفة من المبادئ العامة للممارسة اللغوية في شكلها النصي ، من حيث خاصية الحبك ، وعالجوا كثيرا من الإشكاليات عن بنية النص

[1] محمد العبد : النص والخطاب والاتصال ، ص 70 .

[2] ينظر : المرجع نفسه ، ص 78.

[3] ينظر : المرجع نفسه ، ص 89 .

وعلاقات أجزائه ، من خلال جملة من القوانين العامة ، على رغم أنهم لم يجروا في تلك المعالجات على عرق ، ولم يعملوا فيها على شاكلة ، وقد برهن ما انتهى إليه هؤلاء من تصورات ومبادئ عن الحبك على أن للنظرية اللغوية في تحليل النص عند العرب امتدادات بعيدة في مصادر التراث اللساني البلاغي ، وأن ذلك التراث مازالت به إمكانيات مختلفة للتزويد بأصول مرضية لتطوير علم لغة نصي عربي ، وأنه ليس دارا خربة نسجت عليها العنكبوت "[1].

ـ شوقي البوعناني: (مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات)

يسعى الدارس إلى البحث عن أصول الممارسات النصية في علوم القرآن من خلال ما يعرف قديما بعلم المناسبات ، فعلم المناسبات هو أساس التفكير النصي عند علماء القرآن والمفسرين ، و به يظهر الانسجام النصي في القرّآن الكريم.

إن القضية التي يعرض لها المؤلف تناولها بالدراسة والتحليل والتطبيق علماء القرآن والتفسير في مؤلفات كثيرة ، وبحثوا فيها عن وسائل الانسجام في النص القرآني داخل السورة الواحدة ، وبين السور المتتالية ، معتمدين على مبدأ التماسك الشديد بين أجزاء القرآن الكريم ، ومتخذين منه وحدة كلية ، وقد كان الباحث واعيا بإدراك القدماء لهذه القضية ، فاتخذ منها بابا للولوج إلى الربط بين ما أنتجه الفكر العربي من مباحث تصب في قالب الانسجام النصي ، وبين ما وصلت إليه اللسانيات النصية الحديثة من إجراءات تحليلية ، فجاءت دراسته لرصد مظاهر التفكير اللساني النصي عند القدماء من خلال مفهوم المناسبات بين الآيات والسور، مقدرا أن أقرب المناهج لمقاربة موضوع دراسته هو

[1] محمد العبد : النص والخطاب والاتصال ، ص 139 .

منهج تحليل الخطاب الذي يتسع ، إضافة إلى المظاهر النحوية ، إلى الأبعاد التداولية في الخطاب [1].

ذهب البوعناني إلى أن " مفهوم المناسبة على قدر من الاتساع يجعله صالحا لأن تؤسس عليه نظرية لغوية كاملة تشمل كل مستويات اللغة النحوية والبلاغية والنصية"[2]، وبين أن اهتمامه ينصب حول التقاطع بين مفهوم المناسبة ومفهوم الانسجام ، مبرزا دور علماء القرآن وجهودهم في هذا الاتجاه ، معتمدا على ما قدمه كل من الزركشي في (البرهان في علوم القرآن) والسيوطي في (الإتقان في علوم القرآن) من إشارات نظرية ، وما استنبطه الزمخشري في (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، والرازي في (مفاتيح الغيب) ، و البقاعي في (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) ، مبرزا أهم التحليلات الإجرائية التي أشار إليها هؤلاء للكشف عن المناسبات بين الآيات داخل السورة ، وبين السور .

[1] ينظر : شوقي البوعناني ، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع ، الرباط ، المملكة المغربية / بيروت، لبنان الطبعة الأولى 2018م ، ص 16 .

[2] المرجع نفسه ، ص 25 .

خلاصة :

وعموما فإن الدراسات النصية العربية تسلك أحد اتجاهين، هما قطبا الدراسات اللسانية النصية العربية المعاصرة، إما مترجمة ناقلة للنظريات الغربية إلى الساحة الثقافية العربية الحديثة، وإما موغلة في التراث العربي باحثة عن أصول تلك النظريات النصية فيه؛ متيقنة من فكرة كون الحضارة العربية حضارة نصية ، والتراث العربي بمختلف اتجاهاته يحمل في باطنه كنوزا تحتاج من الباحث الكشف عن مكنوناته؛ من أجل النهوض بالبحث اللساني العربي المعاصر وتطويره ، رغم كل ما يعانيه من إشكالات تعترض طريقه ؛ بداية من إشكالية الفوضى المصطلحية، ثم إشكالية موضوع البحث ، إلى إشكالية المنهج المتبع في الدراسات اللسانية العربية المعاصرة .

الفصل الثاني:

بلاغة الخطاب القرآني من النظم إلى الإعجاز

تمهيد : الإعجاز و البلاغة

أولا : الإعجاز من الفطرة و الذوق إلى الاستدلال و التعليل

ثانيا : الإعجاز(مرجعياته الفكرية والثقافية)

ثالثا : النظم (الأسس والمفاهيم)

تمهيد : الإعجاز و البلاغة

كانت عناية العرب قبل الإسلام تتمحور حول فنون القول وبلاغته ؛ فتخيروا أحسنه وأجوده، ووضعوا أسواقا استعرضوا فيها أفصح الكلام وأبلغه ، يأتيها الشعراء والخطباء من كل حدب وصوب، وقد كانت الفصاحة دأبهم و حسن البيان مزيّتهم ، إلى أن جاء القرآن الكريم فوجدوا فيه ما لم يجدوا في غيره من أساليب التعبير والفصاحة والبيان، ووقفوا أمامه موقف إعجاب وانبهار من جهة ؛ و حيرة وعجز من جهة أخرى .

شكّل نزوله نقطة تحول في الاهتمامات البلاغية للعرب ؛ فبعد أن كان اهتمامهم منصبا على النتاج الأدبي من شعر وسجع وخطب ، تحول إلى الاهتمام بهذا الخطاب الجديد الذي لم يعهدوه في ثقافتهم ولم يألفوه في خطاباتهم ، سواء من طرف أعدائه الداعين إلى الطعن فيه وانتقاصه ، أو من طرف أتباعه المنكبّين على دراسته من أجل فهمه وبيان إعجازه .

شكّل القرآن محور جذبٍ للمفكرين والدارسين للبحث فيه ، وكان له أثر واضح في تطور العلوم العربية وازدهارها ، إذ اهتمت به بغية فهمه وإدراك معانيه ، " و أول ما بدأت دراسات القرآن وتفسيره زمن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ففي عهده نرى أعرابيا يسأله عن معنى بعض ألفاظ القرآن ، في مثل قوله تعالى﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾

قائلا وأينا لم يظلم نفسه ؟ وفسره النبي صلى الله عليه وسلم بالشرك واستشهد عليه بقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿13﴾ ﴾ "[1] .

أما في عهد الصحابة فيتفرغ عبد الله بن عباس للبحث في غريب القرآن ، ويفسر ألفاظه بما يوافقها من معانٍ واردة في كلام العرب ، فقد روى السيوطي عنه في الإتقان أنه قال:" الشعر ديوان العرب ، فإن خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه "[2] ، ونقل عنه أيضا قوله:" إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب "[3]. ثم ظهرت بعد ذلك الأمارات الأولى لإصلاح الألسن بعد فُشُوِّ اللحن حفاظا على النطق السليم للقرآن الكريم.

وخلال القرن الثاني والثالث الهجريين ازدهرت حركة التأليف في شتى العلوم وتطورت ، فجمعت اللغة من البوادي ، ونشأ علم النحو والتفسير والقراءات وعلوم القرآن، ليأتي القرن الرابع الهجري وتبدأ استقلالية بعض العلوم بمناهجها الخاصة " فبدأت في الدراسات القرآنية دراسات الإعجاز وعلومه ، وأفردت كتب خاصة مستقلة بها تبحث عن الإعجاز من ناحيتيه البيانية والبلاغية ، وقد تم انفصال علوم الإعجاز عن

---

[1] محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ، مكتبة الشباب بالمنيرة ، الإسكندرية ، مصر ، الطبعة الأولى (1372هـ/ 1952م) ص 29 .

[2] ينظر: السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ج1 ، ص 382 .

[3] ينظر : المصدر نفسه ج1 ، ص 382.

التفسير ، وقام عليه علماء أجلّاء ، ووضعت له القواعد والأصول لتوضح الجوانب البلاغية في أسلوب القرآن ، وتبرز الفرق بينه وبين أساليب العرب وفنون قولهم "[1].

يعدُّ الإعجاز القرآني علما منبثقا عن علم التفسير ، يبحث في أسرار القرآن الكريم البلاغية والجمالية ووجوه إعجازه ، كما أن له صلة وثيقة بالبلاغة ، فكان هدفه الأساسي بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم .

يقول أبو هلال العسكري (ت 395هـ) : " اعلم أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد معرفة الله عز وجل ثناؤه ، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي يعرف به إعجاز كتاب الله تعالى ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خص الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع و الاختصار اللطيف وضمّنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها " [2] .

يؤكد العسكري أن تعلم البلاغة ضرورة حتمية لمعرفة الإعجاز، ولقد ذهب البلاغيون إلى بيان أن " ثمرة البلاغة والفصاحة هي فهم إعجاز القرآن ، وهي في رأيهم أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ وانتقائها وجودة رصفها ، وانتهى الأمر بالسلف إلى أن بلاغة الكلام ترجع إلى خصائص بالنظم ، وجمال الكلام يرجع

[1] محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص 229 .

[2] أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري : كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ،تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية، ص 7.

إلى مبلغ تأثيره في النفوس "[1] ، وذلك ما يركّز عليه العلماء لإظهار إعجاز القرآن الكريم، فكانت دراساتهم المتعلقة بالبلاغة " تطرح قضيتها على بساط البحث ، وتحاول الوصول إلى معرفة أي فنون القول أبلغ من غيرها ، وأيها أقل بلاغة ، وتبني مقاييس لذلك كله ، ثم تحاول الوصول إلى الإعجاز عن طريق البلاغة، أي: إظهار القرآن في مظهر البالغ في تلك الفنون مبلغا لا يتسامى ما عرف عند العرب من أرفع الأدب وأبلغ القول " [2] .

والبلاغة بالمفهوم النصي تعني" مجموع القوانين التي تتحكم في صياغة الخطاب وترتيب معانيه وتوضيح مقتضياته"[3]، وذلك ما يؤكد اهتمامها بالخطابات من ناحيتها البيانية والجمالية ، فإذا ما تأملنا كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ؛ فإننا نجد أنه دائما ينسج نوعا من العلاقات بين البلاغة والإعجاز والنظم ، فالنظم عنده هو أساس البلاغة التي بها يتحقق الإعجاز القرآني في علاقة ثلاثية الأطراف .

نظم ← بلاغة ← إعجاز

[1] وليد محمد مراد : نظرية النظم وقيمتها العلمية عند عبد القاهر الجرجاني ، ص17 .

[2] محمود زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص 233.

[3] حسين خمري : نظرية النص ، ص 329 .

أولا : الإعجاز من الفطرة و الذوق إلى الاستدلال و التعليل :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ووفق أساليبهم الخطابية ، فكان فهم معانيه وإدراك سرّ جماله وإعجازه معتمدا على السليقة اللغوية الأصيلة ، وهذا الفهم ينبثق من الحس الأدبي المرهف والذوق الجمالي السليم للفرد العربي في تلك المرحلة ، فلم يحتاجوا إلى دليل عقلي لبيان سر جماله ، أو تفسير يحوي معانيه ، وهم في ذلك معتمدون على فطرتهم اللغوية ، فعجزوا عن معارضته في معانيه وتأليفه .

يقول الباقلاني مؤكدا ذلك :" وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ ، لأن ذلك طبعهم ولغتهم ، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن، وهذا في البلغاء منهم دون المتأخرين في الصنعة " [1] ، ولعل هذا ما جعلهم يقفون موقف ذهول وحيرة في معارضته ، بل واعترفوا بأن أسلوبه خارج عن أساليبهم الكلامية، وأكدوا أن بلاغته فوق بلاغتهم ، وأن ليس لهم القدرة على أن يأتوا بمثله .

وبعد دخول الأعاجم إلى الإسلام وامتزاجهم بالعرب ، بدأ اللحن ينخر الفطرة اللغوية العربية ويفسدها ، وأخذ الذوق الجمالي الفطري يضعف ، و احتاج فهم القرآن وتدبره إلى نسق جديد من التفكير والتأمل لإجلاء معانيه و بيان أسرارِ إعجازه، وقد سارع غير العرب إلى اللغة العربية وأقبلوا على تعلمها رغبة منهم في " معرفة معجزة هذا الدين الجديد التي أعجزت العرب ببيانها العجيب ، ونظمها البديع، وهم أرباب النظم

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 314 .

وأمراء البيان ، والتي أحدثت في العرب انقلابا اجتماعيا منقطع النظير ، في وقت قصير ، ولا سبيل إلى ذلك إلا تعلم اللغة العربية والنبوغ فيها " [1].

فإذا كان العرب في العقود الأولى من نزول القرآن في غير حاجة إلى بيان إعجاز القرآن الكريم بفضل ما يتميزون به من حاسة لغوية فطرية وذوق جمالي متفرد، " فإن الأجيال التالية التي لم تصل إلى ما وصلوا إليه من درجة الفصاحة والبلاغة لم يكن لها بد من أن تفكر بعقولها في أسرار الإعجاز ودلائله وأن تتخذ ذلك وسيلة لها في تعريف العلة في الإعجاز ما دامت الوسيلة الفطرية قد ضعفت من ناحية ، وما دامت وسائل البحث العقلي قد قويت ونمت من ناحية أخرى "[2].

وهذا لا يدعو إلى القول أن العرب في المراحل الأولى من نزول القرآن لم تكن لهم القدرة على استنباط أسرار الإعجاز منه ، وإنما تكفيهم الفطرة والذوق السليم ليعلموا إعجاز هذا النص الجديد وسر جماله الفني الراقي ، زيادة على انبهارهم بأسلوبه ونظمه وبلاغته التي لم يجدوا لها مثيلا في خطاباتهم التي صنفوها ضمن أعلى مراتب البلاغة، فقد وجدوا أن القرآن الكريم جاء على لغتهم ووفق أساليبهم ، ولكن أرقى نظما من نظمهم وأحسن تأليفا من تأليفهم فعجزوا عن مجاراته ومعارضته ، وما انبهارهم ببلاغته وأسلوبه إلا دليل على ذلك .

---

[1] عبد العزيز عبد المعطي عرفة : قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية ، علم الكتب بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1405هـ/ 1985م ، ص 85 .

[2] درويش الجندي : نظرية عبد القاهر في النظم ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، مصر ، 1960 م ص 14 .

يقول الباقلاني في هذا الشأن :" إلا أنَّا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا ، ولم يشتغلوا بذلك تحقُقاً بظهور العجز وتبيُنا له"[1]، فلما ظهر العجز فطريا لم تكن الحاجة داعية إلى البحث لبيان وجوه الإعجاز وعلله.

وقد أفرد الباقلاني فصلا للحديث عن تحدي العرب بالقرآن الكريم مقارنا ذلك بمعجزات الأنبياء وما فيها من التحدي ، يبين فيه كون آية النبي معجزة وبرهانا على صدق نبوته، ثم بعدها يميز بين أصناف الناس في كيفية تعاملهم مع القرآن الكريم ، وأوضح سبلهم في معرفة وجه إعجازه ؛ قائلا :" يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدعوا فيها أنها من دلالتهم وآيتهم ، لأنه لا يصلح بعثة نبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية، لأن النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ، ولا بشيء آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه ، فيستدل به على صدقه ، فإذا ذكر لهم أن هذه آيتي ، وكانوا عاجزين عنها ، صحّ له ما ادعاه ، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصحّ أن يكون برهان له ، وليس يكون ذلك معجزا إلا أن يأتوا بمثله ، فإذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزا "[2].

ميّز بين صنفين من القراء مبينا كيفية تلقيهم للقرآن الكريم ومبرزا حاجة كل صنف لمعرفة وجوه إعجازه:

فأما الصنف الأول فهم أهل الصنعة كما سماهم ، ويقصد بهم العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم وتحداهم الله عز وجل به ، فلا يحتاجون إلى أدلة لبيان أسرار إعجازه، وإنما كان طبعهم اللغوي وفطرتهم كافيين لإدراك الإعجاز، فقال :" و أما من

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 90 .

[2] المصدر نفسه ، ص 285 .

كان من أهل صنعة العربية ، والتقدم في البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق فإنه يعرف حين يسمعه عجزه عن الإتيان بمثله ، ويعرف أيضا أهل عصره ممن هو في طبقته ، أو يدانيه في صناعته ، عجزهم عنه ، فلا يحتاج إلى التحدي حتى يعلم به كونه معجزا"[1].

أما الصنف الثاني فهم الذين ليس لهم باع في العربية و يحتاجون إلى الاستدلال والبرهان لبيان وجوه الإعجاز، و يعلق عليهم بقوله :" وإنما احتيج في باب القرآن إلى التحدي ، لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزا ، فإنما يعرف أولا إعجازه بطريقه، لأن الكلام المعجز لا يتميز عن غيره بحروفه وصورته ، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزا فإذا كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف هذا، حتى يمكنه أن يستدل به "[2]، ويوضح ذلك أكثر بقوله :" وأما من لم يكن من أهل الصنعة فلابد له من مرتبة قبل هذه المرتبة ، يعرف بها كونه معجزا فيساوي حينئذ أهل الصنعة "[3]. والمراد بهذه المرتبة أن يبحث في العلم الذي يحتاج إليه للاستدلال والوصول إلى معرفة وجوه إعجازه وهو علم إعجاز القرآن، وقد أكد على ذلك مرة أخرى بقول صريح فقال :" والذي نقوله في هذا أن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالا ، وكذلك من لم يكن بليغا ، فأما البليغ الذي أحاط بمذاهب العربية ، وغرائب

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 286/285 .

[2] المصدر نفسه ، ص 285 .

[3] المصدر نفسه ، ص 286.

الصنعة ، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله ، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه " [1]

بين الباقلاني من خلال هذه النصوص أمرين :

الأول : أن العربي الأصيل الذي يجيد فنون العربية وأساليب البلاغة ، يكفيه ذوقه وفطرته السليمة حتى يسمع القرآن فيحكم عليه بالإعجاز، وهناك العديد من الروايات في هذا الباب ، سنورد بعضها .

الثاني : أن غير أهل العربية إنما هم في حاجة إلى الدليل لمعرفة إعجاز القرآن الكريم، وذلك عن طريق علم الإعجاز.

وردت في العديد من المؤلفات الكثير من الحوادث التي تثبت أن ظهور الإعجاز عند العرب كان بالفطرة الطبيعية والذوق السليم ، ومنها ما رواه الجرجاني في الرسالة الشافية أن عتبة بن ربيعة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثا لقريش ليعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ويُعرض عما جاء به ويعود إلى دينهم .

يقول الجرجاني واصفا موقف عتبة بن ربيعة مع النبي صلى الله عليه وسلم : "حتى إذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :أوقد فرغت ؟ قال: نعم . قال : فاسمع مني . قال : قل . قال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حٰمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾ **فصلت(1 ـ 4)**، ثم مضي فيها يقرأها ، فلما سمعها عتبة أنصت

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 291.

له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما ، يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد ، ثم قال له : قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك ! فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس قالوا: ما وراءك ؟ قال: ورائي أني سمعت قولا ما سمعت به قط ، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهره على العرب به فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا سحرك بلسانه ، قال هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم " [1].

إن قول عتبة بن ربيعة بعد الذي سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم من قرآن ثم سجوده معه يدل على عدة أمور منها :

أولا : حكمه على القرآن يوحي بانبهاره بسماع هذا الكلام، وما يدل على ذلك إنصاته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أكمل قراءته .

ثانيا : اعترافه ضمنيا بإعجاز هذا الكلام ، فأقسم أنه ما سمع بمثله أبدا، و سجد مع النبي بغير إرادة، وهو من كبراء قريش وأعلمهم بلغتها .

ثالثا : نفيه أن يكون هذا الكلام شعرا أو سجعا، وانفراده عن هذه الأنواع من الخطابات التي أَلف العرب سماعها .

---

[1] عبد القاهر الجرجاني ، الرسالة الشافية ، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) تحقيق محمد خلف الله احمد و محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 1976م، ص 124 .

رابعا : الحكم الذي أطلقه عتبة بن ربيعة على القرآن الكريم نابع من فطرته اللغوية وذوقه السليم ، ومعرفته بأساليب كلام العرب وخطاباتها .

إن اتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة ساهم في تنوع الثقافات في الساحة الفكرية العربية ، فكان ذلك سببا في ظهور الفرق الكلامية وتعدد مشاربها وأهدافها ، حيث تسللت بعض الأفكار الخبيثة إلى الثقافة الإسلامية تدعوا إلى الطعن في القرآن الكريم ، من حيث نظمه وتأليفه وانسجامه وبلاغته .

وهذا ابن قتيبة(213هـ / 273هـ) يقول في هذا الشأن :" وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ((ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)) (آل عمران 7) ، بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه بالتناقض ، والاستحالة واللحن، وفساد النظم والاختلاف ، و أدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمر والحدث الغرّ ، واعترضت بالشبه في القلوب وقدحت بالشكوك في الصدور " [1]. فانبرى ثلة من العلماء المسلمين للدفاع عنه والرد بالحجة والبرهان على هذه الأفكار التي انتشرت طعنا في القرآن الكريم .

نشأ الباقلاني في بيئة كثر فيها زرع الشبهات حول القرآن الكريم ، فكان من بين الذين وقفوا حاجزا منيعا ورادعا أمام الطاعنين فيه ، رادّا عليهم شبهاتهم ، ومنتصرا للقرآن الكريم بإثبات إعجازه عن طريق نظمه وحسن تأليفه وانسجامه ، وبذلك كانت فكرة

[1] عبد الله بن مسلم بن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ،شرح السيد أحمد صقر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط 1، 1973 ، ص 22 .

النظم تأسيسا لنظرية بارزة في الإعجاز القرآني قائمة على التعليل والاستدلال ، ومنبثقة عن معرفة معاني النحو وأساليب البلاغة .

علاقة الإعجاز بالعربية في رأي الباقلاني :

يرى الباقلاني أن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن لا تُدرك إلا من خلال معرفة العربية والإحاطة بأساليبها، و بين عند حديثه عن نظم الحروف في العربية موازاة ببعض الألسنة الأخرى كاليونانية، أن " العربية أشدها تمكنا وأشرفها تصرفا و أعدلها ، ولذلك جُعلت حلية لنظم القرآن ، وعلق بها الإعجاز ، وصارت دلالة في النبوة"[1]. ثم بيّن مدى قدرة العرب على التمييز بين مراتب الكلام وأساليبهم قائلا :" ومنهم من يُعرف بالبديهة وحدة النظر ، ونفاذ الطبع ، وسرعة النظم ، يرتجل القول ارتجالا ، ويطبعه عفوا صفوا ، فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا وكدوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم ، وكذلك لا يخفى عليهم الكلام العلوي ، واللفظ الملوكي ، كما لا يخفى عليهم الكلام العامي واللفظ السوقي " [2]، فمراتب الكلام بينة عندهم بطبائعهم ومعرفتهم بالعربية وفنون القول .

إن هذه الصفات التي ذكرها في العرب من بديهة و طبع لغوي وعفوية في القول، مهّد لهم لأن يكونوا أعرف أهل زمانهم بالعربية وأساليبها ، مما جعلهم يدركون مراتب القول من خلال معرفتهم بنظمه وتأليفه . يقول الباقلاني:" ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلا، ويعطونه ــ كيف تصرف ــ حقوقه ، ويعرفون مراتبه ، فلا يخفى عليهم ما يختص به

[1] أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن ، ص 170 .

[2] المصدر نفسه ، ص 174 .

كل فاضل تقدم من وجه من وجوه النظم ، ومن الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره ، ولا يساهمه سواه "[1] .

انطلاقا من إدراك الباقلاني لمدى معرفة العرب بمراتب الكلام قسم الناظرين في إعجاز القرآن حسب مراتبهم في معرفة العربية إلى ثلاثة أقسام :

1 / **عند الأعاجم** : يتبين الأعاجم من إعجاز القرآن حسب ما يراه الباقلاني إذا أدركوا " أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، فإن عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تُحدُّوا على أن يأتوا بمثله، وقرعوا على ترك الإتيان بمثله ، ولم يأتوا به ، تبينوا أنهم عاجزون عنه ، وإذا عجز أهل اللسان فهم عنه اعجز "[2].

2 / عند أهل العربية غير الفصحاء: وينطبق عليهم ما ذكره في الأعاجم، وذلك أن " من كان من أهل اللسان العربي، إلا أنه ليس يبلغ من الفصاحة الحدّ الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ، ووجوه تصرف اللغة ، وما يعدونه فصيحا بليغا من غيره ، فهو كالأعجمي "[3].

3 / عند أهل العربية الفصحاء :

قال الباقلاني : " فأما من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي ، ووقف على طرقها ومذاهبها ، فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه سعة المتكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج عن الوسع ، ويتجاوز حدود القدرة ، فليس يخفى عليه إعجاز القرآن ، كما

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 174 .

[2] المصدر نفسه ، ص 165 .

[3] المصدر نفسه، ص 165 .

يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر ، وكما يميز بين الشعر الرديء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب ، وهكذا كما يميز أهل كل صناعة صناعتهم " [1]. فالعرب الفصحاء العارفون بأساليب العربية أقرب إلى إدراك إعجاز القرآن الكريم بفطرتهم اللغوية الأصيلة وذوقهم السليم.

يجْمِل الباقلاني تصنيفاته في قوله :" إن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالا، وكذلك من لم يكن بليغا ، فأما البليغ الذي أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة ، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله ، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعلم عجز نفسه " [2].

يوحي قول الباقلاني إلى :

أولا : أن الإعجاز لا يدرك إلا من خلال معرفة اللغة العربية وأساليبها البلاغية التي تنشأ لدى العربي بالفطرة .

ثانيا : أن معرفة الإعجاز لدى العربي الذي عاصر نزول القرآن يكون فطريا ولا يحتاج إلى دليل ، أما الأعجمي والعربي غير الملمّ بأساليب البلاغة فإنه يدرك الإعجاز بطلب الدليل المنطقي .

لخّص الباقلاني القول في شرط معرفة أساليب العربية لإدراك إعجاز القرآن انطلاقا من نظمه قائلا :" لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن و جليله، و غامضه و جليّه ، وقريبه وبعيده ، ومعوجّه و مستقيمه ، فكيف يخفى عليهم الجنس

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 165 .

[2] المصدر نفسه ، ص 291.

الذي هو بين الناس متداول ، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ، ويبعد عما هو في عرفهم ، ويفوت مواقع قدرهم ، وإذا اشتبه ذلك ، فإنما يشتبه على ناقص في الصنعة ، أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه ، ويديرونه بينهم ، ولا يتجاوزونه، فلكلامهم سبل مضبوطة ، وطرق معروفة محصورة " [1]. فالذي لم يتمكن من إدراك اختلاف نظم القرآن وأسلوبه عن باقي أساليب كلام العرب بمختلف خطاباتهم ، فإن ذلك راجع إلى نقص في معرفته بالعربية أو قصر في معرفة أساليبها ، وقد أكد الباقلاني أنه" إن اشتبه على متأدب ، أو متشاعر ، أو ناشئ ، أو مرمد ، فصاحة القرآن وموقع بلاغته ، وعجيب براعته ، فما عليك منه ، إنما يخبر عن نقصه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله " [2] ، وصرح بأن الغاية في تفصيل القول في علاقة العربية بالإعجاز، إنما هو بيان علو شأن القرآن ، وعجيب نظنه وبديع تأليفه .

لم يكن بيان الإعجاز مستندا إلى البلاغة فحسب، بل امتزج أيضا ببعض التعليلات المنطقية المنبثقة عن علم الكلام ، في محاولة للوصول إلى دلائل أخرى للإعجاز ، كنفي الصرفة بالنظم ، ومسائل أخرى متعلق بعدة جوانب غير بلاغية كأخبار الأمم السابقة وكون النبي صلى الله عليه وسلم رجلا أمّيًّا، لا يعرف من كتب الأولين شيئا ، و كذلك الإخبار بالمسائل المتعلقة بالغيب في مستقبل الزمان .

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 176 .

[2] المصدر نفسه ، ص 176 .

ثانيا : الإعجاز: مفهومه ومرجعياته الفكرية والثقافية

1 مفهوم الإعجاز

1ـ1 لغة :

جاء في المعجم الوسيط :" عجز عن الشيء عجزا : ضعف ولم يقدر عليه " [1]، وكذلك ورد في لسان العرب ، أما في معجم مقاييس اللغة لابن فارس يقول :" العين والجيم و الزاء أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على الضعف ، والآخر على مؤخر الشيء . فالأول : عجز عن الشيء يعجز عجزا ، فهو عاجز ، أي ضعيف . وقولهم إن العجز نقيض الحزم فمن هذا ، لأنه يضعف رأيه . ويقولون : المرء يعجز لا محالة. ويقال : أعجزني فلان ،إذا عجزت عن طلبه وإدراكه . ولن يعجز الله تعالى شيء ، أي لا يعجز الله تعالى عنه متى شاء . وفي القرآن :﴿ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾ [الجن 12]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ [العنكبوت 22، الشورى 31] " [2] .

يقول محمود شاكر " لفظ الإعجاز مصدر قولنا في كل أمر يريد الرجل أن يفعله أو يأتيه ، فيجهد جهده كله ، فلا يستطيع أن يفعله أو يأتيه ، فيسقط عندئذ في العجز، وهو عدم القدرة على فعل ما يريد ، تقول : أعجزه هذا الأمر يعجزه إعجازا ، فوقع في العجز غير مطيق لفعله، غير قادر على إتيانه "[3]. ومن ذلك ما ذكره الله عز وجل في

---

[1] إبراهيم مصطفى ، المعجم الوسيط : ج 1 ، ص 585

[2] ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، الجزء الرابع ، ص 256.

[3] محمود شاكر ، مداخل إعجاز القرآن ، مطبعة المدني ، القاهرة ، مصر ، 2002م ، ص 16

حادثة قابيل وهابيل ، قائلا :﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿31﴾﴾ **المائدة** .

فإذا كان العجز هو الضعف وعدم القدرة على الإتيان بأمر معين ، فإن لفظ الإعجاز لما اقترن بلفظ القرآن فإنه دل على أن العرب لم تكن لهم القدرة على الإتيان بمثله عندما وقع التحدي من الله عز و جل لهم ، فاتهموا النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب والافتراء. يقول الله تعالى في وصف ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿37﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿38﴾﴾ سورة يونس . فعجزوا عن ذلك .

1ـ 2 اصطلاحا :

يقول الشريف الجرجاني في كتابه (التعريفات): " الإعجاز في الكلام هو أن يؤدى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق " [1]. فالإعجاز مقترن ببلاغة الكلام وتفوقه عما سواه من الأساليب .

[1] علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت 816هـ) : معجم التعريفات تحقيق محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر ، 2004م ص 30

وأما مصطلح (إعجاز القرآن) فإنه مرتبط بالتحدي والمعارضة ، و المقصود به: " ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته " [1] .

قال السيوطي في بيان إعجاز القرآن: " اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة "[2]. فبعد أن زعم المنكرون من كفار قريش أن ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) هو من فعل البشر تحداهم فعجزوا عن معارضته ، ولذلك " كان استخدام مصطلح الإعجاز مناسبا لوصف الأمور الخارقة للعادة ، والمؤيدة للنبوات، فهي تثبت الضعف للمدعوين ، وتحقق الفوت والسبق للداعي"[3] . وهذا ما ذهب إليه الباقلاني في بيان حقيقة الإعجاز ودلالة ذلك على صدق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فقال :" ومعنى قولنا إن القرآن معجز على أصولنا أنه لا يقدر العباد عليه ، وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح دخوله تحت قدرة العباد ، وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه ، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه " [4].

يقول نصر حامد أبو زيد :" إن البحث في قضية الإعجاز ليس في حقيقته إلا بحثا عن السمات الخاصة للنص والتي تميزه عن النصوص الأخرى في الثقافة وتجعله يعلو

---

[1] أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي(ت 1094هـ) : الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، إعداد عدنان درويش ، مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ، 1419هـ / 1998م ، ص 149 .

[2] الإتقان في علوم القرآن ، ج 2 ، ص 1001 .

[3] شذى عطا جرار : موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني في كتابيهما إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز ، منشورات أمانة عمان ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، 2005م ص 16 .

[4] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 313 .

عليها ويتفوق" [1]. فالنص القرآني يتميز بسمات تجعله ينفرد بأسلوبه عن غيره من النصوص التي كانت تتربع على عرش البلاغة والفصاحة في الثقافة العربية في ذلك العصر ، ومع أن القرآن الكريم جاء إلى العرب وفق عاداتهم الكلامية ووفق أساليبهم البلاغية ، فقد عجزوا عن معارضته؛ لأنه يفوق بلاغتهم وأساليب خطاباتهم ، وهم أسياد البلاغة والبيان .

وقد بين عبد القاهر الجرجاني الوجه المعجز في القرآن فقال : " أعجزتهم مزايا ظهرت في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، في مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه ، وإعلام وتذكير ، وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان " [2]، فالجرجاني أوضح أن أبرز الوجوه التي تؤكد إعجاز القرآن الكريم ما هو متعلق بنظمه وورود ألفاظه متناسقة في سياق الكلام .

إن استعمال لفظ (الإعجاز) ولفظ (المعجزة) للدلالة على معناه الاصطلاحي الوارد عند البلاغيين وعلماء القرآن، لم يكن واردا في العصور الأولى من الإسلام، وإنما جاء متأخرا ، لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى بيان وجوه إعجازه .

يقول محمود شاكر : " كلاهما لفظ محدث مولّد وبيقين قاطع ، لا نجدهما في كتاب الله ، ولا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أجدهما في كلام أحد من الصحابة ولا في شيء من كلام التابعين ومن بعدهم ، إلى أن انقضى القرن الأول من

---

[1] نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص . دراسة في علوم القرآن ، ص 137 .

[2] عبد القاهر الجرجاني(ت 474هـ): دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمد شاكر ، مكتبة الخانجي القاهرة ، مصر ، 1404 هـ / 1984م ، ص 39 .

الهجرة ، والقرن الثاني أيضا ، ثم نجدهما فجأة يظهران على خفاء في بعض ما وصلنا من كلام أهل القرن الثالث ثم يستفيضان استفاضة ظاهرة غامرة في القرن الرابع وما بعده"[1]، فازدهر التأليف في الإعجاز كمبحث مستقلٍ من مباحث علوم القرآن والبلاغة العربية ، يهتم بالبحث عن الوجوه التي يتحقق بها سرّ إعجاز القرآن الكريم .

2 المرجعيات الفكرية والثقافية لقضية الإعجاز في التراث العربي :

بعث الله عز وجل كل نبي إلى قومه بمعجزة تتوافق وطبيعة ما برعوا فيه من عادات وعلوم، وقد كان العرب أرباب الفصاحة وأمراء البيان، فجاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم متحديا لهم فيما برعوا فيه من فنون القول والبلاغة ، ومع ذلك ظهر عجزهم وعدم قدرتهم على معارضة هذه المعجزة الربانية رغم كل ما بلغوه من فصاحة وبيان .

ووقع التحدي للعرب في عدة آيات من القرآن الكريم وظهر قصورهم في ذلك وتأكد عجزهم ، وقد كان التحدي يسير بالعرب سيرا متدرجا ، يقول السيوطي :" وتحداهم على أن يأتوا بمثله وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَوَّلَهُۥ ۖ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿33﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿34﴾ ﴾ **سورة الطور**. ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى :﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿13﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿14﴾ ﴾ **سورة هود** . ثم

[1] محمود شاكر : مداخل إعجاز القرآن ، ص 19 / 20 .

تحداهم بسورة في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿37﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿38﴾ ﴾**يونس** . ثم كرّر في قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿23﴾ ﴾ سورة البقرة . فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء والبلغاء ، نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿88﴾ ﴾ **سورة الإسراء** . هذا وهم الفصحاء اللّدّ، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره ، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعا للحجة "[1]. وما وقع التحدي إلا بعدما عاندوا وكابروا وقد وصف الله حالهم بقوله : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿31﴾ ﴾ **سورة الأنفال** . فظهر عجزهم أمام تحدي القرآن لهم بالمعارضة.

بيّن الله عز وجل أن العجز ليس خاصّا بالعرب فقط ، وإنما لجميع الناس ، حتى الجن، ولو اجتمعوا على ذلك فلا يستطيعون معارضة القرآن على مدى الأزمان إلى يوم القيامة وكانوا أمامه عاجزين .

[1] السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ج 2 ص 1001 / 1002 .

ومع ذلك فإن العرب حاولوا أن يقاربوا بين القرآن الكريم وبين ما في أيديهم من خطابات إلا أنهم في كل مرة يرجعون خائبين ، ووقفوا أمامه موقف عجز وانبهار وإعجاب، ففي حديث إسلام (أبي ذر) وما وقع له مع أخيه ، فقال : " والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس ، لقد ناقض اثني عشر شاعرا في الجاهلية أنا أحدهم ، أنه ذهب إلى مكة وجاء لي بخبر النبي . قلت له : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ساحر كاهن ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على قصائد الشعر فلم يلتئم على لسان أحد يدّعي انه شاعر ، إنه لصادق وإنهم لكاذبون " [1] .

وروى السيوطي أن الوليد بن المغيرة ـ وكان عالما بالشعرـ لما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم بعض القرآن جاءته قريش تعاتبه ، وتدعوه ليقول شيئا في محمد صلى الله عليه وسلم ـ وهو أحكمهم وأعقلهم ـ فردّ عليهم بوصف دقيق في القرآن الكريم أبهرهم به ، بعد أن حاول المقاربة بين الخطاب القرآني وبين خطابات الشعراء والكهان، فلم يجد سبيلا للمقاربة بينها وبين القرآن رغم علمه بكل أنواع الشعر والكهانة .

قال الوليد بن المغيرة ردا عليهم : " وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله لا يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، و والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطّم ما تحته " [2] .

---

[1] ينظر : عبد المنعم خفاجي ، مقدمة تحقيق كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ، ص 31 .

[2] ينظر: السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج2 ، ص 1003 .

ومع إعجابهم بنظمه وحسن بيانه وعجزهم عن مماثلته إلا أنهم وقفوا وقفة المعاندين و اتهموه بهتانا بالسحر ، ورغم كل المحاولات التي بذلوها لتقريبه من نصوص الشعر والكهانة إلا أنهم يجدونه أعلى مرتبة مما في أيديهم من أرقى كلامهم وأبلغه .

يقول الباقلاني مبينا تعامل العرب مع القرآن في أول أمره :" وكنا نعرف أن قريشا أفصح العرب وأعرفها باللسان وأقدرها على سائر أوزان الكلام ، وأنها قد طاشت عقولها فيما أتى به ، فقالوا مرة : إنه سحر ، وقالوا تارة :﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ ﴾ سورة الفرقان ، وقالوا تارة شعر "[1].

ورغم معرفتهم للغة العرب وفصاحتها إلا أنهم لم يجدوا لهذا الكلام شبيها في ثقافتهم اللغوية ، وكانوا " حريصين أشد الحرص على جذب النص الجديد إلى أفق النصوص المعتادة، فقالوا عن النبي شاعرا وقالوا عنه كاهنا. ولا شك أن هذه الأوصاف قامت عندهم على أسس من إدراك المماثلة بين نص القرآن ونصوص الشعراء والكهان"[2]، ولكنهم وقفوا موقف عجز ودهشة فيما جاء به النبي ، ولم يستطيعوا التقريب بينه وبين خطاباتهم رغم كونهم أبلغ الناس قولا وأحكمهم عقلا ، وهم قوم فطرهم الله عز وجل على البلاغة والشعر .

و في عصر صدر الإسلام ترسخ في أذهان العرب بالسليقة أن القرآن معجزة صادقة على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لم يحتاجوا إلى البحث في

---

[1] أبو بكر الباقلاني : كتاب التمهيد ، تصحيح ونشر ، الأب ريتشرد يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية بيروت ، 1957 ، ص 144 .

[2] نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص ، دراسة في علوم القرآن ، ص 138 .

ما يثبتون به إعجازه لأنه ثابت في نفوسهم ، فقد " كان الذوق العربي السليم يساعد أصحابه على إدراك الأساليب القرآنية في مخاطباته ، وكانت قدسية القرآن وعظمته مسيطرة على نفوسهم وكان الإقرار بالعجز عن الارتفاع إلى مستواه كامنا في النفوس"[1]، وبقي هذا الأمر على حاله إلى أن بدأ الذوق العربي الأصيل بالضعف .

أما في عهد بني العباس فقد انفتحت الثقافة العربية على غيرها من الثقافات (الهندية واليونانية والفارسية والرومية) وتأثرت بها ، وازدهرت حركة الترجمة و البحث في الفلسفة وعلم الكلام ، وظهرت آفاق جديدة من التفكير في الساحة الثقافية العربية، "فتلقفها الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركنون إلى الاستغراب في أقوالهم ، فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا القول بالصرفة ويطبقونه على القرآن الكريم" [2] . وهو رأي قال به المعتزلة ، إذ رأوا أن العرب عجزوا عن معارضة القرآن عندما وقع التحدي فصرفهم الله عن الإتيان بمثله وكان معجزا لهم .

لقيت هذه الفكرة رواجا كبيرا عند المشتغلين بعلم الكلام وانتشرت انتشارا واسعا،" وأول من ثبت أنه أظهر هذه المقولة بين الناس شيخ من شيوخ الكلام والاعتزال هو إبراهيم بين سيّار الشهير بالنظام؛ المتوفى سنة 224هـ ، فهو أول من جاهر بها وأعلنها ودعا إليها وجادل عنها كأنها مسألة من أهم مسائل علم الكلام "[3]. وقد لقي هذا القول معارضة شديدة من العلماء وردوا عليه بالحجة والدليل ، وذهبوا إلى أن إثبات

---

[1] مصطفى مسلم : مباحث في إعجاز القرآن ، دار المسلم للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية) الطبعة الثانية ، 1416هـ / 1996 م ، ص 45

[2] محمد بن عبد العزيز العواجي : إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني ، مكتبة دار المناهج الرياض السعودية الطبعة الأولى ، 1467هـ هـ ص 97 .

[3] المرجع نفسه ، ص 98 .

إعجاز القرآن يكون من خلال نظمه وحسن تأليفه ، وبذلك نشأت و تطورت فكرة النظم حتى استوت نظرية في الإعجاز.

وخلال هذه المرحلة اشتد الصراع الفكري والعقائدي بين الفرق الكلامية ، وامتد ليصل إلى القرآن الكريم ، وبالموازاة مع ذلك بدأت حركة التأليف في قضية الإعجاز القرآني ، وكانت الشغل الشاغل الذي واجه العقل العربي ، حيث أثارت زوبعة فكرية غيرت منظومة المفاهيم والأفكار في الثقافة العربية ، " ولعل أول من تولى الرد على القول بالصرفة هو الجاحظ تلميذ النظام(ت 255هـ) ، فإلى جانب تناوله موضوع إعجاز القرآن في إشارات مقتضبة في بعض كتبه الأدبية؛ (الحيوان) و(البيان والتبيين) ، فقد ألف كتابا سماه (نظم القرآن) ليتعرف القارئ من خلال بيان المعاني الغزيرة في الآيات القرآنية ذات الكلمات القليلة على نظم القرآن الكريم وتفرده بنمط معين لا يتوفر في كلام غيره ، وهذا النظم هو سر الإعجاز فيه "[1] . ومع أن الجاحظ تلميذ النظام إلا أنه رأى رأيا خالف فيه أستاذه في قضية إعجاز القرآن .

ثم ظهرت العديد من المؤلفات تتحدث عن فكرة الإعجاز ووجوهه ، وكان كل مؤلَف يستند إلى نمط فكري سائد في ذلك العصر الزاخر بالدراسات التي اعتنت بالخطاب القرآني ، ومن أبرز من ألف في هذا المجال : الباقلاني والخطابي والرماني والقاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني ، وقد كان للبحث في قضية الإعجاز أثر بالغ في تطور البلاغة والنقد وعلوم القرآن ، فالعلوم العربية متداخلة ويستند بعضها إلى بعض لتشكّل منظومة فكرية متكاملة نشأت لفهم القرآن الكريم وتدبره.

---

[1] مصطفى مسلم : مباحث في إعجاز القرآن . ص 46

وعليه فإن البحث في إعجاز القرآن بحث متجذر في الثقافة العربية الإسلامية ، تمتد جذوره إلى وقت نزول القرآن الكريم ، وتتفرع فروعه لتؤتي أحسن ثمار دانية في الدراسات الغوية والبلاغية في التراث العربي ، وهذا حسن سعيد بحيري يرى أن الخلافات الكلامية والأصولية بين العلماء قد أثّرت في دراساتهم للإعجاز القرآني وفي فكرة النظم ، وانتقلت هذه الخلافات إلى ساحة البحث اللغوي ، واتجه كل فريق إلى وضع نظريات في اللغة والبيان موافقة لأصول مذهبه وعقيدته [1] .

3 اتجاهات المفكرين في بيان وجوه الإعجاز القرآني :

اهتم الدارسون في علوم القرآن بقضية إعجازه ، وبحثوا في بيان وجوهه وأسراره، ولم يختلفوا في إعجازه ، ولكن كان الاختلاف في تحديد أصله ، وخلصوا إلى استنباط مجموعة من الوجوه والمعايير ، فتعددت الأقوال المثبتة له بما يتوافق والمذاهب الكلامية لأصحابها ، ومرجعياتهم الفكرية والدينية ، فمنهم من جعل جوهر الإعجاز داخل الخطاب القرآني ذاته ، ومنهم من جعله متعلقا بأمور خارجة عن نطاق الخطاب .

و يمكن أن نصنف الأقوال المشهورة في الإعجاز ضمن اتجاهين رئيسين :

3 ـ1 الاتجاه الأول: الإعجاز خارج الخطاب القرآني

يرى أصحاب هذه الاتجاه أن إعجاز القرآن واقع خارج الخطاب القرآني وأنه فوق طاقة العرب والبشر جميعا ، وأصحاب هذا الاتجاه هم القائلون بالصرفة وهو مذهب المعتزلة .

---

[1] ينظر : سعيد حسن بحيري ، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، مكتبة الآداب القاهرة ، مصر، 2005م ، ص 174 .

القول بالصرفة: أشهر الأقوال الداعية إلى أن الإعجاز واقع خارج الخطاب القرآني، وهو راجع إلى عجز العرب عن معارضته ، وهذا ما ذهب إليه أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظّام ومن معه ، بالقول " أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم ، لكن عاقهم أمر خارجي ، فصار كسائر المعجزات " [1] .

نقل صاحب (الملل والنحل) رأي النظام في إعجاز القرآن :" أنه من حيث الأخبار عن الأمور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعي من المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به جبرا وتعجيزا حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما " [2].

دعا النظّام إلى فكرة الصرفة التي مفادها أن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن الكريم ببلاغتهم وفصاحتهم لولا أن الله صرفهم وأعجزهم بأن سلبهم القدرة على فعل ذلك ، ولولا أن الله صرفهم عنه لأتوا بمثله ، ولكنه لقي ردودا كثيرا تبطل ما ذهب إليه في أن العرب كانت لهم القدرة لولا صرفهم عنها ، ومن الذين ردوا عليه قوله مجموعة من العلماء أمثال الباقلاني والخطابي والجرجاني وغيرهم ، وقد سبقهم في ذلك كما أسلفنا الذكر تلميذه الجاحظ " الذي يرى أن الإعجاز بالنظر إلى ذات القرآن متصل بنظمه وحده بصرف النظر عما اشتمل عليه من المعاني" [3] .

---

[1] ينظر : جلال الدين السيوطي ،الإتقان في علوم القرآن ، ص 1005. .

[2] أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(ت 548هـ) : الملل والنحل ،تعليق أحمد فهمي محمد ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية (1413هـ / 1992م) ج1 ، ص 50 .

[3] درويش الجندي : نظرية عبد القاهر في النظم ، ص 22 .

كان سعي النّظّام من خلال القول بالصرفة ، كما نقل ذلك البغدادي ، هو إنكار نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: " وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفا من السيف فأنكر إعجاز القرآن في نظمه "[1] ، وأكد ذلك بكلام أكثر تفصيلا فقال :" الفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه قوله أن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي عليه السلام ، ولا دلالة على صدقه في دعواه للنبوة ، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الأخبار عن الغيوب . فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف ، وفي هذا عناد منه لقول الله تعالى: ((قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿88﴾)) سورة الإسراء. ولم يكن غرض منكر إعجاز القرآن إلا إنكار نبوة من تحدى العرب بأن يعارضوه بمثله "[2].

إن ما ذهب إليه النظّام يجعل كلام العرب شعرا ونثرا في مرتبة واحدة مع القرآن الكريم من حيث أسلوبه ونظمه ، وأنه لا يختلف عن كلامهم إلا بما يحويه من أخبار معجزة ، وهذا ما جعل العلماء يردون هذا الرأي ، خاصة وأنه ادعى أن العرب قادرون على مثل هذا النظم ، ولم يمنعهم من ذلك إلا صرف الله عزّ و جلّ لهم عنه .

---

[1] عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت 429هـ) : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة (1402 هـ / 1982م)ص 114 .

[2] المصدر نفسه ، ص 128 .

وقد نبّه الباقلاني على رأي النظام وأتباعه ردا عليهم وعلى من ادعى جواز السجع في القرآن الكريم بعد أن نفاه عنه قائلا : " ولابد لمن جوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه النظّام ، وعباد بن سليمان ، وهشام الفوطي * ، ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز ، وأنه يمكن معارضته وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف " [1].

ردّ الباقلاني على هذا القول مبيّنا أن من يذهب هذا المذهب إنما يتعارض مع طريقة النظم ، ولا يُخرج القرآن الكريم عن أنواع خطابات العرب " ويستهين ببديع نظمه، وعجيب تأليف الذي وقع به التحدي إليه " [2]. ثم يوضح السبب في ذلك قائلا :" فإذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمي الكلامين "[3] ، ويكون نظم القرآن مثل نظم الشعر ، وغيره من الخطابات عند العرب ، ويكون وجه الإعجاز فقط منع القدرة عنهم في معارضة القرآن وإلا فقد فعلوا .

ويعلق مصطفى صادق الرافعي على هذا الاتجاه قائلا :" وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: ((فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿24﴾)) سورة المدثر .

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 119 .

*عباد بن سليمان الضيمري من أعلام المعتزلة ، هشام بن عمر الشيباني المعتزلي من أعلام القرآن الثالث الهجري.

ومن القائلين بالصرفة أيضا: الشريف المرتضي(436هـ) ، وابن حزم الأندلسي الظاهري (456هـ) ، وابن سنان الخفاجي (466هـ) : ينظر ـ مصطفى مسلم ، مباحث في إعجاز القرآن ص 63 . حاتم الضامن ، نظرية النظم ص 91 /92 .

[2] الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 119 .

[3] المصدر نفسه ، ص 119 .

وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول فيه ضربا من العمى ((أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿15﴾)) سورة الطور . فاعتبر ذلك بعضه ببعض فهو كالشيء الواحد " [1]، فوجه الشبه بين ادعاء العرب والقول بالصرفة يكمن في أن عدم القدرة على المعارضة سببه أمر خارجي عن النص القرآني ، فالعرب أرجعوه إلى أمر غير ظاهر هو السحر وأصحاب الصرفة أيضا عللوه بسلب القدرة على المعارضة من الله عز وجل.

3 ـ2 الاتجاه الثاني: الإعجاز داخل الخطاب القرآني

يتضمن هذا الاتجاه ثلاثة أوجه للإعجاز ، وهذه الأوجه تتمحور حول أمرين ؛ يتعلق الأول بمضمون الخطاب وموضوعه ، حيث استفاض الباقلاني حديثا عنه في كتابيه التمهيد والانتصار ، وأما الثاني فيتعلق ببنائه اللغوي وأسلوبه ، وهو محور كتاب إعجاز القرآن ، وهذه الأوجه هي :

3 ـ 2 ـ 1 : مضمون الخطاب القرآني

يتمحور الإعجاز النابع من مضمون الخطاب القرآني حول قضيتين أساسيتين هما: سرد أخبار الأمم السابقة ، و الثانية هي الحديث عن الأمور الغيبة ، وما ذكره من أمور متعلقة بمستقبل الزمان بعد نزول القرآن الكريم ، وقد أورد الباقلاني هذا القول في الانتصار مبينا أن إعجاز القرآن متعلق " بما تضمنه من أخبار الغيوب وذكر ما سيحدث ويكون ، وما انطوى عليه من شرح أقاصيص الأولين وسنن النبيين وأحوال الأمم المتقدمين التي لا يعرفها ولا يحيط بها إلا من أكثر لقاء الأمم ، ودراسة الكتب ،

[1] مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، 1425 هـ / 2005م ، ص 97.

وصحبة الأحبار وحملة الآثار ، مع العلم بنشوء النبي صلى الله عليه وسلم في مقامه وظعنه ، وأنه لم يكن يتلو قبل ذلك كتابا ، ولا يخط بيمينه ، ولا ممن يعرف مداخلة أهل السير وملابسات أصحاب الآثار وحفاظ الكتب والأخبار "[1].

أ / القول بأخبار الأمم السابقة

يقول الباقلاني في بيان وجه الإعجاز من هذا الباب :" الوجه الثاني الذي ذكرناه ، من إخباره عن قصص الأولين وسير المتقدمين ، فمن العجيب الممتع ، على من لم يقف على الأخبار، ولم يشتغل بدرس الآثار ، وقد حكى في القرآن تلك الأمور حكاية من شاهدها وحضرها"[2] ، ويؤكد أن هذه الأخبار تمثل جانب من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجيد القراءة ولا الكتابة ولا اطلع على سالف الأخبار ليكون ذلك حجة عليه وطعنا فيما جاء به ، وقد ساق للدلالة على ذلك عدة آيات منها:

قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۚ ﴿48﴾ ﴾ العنكبوت .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ۖ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۚ ﴿44﴾ ﴾ القصص.

---

[1] أبو بكر الباقلاني : الانتصار للقرآن ، تحقيق محمد عصام القضاة ، دار الفتح للنشر والتوزيع عمان الأردن ، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، 2001م / 1422هـ ، ص 67 .

[2] أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 101 .

وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿46﴾ ﴾القصص .

يرى الباقلاني من خلل هذه الآيات أن الله عز وجل " بيّن وجه دلالته من إخباره بهذه الأمور الغائبة السالفة " [1] في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿49﴾ ﴾سورة هود.

ب / القول بالأمور الغيبية :

أشار الباقلاني إلى هذا الرأي في كتابه إعجاز القرآن [2]، وفصّل القول فيه بالأمثلة من القرآن الكريم ، فقال:" وأما الفصل الذي بدأنا بذكره من الأخبار عن الغيوب والصدق وإصابته في ذلك كله ، فهو : كقوله تعالى:﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿16﴾ ﴾ الفتح . فأغزاهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى قتال العرب والفرس والروم " [3].

ثم ساق مجموعة من الآيات التي تبيّن ذلك ومنها :

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 102 .

[2] المصدر نفسه ، ص 83 .

[3] المصدر نفسه ، ص 100.

قوله تعالى:﴿ أَلٓمٓ ﴿1﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿2﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿3﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿4﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُۖ ﴿5﴾ ﴾ سورة الروم .

وفي قصة أهل بدر : قول الله تعالى :﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَۚ ﴿45﴾ ﴾ القمر .

وقوله :﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبٗاۖ ﴿27﴾ ﴾ سورة الفتح .

وقوله :﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡۖ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿7﴾ ﴾ الأنفال 7 .

وقوله :﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَۖ ﴿55﴾ ﴾ سورة النور .

بيّن الباقلاني من خلال هذه الآيات أن من بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ما يحمله القرآن الكريم من الغيبيات التي تحدث عن وقوعها في مستقبل الزمان بعد نزوله ، وقصص الأقوام السابقين .

وأشار إلى أن بعض العلماء يرون أن إعجاز القرآن واقع من جهة ما يتضمنه من البديع ويمكن الاستفادة منها والاستدلال بها لبيان ذلك وهو رأي الرماني في رسالته (النكت في إعجاز القرآن) ، إلا أنه بعدما فصّل القول في ألوان البديع أكد أن الإعجاز خارج عن ذلك " لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها " [1] ، والقرآن أرفع عن ذلك .

يقول الباقلاني في أمر التصنّع بالبديع : " وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمُّل له ، وأمكنه نظمه . والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له ، والتوصل إليه بحال "[2].

فالباقلاني يرى أن الشعر صنعة يمكن نظمه بالدّربة والتّعود ، ويمكن للشاعر تجويد شعره بأجمل ألوان البديع ليظهر في أحسن حلة ، وضرب مثلا لذلك بأبي تمام والبحتري ومن قبلهما امرؤ القيس وزهير والنابغة ، وبيّن " تميُّز كلامهم ، وانحطاط درجة قولهم ، ونزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن " [3] . وقدم ما يراه من أسباب في نفي الإعجاز عن طريق البديع قائلا : " لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادَّعوه في الشعر ، ووصفوه فيه ، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم ، والتدرب به ، والتصنع له ، كقول الشعر ، ورصف الخطب ، وصناعة الرسالة ، والحذق في البلاغة " [4] ، ثم يؤكد أن نظم القرآن ليس له

---

[1] أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن ، ص 159 .

[2] المصدر نفسه ص 159 .

[3] المصدر نفسه ص 162 .

[4] المصدر نفسه ص 162 .

مثال يُحتذى إليه ، ولا إمام يُقتدى به[1]. وهذا ما يجعله يتجه إلى القول أن إعجاز القرآن كامن في نظمه .

3 ـ 2 ـ 2 نظم الخطاب القرآني

مثلت فكرة النظم محور الاتجاه القائل أن الإعجاز راجع إلى الأسلوب البياني المتفرد الذي جاء به القرآن الكريم ، وسار في هذا الاتجاه علماء أمثال : الجاحظ ، الخطابي ، الباقلاني ، الجرجاني .

ذهب الباقلاني و من معه من أصحاب هذا الاتجاه إلى أن إعجاز القرآن الكريم راجع إلى أسلوبه الذي أبهر العرب بتركيبه ونظمه ، إذ يرى أن الإعجاز يكمن داخل النص القرآني ، وأنه ليس لسبب خارجي كما ادعى المعتزلة بصرف العرب عن الإتيان بمثله ، وإن كان يشير إلى أن من جملة وجوه الإعجاز ما ورد فيه من الإخبار بالغيب وكذلك قصص الأولين ، إلا أنه يؤكد أن المزية الأولى في الإعجاز ترجع إلى تأليفه ونظمه ، فلو كان أمر الإعجاز متعلقا بتلك الأخبار فقط ، لكانت الكتب السماوية السابقة أيضا معجزة بذلك .

يقول الباقلاني :" فإن قيل : فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز ، كالتوراة و الإنجيل والصحف ؟ قيل : ليس شيء من ذلك معجز في النظم والتأليف ، وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب ، وإنما لم يكن معجزا لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ، ولأنه قد علمنا أنه لم يقع التحدي

[1] ينظر : أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن ، ص 163 .

إليه كما وقع إلى القرآن ، ولمعنى آخر وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز " [1].

ثم يذهب إلى التأكيد على أن بناء النص القرآني من ناحية النظم هو المزية الأولى في بيان الإعجاز ، بعد أن أشار إلى الوجهين السابقين من قصص السابقين ، والإخبار بأمور الغيب والمستقبل ، قائلا :" فأما الكلام في الوجه الثالث ، وهو الذي بيناه ، من الإعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف " [2]. وسيأتي في المبحث الموالي تفصيل الحديث عن النظم ووجوهه .

ثالثا : النظم (الأسس والمفاهيم)

1 مفهوم النظم

1ـ1 لغة : جاءت لفظة النظم في المعاجم العربية للدلالة على معنى الجمع و التأليف والضم والاتساق.

يقول ابن منظور : " النظم: التأليف ، نظمه ينظمه نظما ونظاما ونظمه فانتظم وتنظم ، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك ، والتنظيم مثله ، ومنه نظمت الشعر ونظّمته ، ونظم الأمر على المثل ، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض ، فقد نظمته " [3] .

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص79 .

[2] المصدر نفسه ، ص 102 .

[3] ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نظم .المجلد السادس ، ص 4469 .

ومن المجاز ما ذكره الزمخشري :" نظم الكلام ، وهذا نظم حسن ، وانتظم كلامه وأمره ، وليس لأمره نظام إذا لم تستقم طريقته " [1].

وفي المعجم الوسيط :" نظم الأشياء ـ نظما : ألفها وضم بعضها إلى بعض ، وـ شعرا: ألف كلاما موزونا مقفى ... وانتظم الشيء : تألف واتسق ... ويقال نظم القرآن : عبارته التي تشتمل عليه المصاحف صيغة ولغة " [2] .

إذا كان النظم عند أهل اللغة يقتضي التأليف والجمع والترتيب وضم الأشياء إلى بعضها ، فإنه في اصطلاح البلاغيين مقترن بقضية الإعجاز وما أفرزته من آراء وأفكار مختلفة في بيئات فكرية متعددة ، والباحث عن مفهومٍ للنظم في التراث العربي يجد أن جذوره موغلة في الدرس البلاغي، حيث كان أبرز وجه من وجوه إعجاز القرآن.

1 ــ 2 اصطلاحا :

يقول الشريف الجرجاني: " النظم في اللغة : جمع اللؤلؤ في السلك، وفي الاصطلاح : تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل ، وقيل : الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل"[3] ، فالنظم حسب ما أورده الشريف الجرجاني يتعلق بتماسك الألفاظ وترابطها، مرتبة في الكلام حسب ما تقتضيه معانيها في الذهن وسياقها الداخلي في النص ، وقد أشار إلى هذا المفهوم محمد زغلول سلام قائلا : " النظم بمعنى سبك الألفاظ وضمها

---

[1] الزمخشري: أساس البلاغة ، مادة نظم ، ج 2 ، ص 284 .

[2] إبراهيم مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربة) : المعجم الوسيط ، مادة نظم ، ج 2 ، ص 933 .

[3] علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت 816هـ): معجم التعريفات ، تحقيق محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيل ، القاهرة ـ مصر ، 2004م ص 203 .

بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني فيجريان معا في سلاسة وعذوبة كالجدول، لا تعثر ولا كلفة ، ولا حوشي في اللفظ ، ولا زيادة أو فضول"[1].

وعلى هذا النحو كان مصطلح النظم في التراث العربي مرتبطا بالدراسات البلاغية و إعجاز القرآن، فهو " يدل بوضوح على المجال الأساسي لبحث قضية الإعجاز ، وأن البحث في هذه القضية إنما هو بحث بلاغي / نحوي ، منه المنطلق وإليه المآب " [2]. ولذلك نجد عبد القاهر الجرجاني عندما يفصّل القول في معنى النظم يجعله مقترنا بقوانين اللغة وقواعدها.

يقول عبد القاهر الجرجاني :" معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكَلِمِ بعضِها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض " [3] ، وأكد أن هذا التعليق راجع إلى توخي معاني النحو فقال : " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها " [4] . ومن هنا لا يكون النظم متعلقا بترتيب الكلمات فقط بل " يرتبط بالجانب التركيبي للجملة ، أو ما فوق الجملة وما يتعلق بالفقرة ، وعلاقات الجمل بعضها ببعض ، ثم علاقة كل ذلك بالنص " [5].

---

[1] محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ، ص 108 .

[2] أشرف عبد البديع عبد الكريم : الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن ، ص 40 .

[3] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 4 .

[4] المرجع نفسه ، ص 81

[5] أشرف عبد البديع : الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن ، ص 101 .

فالنظم لا يعتمد على التأليف الظاهري للألفاظ فحسب ، بل هو كما ذهب إليه الباقلاني متعلق بترتيب الألفاظ في الكلام مقترنة بترتيب المعاني في النفس ، وهذا ما يحمل ضمنيا فكرة الانسجام التي تعتمد في الأساس على تناسب الألفاظ مع بعضها من جهة ، ومع معانيها الواردة في سياق الحديث من جهة أخرى .

2 أثر علم الإعجاز في نشأة فكرة النظم :

كان ظهور وتطور فكرة النظم عند علماء العربية قديما، من كونها بذرة إلى نضجها نظرية ، متعلقا بقضية الإعجاز في القرآن الكريم ، وما خلّفته هذه الأخيرة من تطور في علم البلاغة ، حيث شكلت هذه الفكرة الركيزة الأساسية في نظرية الإعجاز.

أشار الباقلاني في مقدمة كتابه إلى أهمية دراسة قضية الإعجاز القرآني والكشف عن أسراره لأنها أصل الدين ، وقاعدة التوحيد وعماده ، ودليل على صدق نبوة النبي عليه الصلاة والسلام ، وبرهان معجزته ، وذلك لما يتعرض له القرآن الكريم من تشكيك فيه ، حتى يصل الأمر ببعضهم " أنه جعل يعدله ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه "[1]، ولعل هذا ما دفع الباقلاني إلى الرد عليهم بتفصيل قضية الإعجاز منتهجا سبيل الموازنة بين كلام الله وما يرونه أجود الشعر العربي ، ليصل بالقارئ إلى أن مردّ الإعجاز هو نظمه ، " وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[2].

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص52 .

[2] المصدر نفسه ،ص 86 .

فالنظم نشأ في جو ديني ، ثم امتزج ببعض الآراء الكلامية ، إذ ذهب نفر من المعتزلة إلى القول بالصرفة ، وقابلها في الاتجاه المغاير قول الأشاعرة بالنظم ، وأنه أساس الإعجاز القرآني ، وبذلك كانت قضية النظم ثمرة تلاقح علم البلاغة وعلم الإعجاز .

3 تطور قضية النظم عند علماء العربية :

حظيت فكرة النظم باهتمام كبير لدى علماء الإعجاز ، وشكلت غرّة في جبين البلاغة العربية وسمة بارزة فيها ، إذ لم تكن وليدة عصر بعينه ، ولم يكن الباقلاني أول من عرضها ، بل تكونت نتيجة جهود فكرية متواصلة عبر العصور ، وتدرجت عبر آراء العلماء منذ وقت مبكر، فبذلوا فيها أقصى جهودهم حتى اكتملت نظرية قائمة بذاتها، دانية الثمار ، معلومة المنهج و مستوية المعالم في نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس.

تؤكد العديد من الدراسات أن أول إشارة إلى قضية النظم في التراث العربي ترجع إلى ابن المقفع (106هـ 142هـ) في كتابه (الأدب الصغير) [1] ، عندما وضع مقارنة بين صائغ المجوهرات والمتكلم البليغ ؛ فقال : " فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولا بديعا ، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم ـ وإن أحسن وأبلغ ـ ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا ، فنظمه قلائد

[1] ينظر : دراسة حاتم الضامن، نظرية النظم تطور وتاريخ ، ص 6 ،
ودراسة : وليد محمد مراد ، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ص 57 ، ودراسة : بلخير ارفيس ، نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري ، ص 10 .

و سُموطا وأكاليل ووضع كل فص موضعه ، وجمع إلى كل لون شبيهه وما يزيده بذلك حسنا "[1] .

إن ابن المقفع في موازنته بين المتكلم والصائغ يشير ضمنيا إلى اعتماد آلية النظم كأداة و معيار أساسي في بيان جودة الكلام وحسنه ، فكما أن الصائغ يعتمد على نظم وترتيب الجواهر المختلفة ليشكل بها قلائد ثمينة تتفاوت بتفاوت مواضع تلك الجواهر وترتيبها ، كذلك المتكلم ينظم الكلمات ويختار لها مواضعها في الكلام ليألف منها قولا بليغا .

إذا كان ابن المقفع قد أشار إلى فكرة النظم فإن هناك من العلماء من فصلوا القول فيها وأفردوا تصانيفًا تبحث فيها منذ نشأتها إلى أن بلغت أوجَّها في القرن الرابع الهجري، غير أن ما ألفه الدارسون في هذه القضية لم يصنف نظرية قائمة بذاتها إلا مع عبد القاهر الجرجاني.

ومع ذلك فإن مفهوم النظم تطور تدريجيا عبر قرون متتالية ليتجذر في أعماق التراث العربي والفكر البلاغي والتأليف الإعجازي ، فكانت البداية إشارات خفيفة إلى نظم القرآن الكريم ، ثم تطور الأمر ليصبح قضية أساسية في البلاغة والإعجاز ، حتى يبلغ في نهاية المطاف إلى كونه نظرية قائمة الأركان ، ومن أبرز من اهتم بهذه القضية : الجاحظ و ابن قتيبة و الخطابي و الباقلاني و عبد القاهر الجرجاني .

[1] ابن المقفع : الأدب الصغير، تحقيق وائل حافظ خلف ، دار الألوكة للنشر ، الطبعة الأولى ، مصر ، 2011م،ص22 .

أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (150هـ / 255 هـ)

يعتبر الجاحظ أول من ردّ على رأي النظّام في قضية إعجاز القرآن ، ورأى " أن بيان القرآن الكريم ونظمه وتأليفه يحتاج إلى كتاب مستقل يودع فيه رأيه في إعجاز القرآن من هذه الناحية ، فألف كتاب (نظم القرآن) وأثبت فيه آراءه في بيان نظم القرآن بشكل يوضح الحجة من إعجازه "[1]، وقد أشار إليه في مقدمة كتاب الحيوان قائلا :" كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه "[2] . إلا أن كل المراجع تشير إلى أن هذا الكتاب مفقود . وقد أكد الباقلاني أن الجاحظ من أبرز الذين صنفوا في نظم القرآن الكريم قائلا :" وقد صنّف الجاحظ (نظم القرآن) كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى " [3] . يقصد بذلك قضية وجوه إعجاز القرآن الكريم وما قاله المعتزلة في ذلك .

كانت فكرة النظم عند الجاحظ مقرونة بقضية اللفظ والمعنى في النقد الأدبي ، إذ يرى أن " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج "[4] ، والمراد بالسبك ضمُّ الألفاظ ونظمها في الكلام بما تقتضيه جودة الشعر الذي جعله نوعا من النسج والتأليف، فكان النظم عنده من أبرز ما يميز جيد الكلام من غيره .

---

[1] محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص 73

[2] أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ : كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية (1384هـ/ 1965م) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، الجزء الأول ص 9 .

[3] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 53.

[4] أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ : كتاب الحيوان ،ج3 ، ص 131 .

ابن قتيبة (ت 276 هـ) :

دافع ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) عن القرآن الكريم بعد تعرضه إلى حملة شرسة من الطاعنين والملحدين ، والهدف منها اتباع المتشابه من آياته للطعن في الدين ونشرا للفتنة والشبهات، وكان الأسلوب الذي انتهجوه هو القدح في نظم القرآن الكريم وترابطه وانسجامه ، ولكن تصدى لهم العديد من العلماء الأفذاذ الذين أزالوا عنه غطاء الشبهة وأثبتوا تماسكه وانسجامه .

قال ابن قتيبة :" وقد اتبع كتاب الله ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ((مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ)) ـ آل عمران الآية 7ـ بأفهام كليلة وأبصار عليلة ، ونظر مدخول فحرفوا الكلم عن مواضعه وعدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم ، والاختلاف "[1] .

و يؤكد أن النظم مناط الإعجاز و يدافع عن فكرته قائلا : " وقطع عنه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبان بعجيب النظم عن حيّل المتكلفين "[2]، ولذلك كان القول بأن النظم سبب في الإعجاز كفيل لرد كيد الماكرين الذين يريدون بالإسلام سوءا ، وهذا ما ذهب إليه في إشارته إلى النظم .

---

[1] ابن قتيبة أبو محمد بن عبد الله بن مسلم : تأويل مشكل القرآن ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر ،مكتبة دار التراث القاهرة ، مصر ، الطبعة ، 1973م ، ص 22 .

[2] المصدر نفسه ، ص 3 .

الخطابي : (بيان إعجاز القرآن الكريم (319هـ/ 388هـ)

إذا كان ابن قتيبة قد أشار إشارات خفيفة إلى فكرة النظم فإن الخطابي أقرّ في الرسالة التي ألفها في الإعجاز (بيان إعجاز القرآن) ، أن النواة الأولى لبيان إعجاز القرآن الكريم هي النظم ، وجعل ذلك مرتبطا بالألفاظ ومعانيها .

استهل الخطابي حديثه في بيان إعجاز القرآن عن معجزة النبي التي لم يستطع العرب لها سبيلا لمعارضته بعد تحديهم بها ، ثم فصّل القول في المذاهب التي أكثر الناس الحديث فيها عن إعجاز القرآن، من قائل بأن الإعجاز في ذكر أخبار الأمم السابقة ، وقائل بما يتضمنه من أخبار عن مستقبل الزمان ، و قائل بالصرفة، و نفى القول الأخير باستناده إلى قوله تعالى : ((قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾)) سورة الإسراء ، وذهب إلى أن إعجاز القرآن مبني على أساس النظم .

قسم الخطابي الكلام إلى ثلاث طبقات فقال :" أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها : البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل " [1] .

وفصّل القول فيها وبيّن أن اختلاف درجاتها متعلق بنظمه ، وأكد أن ذلك من خصائص القرآن الكريم وتميزه عن غيره من أساليب كلام العرب ، ودلالة على كونه معجزة النبي صلى الله عليه وسلم لقومه ،" فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ،

[1] أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي : بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ،ص 26.

والقسم الثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصةً ، وأخذت من كل نوع من الأنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد من نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوِّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيّه ، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه "[1].

بيّن الخطابي أن القرآن الكريم يحتوي على تلك الأصناف من الكلام التي ذكره وأنه ينفرد بخاصية القدرة على المزج بينها عكس غيره من الأساليب التي قد تحوي صنفا واحد دون الآخر .

ثم صرّح أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو نظمه ؛ فقال :" وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة في تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية

[1] الخطابي : بيان إعجاز القرآن ، ص 26 .

الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما و تشاكلا من نظمه "[1] .

اشترط الخطابي لكمال المعرفة التي يعرف بها وجه الإعجاز أن يدرك المتلقي تلك العلاقة الرابطة بين اللفظ والمعنى والمتمثلة في رابط النظم الذي يجمع بينهما ، ويؤكد ذلك مرة أخرى قائلا:" واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني "[2] ، ثم يذهب الخطابي إلى بيان علاقة الألفاظ بمعانيه في سياق الكلام ، حيث يرى أن أي تغيير للفظ عن مكانه أو استبداله بآخر ولو كان مرادفا له في معناه يفسد نظمه وبلاغته .

ويقول: " اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأَشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد المخاطب "[3].

ويؤكد من خلال كلامه أن إعجاز القرآن الكريم مرتبط بانتظام الألفاظ في مواطنها وتعلقها بمعانيها التي أرادها المخاطب ، ثم يبين العلاقة بين اللفظ والمعنى والنظم قائلا:" أما المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشد لأنها نتاج العقول و ولائد الأفهام وبنات الأفكار ، و أما رسم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر

---

[1] الخطابي : بيان إعجاز القرآن ، ص 27 .

[2] المصدر نفسه ، ص 27 .

[3] المصدر نفسه، ص 29 .

لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني و به تنتظم أجزاء الكلام و يلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان " [1] .

إذن فالنظم في نظر الخطابي هو الوثاق الرابط بين الألفاظ والمعاني ، و به يتشكل البيان في النفس بعد التئام أجزاء الكلام وترابطه ، وهذا ما أعجز العرب في معارضة القرآن وقد جاء بألفاظ يعرفونها في لغتهم ، ولهذه النظرة التي قدمها الخطابي أهمية بالغة في تدرج قضية النظم في التراث العربي .

أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) :

ارتبطت قضية النظم عند العسكري بمسألة الألفاظ ومعانيها ، مثل سابقيه ، إلا أن العسكري يخالفهم في مبدئها ، إذ يجعل النظم متعلقا بالألفاظ دون المعاني ، معبرا عنها بالرصف والتأليف، ففي سياق حديثه عن ميزات الكلام الجيد يقول :" الكلام يحسن بسلاسته ، وسهولته ونصاعته ، وتخير لفظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشابه أعجازه بهواديه ، وموافقة مآخيره لمباديه ،مع قلة ضروراته ، بل عدمها أصلا، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا وبالتحفظ خليقا "[2].

إن الألفاظ عند العسكري هي أساس النظم الحسن وجودة الكلام ، فهو يجعل اللفظ مقدما في الأهمية على معناه ،إذ " ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها

---

[1] الخطابي : بيان إعجاز القرآن ، ص 36 .

[2] أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، ص61 .

العربي والعجمي ، والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة النظم وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدّمت "[1].

فإذا كانت المزية في الكلام عند العسكري في نظم ألفاظه دون معانيه ، فإنه يجعل النظم من أهم مميزات الشعر فيقول :" فمن مراتبه العالية التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام النظم ، الذي به زنة الألفاظ ، وتمام حسنها ، وليس شيء من أصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر " [2]، وإن كان النظم عنده متعلقا بالألفاظ وحسن اختيارها ، فأنه " ينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فتقدم منها ما كان يحسن تقديمه ، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره ، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تأخر منها ما يكون التقديم به أليق " [3] .

فالعسكري يجعل مسألة النظم مقرونة بحسن ترتيب الألفاظ وسبكها وتأليفها في ثوب منمّق ، يوحي بجمالها ورونقها وحسن اختيارها في الكلام الجيد .

النظم عند الباقلاني (ت 403 هـ) :

يتميز الباقلاني عن غيره بكثرة استعماله لمصطلح النظم في كتابه (إعجاز القرآن) ، وتحسن الإشارة إلى أمرين في ذلك :

---

[1] أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ص 64 .

[2] المصدر نفسه ، ص 143 .

[3] المصدر نفسه، ص 157 .

ـ يورد الباقلاني مصطلح النظم في كثير من الأحيان مقترنا بمصطلحي التأليف والرصف ، وذلك للدلالة على أنها تسير في فلك واحد من المعنى .

ـ يربط مصطلح النظم بمصطلح الخطاب. فيقول (نظم الخطاب)، والمقصود به الخطاب القرآني أو الخطاب الشعري.

يريد الباقلاني بالنظم ذلك التأليف الراقي للكلام وحسن رصفه وبنائه وانسجامه على نسق واحد من الجودة والبلاغة ؛ إذ بنى عليه مسألة الإعجاز القرآني ، وسعى إلى إثباتها من خلاله .

يقول :" ليس الإعجاز في نفس الحروف ، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها ، وكونها على وزن ما أتى به النبي ، صلى الله عليه ، وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود ، وليس لها نظم سواها ، وهو كتتابع الحركات إلى السماء ووجود بعضها قبل بعض ، ووجود بعضها بعد بعض، ولو كان ما سألتم عنه يبطل مزية القرآن وموضع الأعجوبة في نظمه ، لأوجب إبطال فضيلة الشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، و المترسل الفصيح المقتدر "[1]. فالنظم على ما ذكره منصب على الترتيب والتتابع ، وهو مزية للقرآن الكريم لا يقدر على مثله شاعر أو خطيب .

أسّس الباقلاني فكرته في قضية النظم على رأيه في علاقة اللفظ بالمعنى ، فقد صرح بذلك متحدثا عن مسألة نفي السجع من القرآن الكريم ، فقال:" السجع من الكلام يتبع فيه المعنى اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير

[1] أبو بكر الباقلاني ، كتاب التمهيد ، تصحيح ونشر ، الأب ريتشرد يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية بيروت ، 1957 ، ص 151 .

السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تبعا للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ " [1]. فأكد أن انتظام الألفاظ وترتيبها ورصفها متعلق بانتظام المعاني.

لم تصل نظرة الباقلاني في النظم إلى أن تكون نظرية كاملة في الإعجاز ، وإنما يمكن القول أنه اعتمد على فكرة النظم كأداة إجرائية ووسيلة من وسائل التحليل النصي، انطلق منها لبيان أسرار إعجاز القرآن الكريم ، واختلافه من حيث الترابط والانسجام عن غيره من الخطابات العربية المعتادة ، فأساس ذلك الاختلاف مناطه هو النظم ، لأن نظم القرآن كما يرى الباقلاني في مستوى أعلى من نظم غيره من الخطابات الأخرى، ولذلك كان انطلاقه في تحديده للنظم من عمق الثقافة التي نزل فيها القرآن الكريم ، تلك الثقافة التي تعتمد على التنوع الخطابي ، فأكد أن طريقة نظم القرآن مختلفة عن سائر النصوص البارزة في تلك المرحلة.

يقول :" فأما الكلام في الوجه الثالث، وهو الذي بيّنّاه ، من الإعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف ، فقد ذكرنا في هذا الوجه وجوها منها : أنّا قلنا إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم و مباين لأساليب خطابهم ، ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحّح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى لأن قوما من كفار قريش ادّعوا أنه شعر ، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعرا ، ومن أهل الملة من يقول إنه كلام مسجع إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ،

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن، ص 111 .

ومنهم من يدعي أنه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب"[1] .

وبعد أن عدد الباقلاني أصناف الخطابات التي تحتويها الثقافة العربية في العصر الجاهلي، بين أن نظم القرآن مختلف عن سائر تلك الخطابات في أسلوبه وتأليفه ورصفه، مهما حاولوا المقاربة بينه وبين ما يحيط به من خطابات فإن المقاربة مفارقة .

النظم عند عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ):

صرّح عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) بانتفاعه و اطّلاعه على جهود سابقيه في قضية النظم قائلا :"وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم ، وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره ، وإجماعهم ألا فضل بعدمه " [2]، وما ذلك إلا دليل على إلمامه بهذه القضية ، وإدراكه أهميتها في البلاغة والإعجاز.

لم تكن نظرة الجرجاني إلى النظم بعيدة عن سابقيه ، وإنما كانت أكثر تعمقا ودقة إلى درجة اكتمالها ونضجها نظرية قائمة في الإعجاز القرآني تستند إلى علمين من علوم العربية هما البلاغة والنحو ، حيث " عالج فيها العلاقات بين الألفاظ في الجمل ، وعالج العلاقات بين الجمل في سياقها ، أو في نص يجمع بينها " [3] ، وقد فصّل القول في النظم في كتابه دلائل الإعجاز و أتمّ ذلك في الرسالة الشافية ، مبرزا أن المزية في

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 102 .

[2] عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) : دلائل الإعجاز ، ص80 .

[3] محمد عكاشة : تحليل النص " دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي " ص 22.

الكلام البليغ ترجع إلى خصوصية في النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض[1]، مشيرا إلى تماسك الألفاظ وانسجامها في نسق واحد .

ينطلق الجرجاني في بناء نظريته في النظم من علاقة الألفاظ بالمعاني ، ويذهب إلى أن فصاحة اللفظة إنما هو باعتبار مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها، وأن لا تكون قلقة نابية مستكرهة [2]، وبيّن الفرق بين نظم الحرف ونظم الألفاظ ؛ أما " نظم الحروف هو تواليها في النطق ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ... أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس " [3] .

والفائدة من بيانه هذا الفرق هي " أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل "[4] ، ثم يشرح في سياق آخر كيفية توخي المعاني وارتباطها بأن " تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثاني منها بأول ، وأن تحتاج بالجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا " [5] ، ويشبه طريقة نظم الكلام وترتيب معانيه في النفس بحال " الباني يضع بيمينه هاهنا ، في حال ما يضع بيساره

---

[1] ينظر : عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 36 .

[2] ينظر: المصدر نفسه ، ص 44 .

[3] المصدر نفسه ، ص 49 .

[4] المصدر نفسه ص 50 .

[5] المصدر نفسه ، ص 93 .

هناك ، نعم ، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين " [1]. فالبناء المتماسك هو الذي تكون أجزاءه متلاحمة يشد بعضه بعضا في شكل متناسب متجانس.

بعد أن بين الجرجاني القاعدة الأساس في بيان النظم وهي ترتيب المعاني وانسجامها في النفس ومناسبتها لبعضها ، أوضح أن ذلك لا يتحقق إلا وفق ما يقتضيه علم النحو ، فقال : " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها " [2].

فالنظم وفق ما جاء به الجرجاني لا يتعلق بالناحية الشكلية للكلام ولا بالترتيب الظاهري للألفاظ فقط ، وإنما له جانب آخر عميق ، وهو توخي المعاني ، وترتيبها في النفس وفق ما يقتضيه علم النحو من مبادئ وأسس ينتظم بها الكلام وتتحقق به البلاغة.

[1] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 93 .

[2] المصدر نفسه ، ص 81

خلاصة :

إن الدراسات المتعلقة بنظم الخطاب القرآني انطلقت من مبادئ دينية ، باحثة عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، ردّا على الطاعنين فيه ، ثم مُزجت بمبادئ البلاغة والنحو وآراء المتكلمين، وتدرجت بالدراسة والتحليل حتى صارت نظرية متكاملة.

إن نظرية النظم التي أقيم صرحها في التراث العربي تقوم في الأساس على مبدأ العلاقات الرابطة بين الألفاظ ومعانيها ، فالألفاظ قوالب للمعاني التي تنتظم أولا في ذهن المرسل لتستقر منتظمة في ذهن المتلقي مشكلة خطابا منسجما .

الفصل الثالث

معايير الإعجاز عند الباقلاني

ـ مقاربة نصية ـ

أولا : النص والخطاب (تداخل المفاهيم)

ثانيا: منهج الباقلاني في إعجاز القرآن

ثالثا : معايير الإعجاز عند الباقلاني

أولا : النص والخطاب (تداخل المفاهيم)

1 مفهوم النص

حظي مصطلح النص بعناية خاصة من قبل الباحثين ، إذ مثّل نواة الدراسات اللسانية النصية بكونه وحدة كلية متسقة ومنسجمة قابلة للدراسة والتحليل، واختلفت وجهات نظرهم في تحديد مفهومه للتداخل الحاصل بينه وبين مفهوم الخطاب، ويرجع الاختلاف في تحديد مفاهيمهما إلى المرجعيات الفكرية والثقافية لكل باحث ، فلا يكاد يخلو مؤلف في مجال الدراسات النصية من هذين المصطلحين .

1 ـ 1 الاصطلاح اللغوي :

تشير المعاجم العربية إلى أن النص يدل على الرفع والإظهار، فقد ورد في معجم العين:" نصصت الحديث إلى فلان نصا أي رفعته، والمنصة التي تقعد عليها العروس، ونصصت ناقتي رفعتها في السير، و النصنصة: إثبات البعير ركبته في الأرض وتحرّكُه إذا هم بالنهوض، ونصصت الشيء أي حركته، ونصصت الرجل: استقصيت مسألته عن الشيء، يقال نصَّ ما عنده أي استقصاه، ونصُّ كل شيء منتهاه"[1].

وفي لسان العرب : " النص رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا رفعه، وكل ما أظهر فقد نص... يقال نص الحديث إلى فلان أي رفعه، ونصت الظبية جيدها رفعته...

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي :العين ، تحقيق مهدي المخزومي ،إبراهيم السمرائي،ج7،ص87/86.

ونص المتاع نصّا جعل بعضه على بعض... وأصل النص أقصى الشيء وغايته، ثم سمي به ضرب من السير سريع"[1].

تحيلنا المعاني اللغوية للفظة النص إلى عدة دلالات منها : الرفع والإظهار والتحريك والثبات والاستقصاء وغاية الشيء، وكذالك نوع من السير ، وجعلُ المتاع بعضه فوق بعض؛ أي الترتيب .

أما في الاستعمال الحديث للفظة فهو "صيغة الكلام الأصلي التي وردت عن المؤلف "[2] ؛ وهذا المعنى هو الأكثر تداولا للفظة (النص) في الثقافة العربية الحديثة .

1 ـ 2 النص في التراث العربي :

استند العرب قديما في تعريفهم للنص على معانيه المعجمية ، و التي تشير إلى الإظهار، للدلالة على ظهور المعنى وتجليه ، فالنص في عرفهم " يطلق على كل كلام مفهوم المعنى"[3]، وفي السياق ذاته يورد الشريف الجرجاني تعريفا آخر يقول فيه عن

---

[1] ابن منظور : لسان العرب، ضبط وتعليق خالد رشيد القاضي ، دار الأبحاث الجزائر،ج15/14 ، ط 2008 م ، ص154 .

[2] إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) المكتبة الإسلامية للنشر ، ط2، ص926.

[3] أيوب بن موسى الحسيني الكفوي:الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)أعده عدنان درويش ومحمد المضري،مؤسسة الرسالة للنشر ،بيروت (لبنان) ط2 ،1419هـ /1998م ،ص908.

النص أنه : " ما لا يحتمل إلا معنى واحدا ، وقيل ما لا يحتمل التأويل " [1] . وعليه فكل كلام لا يحتمل إلا معنى واحد يكون مفهوما ولا يحتمل التأويل .

رغم عدم شيوع هذا اللفظ في الدراسات اللغوية عند القدماء ، إلا أن المفهوم المركزي للنص في الثقافة الإسلامية هو الوحي[2] ، ومن هذه الزاوية تعددت دلالاته عند المشتغلين بالبحث في مجال الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم والفقه وأصوله ، فتداوله الفقهاء والأصوليون على أنه " كل ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة... لأن ما ورد من صاحب الشرع نصوص، وهذا المعنى هو المراد بالنصوص في قولهم عبارة النص، وإشارة النص، ودلالة النص، واقتضاء النص"[3]، ومن ذلك " قولهم: نص القرآن ونص السنة ، أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام " [4]، و هذا الاستعمال أيضا مستنبط من الدلالة المعجمية له وهي (الظهور).

1 ـ 3 النص في اللسانيات النصية الحديثة

إن محاولة تحديد المفهوم الدقيق للنص في الدراسات اللسانية ليس بالأمر الهين، إذ نجد تداخلا في المفاهيم ؛ فمصطلح النص تتجاذبه عدة اختصاصات مختلفة كالنقد و الأدب و اللسانيات، حيث " يحاول كل اختصاص أن يستأثر بهذا المفهوم

---

[1] علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني :معجم التعريفات ،تحقيق محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة القاهرة، ص203.

[2] ينظر : نصر حامد أبو زيد ، مفهوم النص (دراسة ي علوم القرآن) المركز الثقافي العربي بيروت،ط4، 1998م، ص31.

[3] علي التهانوي : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ،تحقيق علي دحروج ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت (لبنان) ط1996،1م،ج2،ص(1695. 1696).

[4] ابن منظور لسان العرب ج 14 ، ص154.

ويجعل منه حجر الزاوية في مقاربته للموضوع الذي يحلله " [1] ، فيتولد كمٌّ هائل من المفاهيم المختلفة حوله .

تنطلق جلُّ التعريفات في اللسانيات النصية لمفهوم النص من أصل اللفظة في اللاتينية textus التي تعني النسيج [2]، وقد أشار "الأزهر الزناد" إلى أن مصطلح النص في العربية يتوفر على معنى النسيج؛ فهو " نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض "[3]، و حاول أن يربط هذا المفهوم بما تشير إليه دلالته اللغوية في المعاجم العربية القديمة (الظهور)، فيقول:" النص يطلق على ما به يظهر المعنى، أي الشكل الصوتي المسموع من الكلام أو الشكل المرئي منه عندما يترجم إلى المكتوب"[4].

يحاول الأزهر الزناد من خلال تعريفه للنص أن يدمج بين معنى النص في المعاجم العربية وبين ما تشير إليه اللفظة في معناها الأصلي ، فيكون بذلك النص عنده نسيجا مترابطا من الكلمات يظهر من خلاله المعنى ، سواء من ناحيته الصوتية المسموعة أو من الناحية المكتوبة.

تعددت مفاهيم النص بتعدد وجهات نظر الباحثين إليه ، فنجد تعريفات تهتم بالجوانب الشكلية له فقط ، وأخرى تهتم بالمضامين الدلالية ، وأخرى تمزج بين الشكل والمضمون .

---

[1] حسين خمري : نظرية النص ، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ، الجزائر العاصمة ، 1428هـ / 2007م ، ص 35.

[2] ينظر : هاينه من فيهفيجر مدخل إلى علم اللغة النصي ، ترجمة فالح بن شبيب العجمي ، مطابع جامعة الملك سعود 1419هـ /1999م ، المملكة العربية السعودية ، ص 04 .

[3] الأزهر الزناد : نسيج النص ، ص12.

[4] المرجع نفسه ، ص12.

يرى هالداي أن كل متتالية من الجمل تشكل نصا شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات تربط بينها[1]، وهو بذلك يركز على الجانب الشكلي له ، و حسب وجهة نظره فإن النص يمثل كل " فقرة مكتوبة أو منطوقة مهما كان طولها، شريطة أن تكون وحدة متكاملة "[2]، وقد أشار هالداي إلى أنه "يتم استخدام كلمة نص عند اللغويين للإشارة إلى أي مقطع ، منطوقا أو مكتوبا من أي لغة" [3].

وعليه فالنص عنده وحدة كلية متكاملة ذات اتساق بين عناصرها المتتالية، غير محددة بطول معين ، لا فرق بين كونه مكتوبا أو منطوقا .

ومن جهة أخرى يعتمد فانديك في تحديده للنص على نوعين من الأبنية النصية: الأبنية الصغرى ، المتشكلة من تتابع جمل النص على مستوى بنيته السطحية لتحقيق التماسك النصي ، و الأبنية الكبرى للنصوص التي تتحقق على مستوى البنية العميقة حيث يهتم من خلالها بأوجه الربط التي ترتكز على النص بوصفه وحدة كلية، وهي متعلقة بالدلالة العامة له [4] ، وهذا ما جعله يربط بين الشكل والمضمون للوصول إلى الغاية المرجوة من النص .

---

[1] ينظر : محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص13.

[2] أحمد عفيفي ، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ، ص22.

[3] Halliday ,M.A.K and Ruqaya Hassan , Cohesion in English , Longman ,1st pub, Nzw Yourk ,1976 . P 1 .

[4] ينظر : فان ديك، علم النص مدخل متعدد الاختصاصات ،ترجمة سعيد بحيري ، دار القاهرة للكتب (مصر) ط1،2001م، ص74.

إن نظرة فانديك إلى النص من هذا الاتجاه متعلقة في الأساس بالترابط الحاصل بين بنيتين مختلفتين؛ بنية سطحية توجهها وتحفزها بنية دلالية عميقة [1] ، أما البنية السطحية فتتحقق من خلال تتابعات الجمل في النصوص على المستوى الشكلي مؤدية إلى تحقيق التماسك الظاهر، أما البنية العميقة فتتحقق من خلال الانسجام الدلالي وهي متعلقة بمضمون النص ، فتشكل بذلك الترابط شبكة من العلاقات بين الألفاظ ومعانيها في بناء متناسق منسجم [2].

إن هذا الترابط بين الألفاظ ومعانيها لا يكون جليًّا إلا من خلال وضعها ضمن السياق الذي وردت فيه ، والنص " ليس مجرد وحدات متصلة مع بعضها في سلسلة ، وإنما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق، وعلى النص في مجمله أن يتسم بسمات التماسك والترابط "[3] ؛ فالسياق له دور في بيان تماسك النصوص وترابطها .

ويذهب (برينكر) إلى أن النص "مجموعة من الأحداث الكلامية التي تتكون من مرسل للفعل اللغوي ومتلقي له وقناة اتصال بينهما وهدف يتغير بتغير مضمون الرسالة وموقف اتصال اجتماعي ليتحقق فيه التفاعل " [4]، فيكون النص بذلك عنصرا أساسيا في عملية التواصل ، وليس إنتاجا لغويا فحسب ، بل يدخل ذلك الإنتاج ضمن سياق محدد .

---

[1] ينظر : زيتسلاف و أورزنياك ، مدخل إلى علم النص(مشكلات بناء النص)ترجمة سعيد بحيري ،مؤسسة المختار للنشر ،القاهرة ،الطبعة الأولى ،2003م، ص56.

[2] ينظر: بشير إبرير، مفهوم النص في التراث اللساني العربي ،مجلة جامعة دمشق ،المجلد 23،العدد الأول،2007م، ص107.

[3] جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق ،ترجمة عباس صادق الوهاب ،دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد(العراق) الطبعة الأولى ،1987م، ص219.

[4] ينظر سعيد بحيري :علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، ص110.

يقترح برينكر من وجهة نظره تعريفا مدمجا لمصطلح النص ، حاول من خلاله الدمج بين الجانب اللغوي والجانب التواصلي له ، ليتمكن من وصف النص على أنه وحدة لغوية وتواصلية في الوقت نفسه ، باعتباره تتابعا من علامات لغوية متماسكة في ذاتها ، وتشير بوصفها كلا إلى وظيفة تواصلية ، وينظر إلى الجملة على أنها أهم وحدة في بناء النص الذي يتحقق بوصفه تتابعا من الجمل الخاضعة لمبدأ التماسك النصي من جهة ، و مؤدية للوظيفة التواصلية من جهة أخرى [1].

أمّا يوول و براون في كتاب تحليل الخطاب فيقولان :" لقد عرّفنا النص على أنه التسجيل الكلامي لحدث تواصلي " [2] ، معتمدين في هذا التعريف على مبدأ التدوين إضافة إلى كون النص متعلقا بالتواصل .

وأمّا روبرت دي بوجراند فإنه يعرف النص بأنه تشكيلة لغوية ذات معنى تستهدف الاتصال[3] ، و الغاية المرجوة من النصوص تحقيقها للوظيفة التواصلية ، وتحقيقا لهذه الغاية يكون " النص تجلٍّ لعمل إنساني ينوي به شخص أن ينتج نصا ويوجه السامعين به إلى أن يبنوا علاقات من أنواع مختلفة " [4] .

إن بناء العلاقات بين الأشخاص على نحو ما حدده دي بوجراند في ظل تحقيق الوظيفة التواصلية يفرض على النص أن يتصل بموقف يكون فيه؛ تتفاعل فيه مجموعة

---

[1] ينظر : برينكر ، التحليل اللغوي للنص ، ص 27 ، 28

[2] براون ، يول : تحليل الخطاب ، ترجمة محمد لطفي الزليطني ، منير التريكي ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1418هـ / 1997م ، ص 227

[3] ينظر : إلهام أبو غزال ، علي خليل حمد ، روبرت دي بوجراند ، ولفغانغ دريسلر : مدخل إلى علم لغة النص ، مطبعة دار الكتاب نابلس ، ط 1 ، 1413هـ / 1992م ، ص 9

[4] روبيرت دي بوجراند : النص والخطاب والإجراء ، ص 92.

من المرتكزات والتوقعات والمعارف ، وهذه البيئة الشاسعة تسمى سياق الموقف ، أما التركيب الداخلي للنص فهو سياق البنية [1]، و من خلال الدمج بين سياق الموقف وسياق البنية ، ينطلق دي بوجراند ليحدد معاييرا تتحقق بها نصية النصوص وهي : السبك ، الالتحام، القصد، القبول، رعاية الموقف، التناص ، الإعلامية [2].

من خلال عرض هذه المفاهيم نجد أن تعريفات النص تتمحور حول ثلاثة مستويات:

1 المستوى الشكلي : يرى أصحاب هذا الاتجاه أن النص إنتاج لغوي مترابط ومتماسك من الناحية الشكلية ، ومن هذه الزاوية ينطلق أحمد المتوكل في تعريفه للنص بقوله : " أما مصطلح النص فقد أطلق على الإنتاج اللغوي الذي يتعدى الجملة باعتباره سلسلة من الجمل يضبطها مبدآن : مبدأ الوحدة ومبدأ الاتساق " [3]، وفي ذات السياق تذهب خولة طالب الإبراهيمي إلى أن " النص منتوج مترابط متسق ومنسجم وليس تتابعا عشوائيا لألفاظ وجمل "[4]، وعليه تكون العناصر المميزة للنص من هذه الوجهة هي الاتساق والانسجام.

2 المستوى الدلالي : يتحدد النص من خلال هذا المستوى باعتماده على العلاقات الرابطة بين البنية السطحية والبنية الدلالية العميقة ، وعلى هذا النهج يستقي الباحث سعيد

---

[1] ينظر : روبيرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ص 91 .

[2] ينظر : المرجع نفسه ، ص103 ، 105 .

[3] أحمد المتوكل : الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1431هـ/ 2010م ص 22 .

[4] خولة طالب الإبراهيمي : مبادئ في اللسانيات ، ص169.

بحيري تعريفه للنص من المفهوم الذي قدمه (فان ديك) انطلاقا من البنية الكبرى والبنيات الصغرى.

يعرض سعيد حسن بحيري مفهوم النص عند فان ديك على أنه " وحدة كبرى شاملة لا تتضمنها وحدة أكبر منها، وهذه الوحدة الكبرى تتشكل من أجزاء مختلفة تقع من الناحية النحوية على مستوى أفقي ومن الناحية الدلالية على مستوى رأسي، يتكون المستوى الأول من وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية، ويتكون المستوى الثاني من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالي المنطقية "[1] ، وقد أخذ بهذا المفهوم أيضا الباحث نعمان بوقرة في كتابه مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب[2] .

3 المستوى التداولي : اعتبار النص حدثا تواصليا متعلقا بسياق تداولي محدد، وهذا ما ذهب إليه (روبرت دي بوجراند) في كتابه (النص والخطاب والإجراء) ، وأكد أن " الصفة المميزة للنص هي استعماله في الاتصال" [3] ، ويمثل " وحدة كلامية مخصصة لأغراض الاتصال من خلال التفاعل بين مستويات مختلفة في البيئتين الداخلية والخارجية"[4].

وقد استند على ما أورده دي بوجراند في مفهومه للنص بعض الدارسين العرب في أبحاثهم أمثال: صبحي إبراهيم الفقي، إلهام أبو غزالة، سعد مصلوح، حسام أحمد فرج.

---

[1] سعيد حسن بحيري :علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ،ص119.

[2] ينظر : نعمان بوقرة ، مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب ،عالم الكتب الحديث ، إربد (الأردن) ط1 ،2008م، ص56.

[3] روبيرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء ، ص 6

[4] يوسف نور عوض ، علم النص ونظرية الترجمة ، دار الثقة للنشر والتوزيع ،مكة المكرمة (السعودية) الطبعة الأولى ،1410هـ، ص12.

و هذا المخطط يبين مستويات النص انطلاقا من المفاهيم التي عرضناها سالفا :

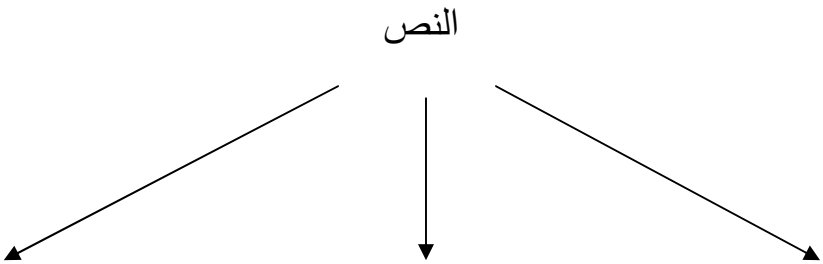

المستوى الشكلي	المستوى الدلالي	المستوى التداولي
منتوج مترابط متسق ومنسجم	بنية دلالية عميقة مرتبطة ببنية سطحية	حدث تواصلي

إن مفهوم النص يتغير بتغير المنطلقات الفكرية و المرجعيات المعرفية عند كل باحث ، سواء في بيئته الأم أو عند تلقيه في الثقافة العربية الحديثة، ومع ذلك نجد أن معظم مفاهيمه رغم تباينها ترتكز على المستويات الثلاثة المحددة .

معايير النصية(textualité):

تشير جلّ الدراسات إلى أن مفهوم النصية يتمحور حول ما اقترحه (روبرت دي بوجراند) من معايير تمنح للنص صفة النصية ، وتنظر إليه على أنه "حدث اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير "[1]، وحددها في كتابه (النص والخطاب والإجراء) قائلا:" وأنا اقترح المعايير التالية لجعل النصية أساسا مشروعا لإيجاد النصوص واستعمالها " [2]، وهي :

1 السبك (الاتساق)

2 الالتحام(الحبك / الانسجام)

3 القصد (القصدية)

4 القبول (المقبولية)

5 رعاية الموقف (المقامية)

6 التناص

7 الإعلامية .

[1] سعيد بحيري :علم لغة النص المفاهيم الاتجاهات ، ص 146.

[2] روبيرت دي بوجراند : النص والخطاب و الإجراء ، ترجمة تمام حسان ، ص 103 .

صنف سعد مصلوح هذه المعايير حسب علاقتها بالنص ومنتجيه والسياق المحيط به إلى ثلاثة أصناف[1] :

ـ ما يتصل بالنص في ذاته ، وهما معيارا السبك(الاتساق) والحبك (الانسجام) .

ـ ما يتصل بمستعملي النص ، سواء أكان المستعمل منتجا أو متلقيا ، وهما معيارا : القصد والقبول .

ـ ما يتصل بالسياق المادي والثقافي المحيط بالنص وهي معايير : الإعلامية و المقامية و التناص .

إن أبرز المعايير النصية التي يتحقق من خلالها التماسك النصي هما معياري الاتساق والانسجام ، أما بقية المعايير فإنها مكملة لهما لأنها متعلقة بما يحيط بالنص .

أما الاتساق فإنه يتحدد بتلك " الوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص " [2] ، ويهتم بالأدوات اللغوية التي يتماسك بها النص من الناحية الشكلية ، مما يضمن ترابط أجزائه ، والكشف عن العلاقات الرابطة بين كلماته وجمله ومقاطعه ، حيث يبحث المحلل ضمن نصه عن تلك الأدوات الشكلية .

و إذا كان معيار الاتساق متعلقا بالبحث عن الوسائل الشكلية التي تحقق الترابط على سطح النص ، فإن الانسجام يتجه إلى استكشاف الروابط الخفية بين أجزاء النص ،

---

[1] ينظر : سعد مصلوح ، نحو أجرمية للنص الشعري ، ص 154.

[2] المرجع نفسه ، ص 154.

ويتعلق بالبنية العميقة له ، فيكشف عن الاستمرارية المتحققة في عالم النص[1] ، مبرزا العلاقات الدلالية التي تضمن انسجام موضوع النص .

2 مفهوم الخطاب Discours

2 ـ 1 في المعاجم اللغوية :

إن الباحث في المعاجم العربية عن معاني لفظة الخطاب يجد تزاحما في دلالته المتقاربة، فقد ورد بعدة معاني منها ما جاء في لسان العرب: " الخطب : الشأن والأمر، صغر أو عظم ، وقيل هو سبب الأمر ، يقال : ما خطبك ؟ أي ما أمرك ؟ والخطب : الأمر الذي تقع فيه المخاطبة والشأن والحال. وفي التنزيل: ((قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿57﴾)) **الحجر** . والخطاب والمخاطبة : مراجعة الكلام ، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا ، وهما يتخاطبان"[2] .

و في أساس البلاغة: " خطب : خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام ، وخطب الخطيب خطبة حسنة " [3] .

وأما في معجم مقاييس اللغة فيرى ابن فارس أن : " الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين ، يقال خاطبه يخاطبه خطابا ، والخطبة من ذلك ، وفي النكاح

---

[1] ينظر : المرجع السابق ، ص 154.

[2] ابن منظور : لسان العرب ، تحقيق : عبد الله علي عبد الكبير محمد أحمد حسن الله ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، مادة خطب ، ص 1194.

[3] أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت 538هـ) : أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت (لبنان) الجزء الأول ، مادة خطب ، ص 255.

الطالب أن يزوج ، قال الله تعالى : ((وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ)) البقرة 235. والخطبة : الكلام المخطوب به. يقال اختطب القوم فلانا : إذا دعوه إلى تزوج صاحبتهم. والخطب : الأمر يقع ، وإنما سمي بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة " [1] .

إن المتأمل في الدلالات اللغوية للفظ الخطاب الواردة في المعاجم العربية يلتمس أنها متقاربة و تتمحور حول تبادل الكلام بين طرفين في موقف يجمعهما ، وذلك ما بينه أحمد بن فارس بقوله عن الخطاب بأنه: " الكلام بين اثنين ، يقال خاطبه يخاطبه خطابا"[2] ، وكذلك ما ذهب إليه ابن منظور و الزمخشري بأنه مراجعة الكلام والمواجهة به . فدل هذا على أن الخطاب طريقة في تبادل الكلام وجها لوجه ، أو توجيهه بطريقة مؤثرة في المخاطَب .

و ذلك ما يستوجب شروطا لتحقق الخطاب هي :

ـ أطراف الخطاب (المخاطِب والمخاطَب).

ـ الموقف الذي يجمع الطرفين وتتحقق به المواجهة المباشرة .

ـ الخطاب في ذاته ، أو ما سماه أصحاب المعاجم بالكلام الموجه من طرف لآخر ، وهذا يتضمن أيضا الوسيلة المستعملة للخطاب وهي اللغة .

---

[1] أحمد بن فارس : مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة اتحاد الكتاب العرب 1423هـ / 2002م ، الجزء الثالث ، ص 206.

[2] المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 206

2 ـ 2 الخطاب في التراث العربي :

ارتبط لفظ الخطاب في التراث العربي بمعناه اللغوي الوارد في المعاجم ارتباطا وثيقا حيث يشير تعريفه إلى أنه متعلق بالكلام .

أورد الكفوي في كتابه(الكليات) أن : " الخطاب : هو الكلام الذي يقصد به الإفهام "[1] ، وعبر عنه بلفظ آخر أنه :" اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه "[2]، وقدم تفصيلا لهذا التحديد ، فدلّ ذلك على أن قوله (اللفظ) يخرج منه الحركات والإشارات ، و (المتواضع عليه) المصطلح عليها أو المستعملة فتخرج منه الألفاظ المهملة وغير المستعملة ، و(المقصود به الإفهام) دلالة على أن كل كلام لم يقصد منه إفهام المستمع لا يسمى خطابا ، أما (المتهيئ لفهمه) فدلالة على أنه لا يشمل المستمع غير الخاضع لسياق الكلام المقصود وأن يكون الكلام الموجه مباشرا في المقام المحدد[3].

وبهذا يكون الكفوي " وضع الحدود كاملة لعناصر الخطاب ، والشروط اللازمة لكل عنصر من عناصرها الثلاثة التي نص عليها تعريفه ، فالمخاطِب يتحتم عليه توفير قصد

---

[1] أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)أعده عدنان درويش ومحمد المضري، مؤسسة الرسالة للنشر،بيروت (لبنان) ط2، 1419 هـ /1998م .ص 419 .

[2] المصدر نفسه ص 419 .

[3] ينظر: المصدر نفسه ، ص 149 .

الإفهام لديه وإيصال الرسالة ، والخطاب يجب أن يكون مما تواضع عليه الناس ، وأما المخاطَب أو المستمع فلابد من أن يكون متهيئا للفهم مستجيبا للخطاب وصاحبه " [1] .

يتبين لنا أنه لا يكون الخطاب إلا بين متكلم ومستمع في سياق جامع بينهما ، فتتحقق العناصر الأساسية لعملية التواصل (مرسل ، متلقي ، رسالة، سياق) .

بعد ما فصل الكفوي الحديث في تعريف الخطاب ، يتساءل : هل كلام الله يسمى في الأزل خطابا قبل وجود المخاطبين ؟ ويبين أن الكلام الذي يقصد به الإفهام سمي في الأزل خطابا لأنه يقصد به الإفهام في الجملة [2].

وقد أشار في سياق آخر أن " فصل الخطاب هو تلخيص الكلام بحيث لا يشتبه على السامع ما أريد به " [3] ، وأكد ما ذهب إليه في قضية إفهام المتلقي واستيعابه لمضمون الخطاب، فالدلالة الواضحة من ذلك هي إزالة الإبهام بين المخاطب والمخاطب في موضوع الخطاب .

2 ـ 3 الخطاب في الدراسات اللسانية النصية المعاصرة :

عرف مصطلح الخطاب رواجا كبيرا بين الدارسين المهتمين بلسانيات النص ، وشغل حيزا واسعا في أبحاثهم ، ومع ذلك يبقى من المصطلحات التي مازالت حولها ضبابية الرؤية المفهومية ، فلم يزل الباحثون في جدال لتحديد مفهوم جامع له ، مما أدى إلى

---

[1] لطفي فكرى محمد الجودى : جمالية الخطاب في النص القرآني ،قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية وآليات التكوين ، مؤسسة المختار للنشر ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى 1435هـ / 2014 م، ص76 .

[2] ينظر : أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ص 419 .

[3] المصدر نفسه ص 686 .

تنوع كبير واختلاف في تعريفاتهم من زوايا متعددة ، أو من خلال مقابلته بمفاهيم أخرى كالنص و الجملة و الملفوظ، أو من خلال كونه منجزا لسانيا متعلقا بالمستوى التداولي للنصوص .

تنطلق الدراسات اللسانية للخطاب من أحد مفهومين :

الأول : أنه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير ، بإفهامه قصدا معينا .

الآخر : الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة[1].

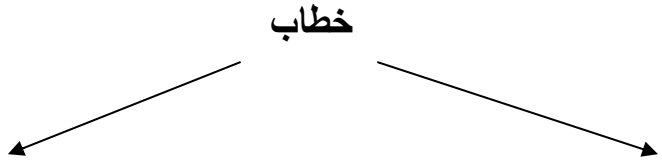

تشير الدراسات اللسانية الحديثة إلى أن (هاريس) هو أول لساني يجعل الخطاب موضوعا للدرس اللساني عندما قدم منهجا لتحليل الخطاب المترابط ، واهتم بتوزيع العناصر اللغوية في النصوص ، والروابط بن النص وسياقه الاجتماعي [2]، ثم توالت الدراسات المهتمة بالخطاب كموضوع للبحث النصي .

---

[1] ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى 2004م ، ص 37 .

[2] ينظر : نعمان بوقرة ، الخطاب والنظرية والإجراء ، دار جامعة الملك سعود ، المملكة العربية السعودية ، ص 6

تنطلق تعريفات اللسانيين للخطاب من مبادئ ثلاثة ، ترد على شكل تقابلات ، وقد حدد دومينيك مانغونو مفهومه استنادا إلى سلسلة من التقابلات الواردة على شكل ثنائيات لغوية : خطاب / جملة Discours / phrase، خطاب / ملفوظ Discours /énoncé، خطاب / نص Discours / langue [1].

من خلال هذه التقابلات قدم (مانغونو) مقاربة لمفهوم الخطاب يبرزها المخطط التالي :

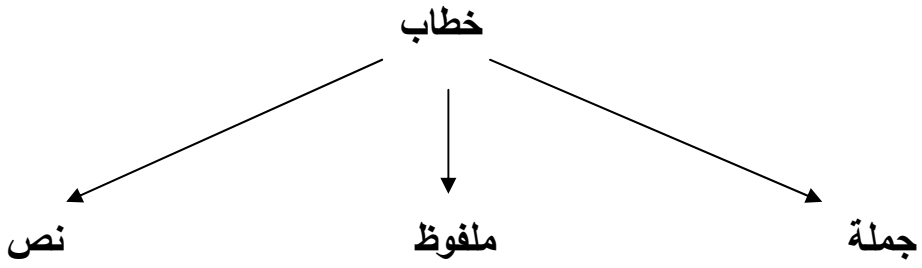

خطاب / جملة : " الخطاب يتكون من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل "[2].

يستند هذا التعريف على بيان علاقات الجمل بعضها ببعض بكونها العناصر الأولية التي يتألف منها الخطاب ، مما يجعله " يتأسس في جوهره على بعض أشكال الانسجام التي تسمح بتأويل الجمل المكونة له ضمن علاقاتها البينية "[3].

---

[1] Dominique Maingueneau : Les termes clés de l'analyse de discours , seuil ,Février , Paris 1996,P 81 .

[2] دومينيك مانغونو : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد يحياتن ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى 1428هـ / 2008م ، ص 38.

[3] ماري نوال ، غاري بريوي ، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ،ترجمة عبد القادر فهيم الشيباني ، الطبعة الأولى ، سيدي بلعباس ، الجزائر ، 2007م ، ص 50 .

خطاب / ملفوظ : " الخطاب يشكل وحدة اتصال مرتبطة بظروف إنتاج معينة "[1].

يرتكز هذا التعريف على ركيزتين أساسيتين هما : كون الخطاب ملفوظا والثانية أنه متعلق بظروف إنتاجه ، وهذا ما بينه أحمد المتوكل في تعريفه للخطاب إذ يقول :" يعد خطابا كل ملفوظ / مكتوب؛ يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات " [2]. و يستفاد مما قدمه المتوكل أن الخطاب يجب أن يشكل مادة للتواصل بين طرفين ولا يخرجه عن هذا التحديد طبيعة مادته سواء كانت شفهية أو مكتوبة ولا يتقيد بحجم محدد ، وفي هذا السياق يذهب (إيميل بنفنيست) إلى أنه يجب فهم الخطاب بأوسع معانيه باعتبار أن كل تلفظ يفترض متحدثا ومستمعا[3] ، فلا يخرج ذلك عن السياق الذي يجمعهما ، والأمر ذاته أكد عليه (فان ديك)عند حديثه عن بنية السياق ، حيث "يفترض أنه في الموقف التواصلي يوجد على الأقل شخصين ، أحدهما وكيل حقيقي والآخر وكيل محتمل ، أي المتحدث والمستمع ، على التوالي ، كلاهما ينتميان على الأقل إلى مجموعة لغوية ، أي مجموعة من الأشخاص لديهم نفس اللغة ، وتجمعهم ظروف ذات صلة بالتواصل " [4].

خطاب/ نص :" ينظر إلى الخطاب من حيث هو ارتباط النص بسياقه "[5].

---

[1] دومينيك مانغونو : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ص 38 .

[2] أحمد المتوكل : الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1431هـ/ 2010م ، ص 24

[3] Emil Benveniste , Problèmes de linguistique générale ,T 1 ,Edi Gallimard Paris ,1966 ,P 240/ 241

[4] Van Dijk . T.A. Text and Context (Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse) ,Longman ,London, 1977, P 191.

[5] دومينيك مانغونو : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ص 40 .

تعتمد أغلب الدراسات النصية في تحديدها لمفهوم الخطاب على ثنائية (خطاب/ نص) " باعتبار أن النص سلسلة جملية مجردة معزولة عن ظروف إنتاجها"[1]، ليكون الخطاب في المقابل يعبر عن ارتباط النص بظروف إنتاجه .

ومن بين التعريفات المؤسسة على تحديد العلاقة القائمة بين النص والخطاب أن " النص وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصلي " [2] ، ولا يتحقق هذا الخطاب كإنجاز فعلي للنص إلا من خلال وروده في مقام يضبطه فيشكل منه " وحدة تواصلية تبليغية ناتجة عن مخاطِب معين موجهة إلى مخاطَب معين في مقام وسياق معينين يدرس ضمن ما يسمى بلسانيات الخطاب " [3]، وقد أكد (يول و براون) في كتابهما تحليل الخطاب على دور السياق في عملية فهم مقاصد الخطاب مبينا أن "محلل الخطاب يعالج بياناته على أنها سجل (نص) لعملية ديناميكية في أي لغة تم استخدامها كأداة اتصال في سياق من قبل المتكلم / الكاتب للتعبير عن المعاني وتحقيق مقاصد الخطاب"[4] ، و ذلك فالسياق هو العنصر الذي يحول النص إلى خطاب عن طريق تحقيقه كفعل تواصلي لتبليغ المعنى إلى المتلقي .

من خلال هذا المقاربة لمفهوم الخطاب ، يمكن القول انطلاقا من الثنائية الأولى أن الباحث سيتجه في بحثه صوب استكشاف علاقات وحداته بعضها ببعض من ناحية

---

[1] أحمد المتوكل : الخطاب وخصائص اللغة العربية ، ص 22 .

[2] خلود العموشي: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، الطبعة الأولى 1429هـ/ 2008م ،ص 24

[3] نعمان بوقرة الخطاب والنظرية والإجراء ، دار جامعة الملك سعود ، المملكة العربية السعودية ص 22

[4] Brown Gillian and George Yule , Discourse Analysis, Cambridge University Press London (1983) ,P 26

ترابطها وانسجامها ومناسبة بعضها للآخر. أما الثنائية الثانية فتجعل من الخطاب عنصرا أساسيا في عملية التواصل.

وإذا ربطنا الخطاب بالنص من ناحية سياقه في الثنائية الثالثة ، فإن الدارس لا يكتفي بالبحث عن تلك العلاقات الرابطة بين عناصر الخطاب ، بل يتعدى الأمر ذلك إلى أولوية الاعتناء بكونه منجزا في سياق معين يساهم في إنتاجه وتأويله من خلال العلاقة بين أطراف الخطاب من أجل تحقيق مقاصده . والظاهر أن الثنائيتين الثانية الثالثة متداخلتان بكونهما تحددان الخطاب من الزاوية نفسها ، باعتباره متعلقا بالسياق والتواصل .

وإذا كان الخطاب مقترنا بالسياق فإنه يحيلنا إلى عملية تلقي وتأويل النص ، فيشكل الخطاب على هذا الأساس" مجموع المعاني النصية المفهومة والمؤولة ، المعبر عنها بوسائل أسلوبية وبلاغية سمحت بتحققه إنجازا وتلقيا "[1]، فالخطاب لا يتحدد ببنية النص فقط ، بل يمتد الأمر إلى منتج الخطاب ومتلقيه وظروف تكوينه، مما يسمح بتحقق الإبلاغ والفهم وتأويل مقاصد المرسل، فيكون شاملا للنص وخاضعا لسياق الإنتاج والتلقي لتحقيق عملية التواصل .

قدم فان ديك في كتابه (النص والسياق) المسلمة الكبرى التي يتأسس عليها البحث اللساني المتمثلة في تجاوز الجملة إلى النص واتخاذه موضوعا للدراسات اللسانية كما أضاف عنصرا آخر في دراسته ، وهو ربط النص بالمستوى التداولي ، حيث ينظر إلى الخطاب من زاوية تداولية ، وأشار إلى أن مصطلح النص " إنما استعمل هنا ليفيد

[1] محمد بازي ، صناعة الخطاب ـ الأنساق العميقة للتأويلية العربية ، دار كنوز المعرفة للنشر ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م ، ص 27

الصياغة النظرية المجردة المتضمنة لما يسمى عادة الخطاب " [1] كما بين أن " البنية الخاصة بالنص قد تصبح خطابا مقبولا في اللغة " [2] ، ولذلك إذا كان " الاهتمام ببنية النص بربطه بظروف إنتاجه ، يعني أن تنظر إليه كخطاب "[3] .

فالخطاب لا يتحقق إلا من خلال ربط النص بسياقه التداولي ، وقد سعى في نظريته إلى تجاوز الجمل للوصول إلى وحدة الخطاب كإنجاز فعلي للنص تتحقق فيه العلاقة بين النص والسياق التداولي له .

ولقد أفرز هذا التعدد تداخلا مفهوميا بين النص والخطاب ،" فالنص في هذه الدراسات ، هو مجمل القوالب الشكلية : النحوية والصرفية والصوتية ، بغض النظر عما يكتنفه من ظروف أو ما يتضمنه من مقاصد ، في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي ، وكذلك في تأويله ، مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه " [4] .

إن المتفحص لما ورد في هذه التعريفات المتعلقة بالخطاب يجد أن غالبيتها تشترك في عنصر أساسي وهو كون الخطاب يتعلق بعملية التواصل وما تقتضيه من شروط لتحقيقها ، وأنها تركز على التبليغ وإفهام القصد بين المخاطب والمخاطب كغاية من هذا التواصل ، وما يميز الخطاب عن النص هو كون الخطاب إنجازا للنص ضمن سياق

---

[1] فان ديك : النص والسياق ، استقصاء البحث الخطاب الدلالي والتداولي ، ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2000م ، ص 19 .

[2] المرجع نفسه ص 19 .

[3] جورج إليا صرفاتي ، عناصر لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد ساري ، دار التنوير الجزائر ، الطبعة الأولى ، 2013م ، ص 12 .

[4] عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، ص 39 .

معين والوسيلة التي ينجز بها هي اللغة . وبذلك يتبين أن المعاني اللغوية للفظ الخطاب في الثقافة العربية أقرب إلى المعنى الاصطلاحي له . ذلك أنها متعلقة بتحديد عناصر الخطاب والتفاعل بين المشاركين فيه ضمن سياق اجتماعي أو ثقافي يربط بينهم ، وأن لها غاية محددة .

فالخطاب عملية تواصل تبليغية تهدف إلى إفهام القصد وتخضع لسياق تداولي معين بين المرسل والمتلقي ، ولكي تتم العملية التخاطبية يستوجب تحقق عناصرها :

1 أطراف الخطاب : المرسل والمتلقي

2 الخطاب أو الرسالة

3 سياق الخطاب .

4 وسيلة الخطاب (اللغة) .

3 العلاقة بين النص والخطاب:

يتبين لنا من خلال هذا العرض الموجز أن مفهوم الخطاب يتداخل مع مفهوم النص، و يتضح أن هناك علاقات تربط بينهما، هذه العلاقة تكون جلية من خلال ما قدمه الدارسون من تعريفات لهما ، وفي هذا المقام يمكن أن نميز هذه العلاقات كالتالي :

أولا ـ علاقة ترادف : لا فرق بين النص والخطاب ، وهما مترادفان ، وذلك ما نجده عند محمد خطابي ، فالملاحظ على كتاباته أنه يلجأ إلى استعمال خط مائل للفصل بين ثنائية (نص/ خطاب) للدلالة على أنهما يدلان على معنى واحد ، وذلك ما استعمله نعمان بوقرة أيضا في كتاباته .

ثانيا ـ علاقة الكتابية و الشفهية : تعتبر أن الخطاب هو الجانب المنطوق لما هو مكتوب (نص). فالنص من هذه الزاوية هو كل خطاب تثبته الكتابة [1].

ثالثا ـ علاقة الإنجاز : يعتبر الخطاب من خلال هذه العلاقة كإنجاز فعلي للنص من خلال ارتباطه بسياق معين ، مما يجعله رسالة بين طرفين؛ القصد منها هي الإفهام والتبليغ ، أو بعبارة أكثر وضوحا ما ذكره شوقي البوعناني :" أن الخطاب هو نص في طور الاستعمال "[2]. و أكد عبد الرحمان بودرع أن الخطاب " يلابس خصائص غير لغوية ، دلالية، تداولية وسياقية ، ويندرج في حيز الإنجاز أكثر من اندراجه في حيّز القدرة اللغوية" [3].

ومهما كانت هذه العلاقة أو تلك ، فإن النص والخطاب مصطلحان متداخلان مفهوميا يصعب الفصل بينهما بشكل أو بآخر، مع أنهما يشتركان في العديد من الخصائص منها :

ـ تجاوز حدود الجملة من الناحية الشكلية ، وعدم التقيد بحجم معين .

ـ ويتأكد أنهما قائمان على خاصية الانسجام .

ـ ويخضع فهمهما لما يسمى سياق الموقف من أجل إنجاز عملية التأويل.

---

[1] ينظر : بول ريكور : من النص إلى الفعل (أبحاث التأويل) ، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية ، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى 2001م ، ص 105 .

[2] شوقي البوعناني ، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع ، الرباط / المملكة المغربية ، بيروت / لبنان الطبعة الأولى 2018م ، ص 21 .

[3] عبد الرحمان بودرع ، في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم ، ص 17 .

ـ يتعلق كل من النص والخطاب بعنصر التبليغ بين المرسل والمتلقي ، وبذلك يشكلان عنصرا مهما في عملية التواصل .

ثانيا : منهج الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن)

1 الغاية من تأليف " إعجاز القرآن " :

عاش الباقلاني في عصر كثر فيه التهجم على القرآن الكريم والطعن فيه من ناحية نظمه وترابطه وانسجامه ، فأكثر الطاعنون من زرع الشبهات حوله ، وقد تصدى لمثل هذه الهجمات الشرسة فألف " إعجاز القرآن " للرد على الطاعنين في انسجام القرآن وترابطه، ولذلك كانت الغاية من الدراسة هي العودة إلى التراث العربي للبحث عن بعض ملامح الدراسات النصية فيه ، ثم البحث في فكر الباقلاني من خلال كتابه إعجاز القرآن عن الآليات التي ينسجم بها الخطاب عموما والخطاب القرآني على الخصوص من خلال آلية النظم التي عرضها وكانت محور تأليفه .

(إعجاز القرآن) كتاب يبحث في بلاغة القرآن الكريم ووجوه إعجازه ، اعتمد فيه المؤلف على أسلوب علماء الكلام وطرقهم في الجدال في معالجة القضايا المتعلقة بالإعجاز من جهة، وقضايا نقد الشعر من جهة ثانية ، فهو " يجمع إلى روحه الكلامية، طابعا أدبيا ، إذ لم يقتصر في الإعجاز على دراسته من الوجهة الكلامية بل تعرض للناحية البيانية الأسلوبية " [1] فجاء مزيجا بين قضايا عقائدية مستنبطة من المذهب الأشعري في قضية الإعجاز ، وقضايا أدبية نقدية في تحليله للشعر والأجناس الأدبية الأخرى التي عرضها موازاة مع القصائد .

[1] محمد سلام زغلول ، أثر القرآن الكريم في تطور النقد ، ص 267.

بيّن الباقلاني من خلال كتابه (إعجاز القرآن) : أن أهم ما يجب كشفه و أول ما يلزم بحثه هو ما كان أصلا للدين القويم ، وهو القرآن الكريم ، لما تعرض له من طرف الملحدين من طعن وتشكيك فيه ، فكثر أعداؤه ، وقل أنصاره .

يقول الباقلاني مصنفا تعامل الناس مع القرآن في عصره إلى صنفين : " فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ، ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود في صنعته ، فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين . وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين ، فقد قلّ أنصاره ، و اشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهله ، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه ، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره " [1] ، حتى أنهم عادلوه بغيره من الكلام .

يرى الباقلاني أن الحاجة إلى الرّد على الطاعنين في القرآن الكريم أمسّ ، والاشتغال به أوجب من غيره من التصانيف ، فهو يهدف من وراء كتابه إلى الإبانة عن وجه معجزته ، وردّ الكائدين الذين طعنوا في وجوه إعجازه ، فقالوا أن الله صرف القوم على معارضته ، ولولا صرفهم عنه لأتوا بمثله ، وأنكروا أن يكون الإعجاز داخل الخطاب القرآني ذاته ، فبين ذلك قائلا :" نذكر جملة من القول جامعة ، تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرج للجهال ، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة " [2].

ثم بيّن أنه لم يكن السابق إلى ذلك فقال:" ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرها ونشير إليه ، ولا نبسط القول لئلا يكون ما ألّفناه مكررا ، بل يكون مستفادا من جهة هذا

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 52 .

[2] المصدر نفسه ، ص 53 .

الكتاب خاصة ، ونضيف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه الكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة "[1] .

اعتمد الباقلاني لتحقيق هذه الغاية على أسلوب ممنهج بيّن فيه أقسام الخطاب ، وترتيب وجوه الكلام حسب ما تقتضيه طرق البلاغة وسبل البراعة ، ليكون ذلك أساسا يعتمده لبيان أن القرآن الكريم أرقى تلك الخطابات التي ذكر أقسامها ، من شعر وخطب ورسائل ، ثم يوازن بينها وبينه ليعرف وجوه تفرد القرآن الكريم عن غيره من الخطابات العربية ووجه إعجازه .

بعدما ميّز الباقلاني بين مراتب مستعملي العربية ، بين المتناهي في معرفتها والمتوسط والناقص ، ذهب إلى بيان أن كتابه " إعجاز القرآن " يمهّد السبيل للذي يريد الاقتراب من معرفة إعجاز القرآن .

قال معلقا على الصنف الثاني من المتكلمين بالعربية :" فإن أراد أن يقرب عليه أمرا ، ويفسح له طريقا ويفتح له بابًا ، ليعرف به إعجاز القرآن فإنا نضع بين يديه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب ، ونصور له صورة كل قبيل من النظم والنثر ، ونحضر له من كل فن من القول شيئا يتأمله حقّ تأمله ، ويراعيه حق مراعاته ، فيستدل استدلال العالم ، ويستدرك استدراك الناقد ، ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية ، الطالع عن الإلهية ، الجامع بين الحكم والحكم والإخبار عن الغيوب والغائبات ، والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب لجلية اليقين ، والمعاني المخترعة في تأسيس

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 54.

أصل الشريعة وفروعها ، بالألفاظ الشريفة على تفننها وتصرفها ، ونعمد إلى شيء من الشعر المجمع عليه فنبيّن وجه النقص فيه ، حتى تأمل ذلك ، وتأمل ما نذكره ، من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته ، انكشف له واتضح ، وثبت ما وصفناه لديه ، ووضح ، وليعرف حدود البلاغة ، ومواقع البيان والبراعة ، ووجه التقدم في الفصاحة"[1] .

أكد الباقلاني أنه لا يمكن معرفة ما يتميز به القرآن الكريم إلا بموازنة نظمه بغيره من كلام العرب بداية بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليتبين الفرق بين نظم القرآن ونظم كلام النبي ، فقال :" والذي يصور عندك ما ضمّنا تصويره ، ويحصل عندك معرفته إذا كنت في صنعة الأدب متوسطا ، وفي علم العربية متبيّنا ، أن تنظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين ، فإن تبين لك الفصل ، ووقعت على جلية الأمر ، وحقيقة الفرق ، فقد أدركت الغرض ، وصادفت المقصد "[2].

هذا ما يبتغي الباقلاني بيانه من وراء كتابه ؛ حيث بيّن أن منهج المقارنة الذي اعتمده بين نظم القرآن الكريم وغيره من نظم كلام العرب هو الطريق الأمثل لإدراك التباين بين النظمين ، فيتضح من خلاله ما للقرآن الكريم من ميزات يفوق بها غيره من الكلام البشري ، سواء كان كلاما للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو كلاما لأبلغ الخطباء والشعراء في عصره وقبله وبعده .

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 177 .

[2] المصدر نفسه ص 178 .

2 مضمون الكتاب ونماذج من القضايا التي ناقشها الباقلاني:

مهّد الباقلاني لكتابه بالحديث عن غايته من هذا المؤلف ، بعد أن أشار إلى خوض الملحدين في أصول الدين وتشكيكهم في إعجاز القرآن الكريم وفي انسجامه وتماسكه وقد أنزل مفرقا ، ثم بيّن منهجه في الرد عليهم والانتصار للقرآن الكريم بالاعتماد على طريقة الموازنة بين القرآن الكريم وبين أصناف الخطابات العربية .

ثم أردف ذلك ببيان أن حجة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن ، ودعا إلى واجب الاهتمام بالبحث عن وجوه إعجازه ، وأوضح الفرق بين القرآن الكريم وغيره من الكتب المنزلة مبينا "أن نظمها ليس معجزا ، وإن كان ما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزا ، وليس كذلك القرآن ، لأنه يشاركها في هذه الدلالة ، ويزيد عليها في أن نظمه معجز "[1].

ثم انتقل إلى تفصيل الدلالة في أن القرآن معجز ، وبيّن أن ما يدل على ذلك كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله ، وأنه تحدّاهم إليه فلم يستطيعوا رغم طول التحدي ، و لو كان بمقدورهم فعل ذلك لما تردّدوا لحظة ، وما ادّخروا في ذلك جهدا ، حفاظا على ماء وجوههم وكرامتهم أمام القبائل ، وقد كانوا أرباب الفصاحة والبيان .

ثم بيّن حقيقة الإعجاز في أنه متعلق بالنظم ، وأن معرفته تختلف بين اثنين : عارف بأساليب الكلام ووجوه الخطاب عند العرب ، فيصل إلى معرفة إعجاز القرآن الكريم سجية وطبعا، لأنه من أهل الصنعة كما وصفه ، أما الثاني فيصل إلى معرفة

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 62.

الإعجاز استدلالا لأنه ليس من أهل الصنعة في العربية ، كما أشار إلى أصحاب القول بالصرفة ورد عليهم بالدليل والبرهان.

2 ـ 1 بيان جملة وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاني :

تحدّث الباقلاني عن جملة وجوه إعجاز القرآن ، وبيّن أنها في ثلاثة وجوه :

ـــ **الوجه الأول** : " يتضمن الأخبار عن الغيوب ، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه "[1].

ـــ **الوجه الثاني** : " أنه كان معلوما من حال النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أميّا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ، ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه " [2] ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز لمن قال بذكر قصص الأولين وأنباء الأمم السابقة .

الوجه الثالث : وهو الأمر الذي تبناه الباقلاني في مؤلفه ودافع عنه بالحجة والدليل وفصل فيه القول تفصيلا ؛ وهو نظم القرآن الكريم ، حيث بين أن وجه الإعجاز فيه من الناحية البلاغية هو كونه " بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه " [3].

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص83 .

[2] المصدر نفسه ص 85 .

[3] المصدر نفسه ص 86 .

2 ـ 2 تفصيل وجوه إعجاز القرآن :

بعدما أجمل حديثه عن أوجه إعجاز القرآن الكريم ، ذهب إلى تفصيل ذلك إلى عشرة وجوه ، متعلقة جميعها بالنظم وحسن التأليف ، مبرزا دور النظم في بيان انسجام الخطاب القرآني وترابط أجزائه مبرهنا على ذلك بالموازنة التي عقدها بين القرآن الكريم ونماذج من الشعر الجاهلي والعباسي ممثلة في معلقة امرؤ القيس ولامية البحتري.

2 ـ 3 نفي الشعر والسجع عن القرآن الكريم :

بعدما فصّل الباقلاني وجوه الإعجاز المتعلقة بنظم القرآن ، انتقل إلى نفي الشعر عنه ، ثم نفي السجع أيضا، بعد أن ذكر بعض الآراء القائلة بوجود السجع في القرآن ، وبين أن " السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه ، بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ " [1] .

2 ـ 4 ذكر البديع من الكلام وإنكاره أن تكون من وجوه الإعجاز :

ردّ الباقلاني على القائلين بأن الإعجاز القرآني راجع إلى الجانب البديعي فيه ، ثم أشار إلى مجموعة من ألوان البديع عند علماء البلاغة ، وعارض أن تكون من جوه الإعجاز في القرآن الكريم ،" لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشعر إذا عرف الإنسان طريقه صحّ منه التعمّل له، وأمكن نظمه، والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 111.

على البشر التصنع له ، والتوصل إليه بمحال " [1] ، وأكد في موضع آخر " أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ، ووصفوه فيه ؛ وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ، ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم ، والتدرب به ، والتصنع له ، كقول الشعر ، ورصف الخطب ، وصناعة الرسالة ، والحذق في البلاغة وله طريق يسلك ، ووجه يقصد ، وسلّم يرتقى فيه إليه ، ومثال قد يقطع طالبه عليه "[2] .

2 ـ 5 بيان كيفية الوقوف على إعجاز القرآن :

بيّن الباقلاني في هذا الفصل الطريقة المثلى لمعرفة إعجاز القرآن الكريم ، وميز بين الحاذق في الصنعة من أهل اللسان العربي ، وبين من ليس له معرفة باللسان العربي ،وبين من هو متوسط في معرفة اللغة العربية .

2 ـ 6 إظهار الفرق بين كلام البشر وكلام الله :

استدل الباقلاني بمجموعة من الخطب والرسائل المشهورة في البلاغة العربية ، وذلك بغية إظهار الفرق بين كلام البشر وكلام الله عز وجل ، من خلال المقارنة بينهما في النظم .

ثم انتقل إلى وصف وجوه البلاغة كما قسمها الرماني في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) إلى عشرة أقسام هي : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ،

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 159 .

[2] المصدر نفسه ص 162 .

والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان[1] ، ونقلها الباقلاني عنه مفصلة ، ثم بين أن الإعجاز في القرآن الكريم خارج عن هذه الأقسام .

2 ـ 7 تحليل خطابات من القرآن والشعر

قدّم الباقلاني تحليلا لمعلقة امرئ القيس معتمدا على النظم ، و حلل بعض الآيات من سورة النمل ، مبرزا انسجام الخطاب القرآني من خلال ما ورد من تناصّ بين الآيات في سياق قصة سيدنا موسى عليه السلام ، كما نقد لامية البحتري مبرزا مظاهر الانسجام فيها .

ختم الباقلاني كتابه بفصل ختامي أوجز فيه القول في بيان معجزة القرآن الكريم ، مبينا مكانة وشرف علم الإعجاز ، داعيا إلى إمعان النظر فيما ذكره من وجه الإعجاز لإدراك الفهم الصحيح والتأمل في كتاب الله للوصول إلى غايته ، ثم الاعتصام بالله والتوكل عليه .

3 منهج الباقلاني في دراسة الإعجاز :

استطاع الباقلاني في حديثه عن إعجاز القرآن وبيان وجوهه أن يؤسس لمنهج لغوي متميز ينبثق عن رؤية نصية شاملة للخطاب القرآني ، معتمدا على آلية الموازنة كأداة إجرائية طبقها على خطابات شعرية ونثرية ، حيث وازن بين القرآن الكريم من جهة، وبين أجود الكلام عند أهل العربية من شعر ورسائل وخطب، ليخرج بنظرة نقدية شاملة لنصوص مختلفة ، يحكم عليها أنها أقل درجة في النظم والانسجام من القرآن الكريم ، وبيّن أن نظمه يمثل بؤرة انسجامه ، مما جعل منه معجزة لغوية خالدة.

---

[1] ينظر : أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 294 .

والغاية من ذلك كما بيّنها للقارئ هي أن " يعرف عظم محل القرآن ، وليعلم ارتفاعه عن موقع هذه الوجوه ، وتجاوزه الحد الذي يصحّ أو يجوز أن يوازن بينه وبينها"[1]، يقصد بذلك وجوه الخطابات العربية التي مثلت أرقى مراتب البلاغة والفصاحة في عهد نزول القرآن وبعده ، ولا تتحقق معرفة ذلك إلا بالتأمل في نظمه ، فجاءت دراسته التي قدمها في إعجاز القرآن الكريم في إطار قضية النظم .

عمد الباقلاني في دراسته لإعجاز القرآن إلى اختيار بعض الأجناس الأدبية التي اتفق النّقّاد على جودتها ، فأخذ نماذج من خطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وخطب بعض الصحابة ، وبعض رسائلهم ، وخطب بعض الفصحاء العرب المشهورين ، بغية تحليلها من ناحية نظمها ، ثم مقارنتها بنظم القرآن الكريم ، مبينا أن نظمه خارج عن أساليب العرب وعاداتهم الكلامية .

ثم عمد إلى اختيار ما أجمع عليه الدارسون بأنه أجود الشعر العربي ، فاختار معلقة امرئ القيس ، وكذلك قصيدة البحتري التي ذكر أنها أحسن شعره ، فتناولهما بالتحليل والدراسة والنقد ، مقارنا إياهما بنظم القرآن ليصل إلى بيان أنهما وإن كانتا من أجود كلام العرب إلا أنهما لا ترقيان إلى مستوى نظم القرآن الكريم ، وصولا إلى بعض الأحكام النقدية المتعلقة بهما، ثم اختار قصة من قصص القرآن الكريم ليتناولها بالتحليل مبينا بديع نظم القرآن وحسن تأليفه وبديع رصفه، وبذلك كان اهتمامه بجملة القرآن كله دون النظر إليه نظرة تجزيئية .

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 54 .

إن دراسة الباقلاني لإعجاز القرآن الكريم على هذا النهج الذي اتبعه في بيان بديع النظم وجودة الأسلوب تبيّن موقفه من بيان القرآن ، ونظمه ، وصلته بالأدب العربي وصور التعبير المختلفة فيه ، فهي دراسة مقارنة ، ومنها يتضح منهج محدود المعالم في معالجة النصوص وكشف أسرارها الجمالية ، وتعليلها [1].

لم يكن الباقلاني في منهجه سالكا طريق النقاد والبلاغيين في دراسة الإعجاز فحسب، بل يبدو أنه أسس منهجه في بيان إعجاز القرآن الكريم على مبادئ وأساليب علم الكلام في المحاججة والبرهنة لإثبات الرأي ونقض الآخر ، ثم الانتصار لآرائه ، فينطلق لعرض أفكاره من منطلق أشكلة المعرفة ، ثم الاستدلال لها ،و استنباط الأحكام والقيم معتمدا على التسلسل المنطقي في مناقشتها لإثباتها ، أو نفيها ، بعد أن يضع فرضيات متعددة للقضية المعروضة ، ويناقشها مرتبة لينتهي إلى حصر النتائج التي توصل إليها ، حيث يجعل القارئ في عمق القضية " ويصطنع في كلامه أسلوب الحوار ليتدرج بالسامع إلى فهم ما يريد ، متابعا ما قد يوجه إلى الرأي من حجج معارضة فيفندها واحدة واحدة في ترتيب ووضوح ، ومما يتميز به صدق فهمه للنصوص وقوة شخصيته " [2] .

وبذلك يكون منهجه في الدراسة معتمدا على المزج بين منهج المتكلمين في بيان أوجه الإعجاز من جهة ، وبين منهج النقاد في نقد الشعر من جهة أخرى ، ورغم ما يتميز به الباقلاني من دقة في عرض الأفكار ومناقشتها بأسلوبه المتميز،إلا أن " له معايبه ذلك

[1] ينظر : محمد زغلول سلام ، اثر القرآن في النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ، ص268 .

[2] المرجع نفسه ص 269 .

أنه يفرض آراءه فرضا ـ أحيانا ، ولا يقبل التسليم بسهولة " [1]، ولعله ينطلق من رؤية مسبقة للقضية فلا يخرج عنها ، أو أنه يسير في اتجاه ما يوافق مذهبه الأشعري ويخدمه.

3 ـ1 الآليات الإجرائية في دراسة الباقلاني لقضية الإعجاز :

يعد كتاب "إعجاز القرآن" دراسة نصية بلاغية مقارنة ، اعتمد فيها المؤلف لعرض أفكاره على مجموعة آليات إجرائية ، حدد من خلالها منهجه في التعامل مع النصوص المتنوعة ، كاشفا عن جماليات بلاغتها وفصاحتها ، ثم علاقتها مع النص القرآني، وقد مزج في ذلك بين عدة جوانب مختلفة ، فجاءت دراسته مزاوجة بين الجانب اللغوي والجانب النقدي والجانب الأدبي والجانب البلاغي، وصولا إلى رؤية شاملة متعلقة بمعايير النص القرآني ، والحكم عليه بالانفراد والتميز عن غيره من النصوص البشرية ، ومزية ذلك هو خاصية النظم التي يتسم بها .

اعتمد الباقلاني في دراسته على عدة آليات استند إليها في تحليل الخطابات التي اختارها وهي :

3 ـ 1 ـ 1 الإجمال و التفصيل

اعتمد الباقلاني على آلية التفصيل بعد الإجمال في عرضه لوجوه الإعجاز القرآني حسب ما جال في خاطره ، حيث أورد تلك الوجوه مجملة في بداية كتابه في فصل بعنوان : (في جملة وجوه إعجاز القرآن) ، ثم انتقل إلى تفصيل هذه الوجوه في الفصل الذي يليه بعنوان : (في شرح ما بيناه من وجوه إعجاز القرآن)

---

[1] محمود زغلول سلام : أثر القرآن في النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ، ص 269 .

من الوجوه التي ذكرها الباقلاني مجملة في إعجاز القرآن ما هو متعلق بالنظم، وهو مدار تأليف كتابه ، إذ يقول بعدما تحدث باختصار عن أخبار الغيب وقصص الأمم السابقة:" والوجه الثالث ، أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة "[1] .

ثم ينتقل الباقلاني إلى تفصيل رأيه في النظم إلى عشرة وجوه متعلقة به قائلا :" ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ، ونكشف الجملة التي أطلقوها فالذي يشتمل عليه بديع النظم المتضمن للإعجاز وجوه ..." [2] ، فيستفيض في شرحها شرحا مفصلا بالحجة المنطقية والاستدلال لها من القرآن الكريم .

عقد الباقلاني فصلين متتاليين : الأول قال فيه " فصل في جملة وجوه إعجاز القرآن الكريم "[3]، والثاني جاء تفصيلا لسابقه ، بعنوان :" فصل في شرح ما بينا من وجوه إعجاز القرآن " [4]. ثم يذهب إلى موازنة ذلك ببعض الأشعار والخطب العربية لبين أن ما ذكره من نظم القرآن وبديع تأليفه خارج عن نطاق البشر ، وأنه دليل إعجاز القرآن الكريم.

3 ـ 1 ـ 2 النقد :

يرتكز منهج الباقلاني في "إعجاز القرآن " على النقد لأن هدفه من تأليف كتابه كما ذكر في بدايته هو الانتصار للقرآن الكريم والدفاع عنه ضد الطاعنين والمشككين فيه، فقد اعتمد في تقديم وعرض أفكاره والدفاع عنها على أسلوب من أساليب المتكلمين،

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص86 .

[2] المصدر نفسه ، ص 86 .

[3] المصدر نفسه ص 83 .

[4] المصدر نفسه ص 100 .

وهو الجدل والاعتماد على المنطق ، حسب ما تفرضه ثقافة العصر الذي عاش فيه، حيث ازدهر علم الكلام وأصبحت القضايا الفكرية تعالج بمنطق العقل و الاجتهاد والكلام، بالإضافة إلى أنه كان على رأس الأشاعرة ، فاعتمد على تقديم وجهة نظر أصحاب القول بالصرفة ثم الرد عليها بالأدلة والحجج والبراهين المقبولة والمقنعة ؛ سواء كانت حججا منطقية عقلية ، أو أدلة نقلية ،كما استدل على نفي قضية السجع عن القرآن الكريم .

اعتمد في تحليل النصوص الشعرية التي ساقها على النقد من عدة جوانب مختلفة . فاستند أسلوبه في عرض القضايا على التسلسل المنطقي لها ، فيقدم القضية في بداية كل فصل في قالب إشكالية و سؤال ، ثم يناقشها من باب الجدل ويثبت النتيجة معتمدا على أدلة عقلية يسوقها ويدعمها في بعض الأحيان بشواهد من القرآن الكريم ، بعد أن يضع فرضيات متعددة للإجابة عن تلك التساؤلات التي يطرحها في بداية كل قضية يعرضها .

3 ـ 1 ـ 3 الموازنة :

إن الموازنة هي العماد الذي قام عليه منهج الباقلاني في كتاب " إعجاز القرآن " حيث عمد إلى الخطابات العربية بداية من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري من العصر العباسي ، فاختار ما اتفق عليه النقاد أنه أجود الشعر حسب كل عصر ، ثم ذهب يعقد موازنة بين جيد الكلام العربي من حيث نظمه من جهة ، وبين نظم القرآن الكريم من جهة أخرى ليصل إلى أن نظم القرآن الكريم أرقى من النظم البشري ولا سبيل إلى المقارنة بينهما على الإطلاق ، وأكد على نتيجة مفادها :" أنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم و مباين لأساليب خطابهم ، ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى لأن

قوما من كفار قريش ادعوا أنه شعر ، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعرا ، ومن أهل الملة من يقول إنه كلام مسجع إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ، ومنهم من يدعي أنه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب " [1] .

من خلال هذا النص للباقلاني نجد أنه يبين أصناف الخطابات المتعارف عليها عند العرب والتي اتخذ منها نموذجا ليبني عليه موازنته مع القرآن الكريم ، ويثبت أنه خارج عن تلك الأصناف المعهودة عندهم، وأن نظمه أرقى منها ، ثم ينفي أن في القرآن شعرا أو سجعا ، لأنه يدخله في أنواع خطاباتهم .

3 ـ 2 أسلوب الباقلاني في الموازنة :

سلك الباقلاني نهجه في الموازنة بين نظم القرآن الكريم ونظم كلام العرب معتمدا على اختياره أجود الشعر والخطب والرسائل في عرف النقاد ، حيث يستشهد بفحول الشعراء من العصر الجاهلي أمثال امرؤ القيس والنابغة وزهير وطرفة بن العبد وعنترة وتأبط شرا، وفحولهم في العصر العباسي وفي الغالب يسوق شعر البحتري وأبي تمام والفرزدق للاستشهاد بهم .

ولم يتوقف عند الجانب النظري فقط ، بل تجاوز ذلك إلى إثبات وجهة نظره على المستوى التطبيقي ، فعمد إلى انتقاء ما يراه أجود الشعر الجاهلي (معلقة امرئ القيس)؛ للمقارنة بين نظمها ونظم القرآن الكريم ، وكذلك ما يراه من أجود الشعر العباسي (قصيدة البحتري) ، فينطلق من نتائج دراستهما ونقدهما ليؤكد رأيه في النظم، وقد

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 102 .

استطاع التوفيق بين التطبيق والتنظير لإثبات وتأكيد تصوره حول نظم القرآن ونظم الشعر، وأن لا مجال للموازنة بينهما .

إن الموازنة التي اعتمدها الباقلاني في دراسته ليس هدفها بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين الخطاب القرآني وغيره من الخطابات ، وإنما الهدف من ورائها إثبات أن هذه الخطابات ليست بمستوى الخطاب القرآني وأن هذه الموازنة بينهما لا تصح ، وأن الأسلوب القرآني أرقى من غيره من الأساليب من حيث نظمه وتأليفه.

انطلق الباقلاني في بيان إعجاز القرآن من أن نبوة النبي صلى الله عليه معجزتها القرآن، وذهب في سياق حديثه لإثبات صدق هذه النبوة للعرب ، وأن ذلك مبني على معجزة القرآن الكريم ، فهو يتميز بما ليس في الكتب السماوية السابقة و ينفرد بنظمه وبيانه " لأن نظمها ليس معجزا ، وإن كان ما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزا وليس كذلك القرآن ، لأنه يشاركها في هذه الدلالة ، ويزيد عليها في أن نظمه معجز "[1].

ليس خافيا كفاءة الباقلاني في الموازنة التي أجراها ، متجاوزا الإطار النظري إلى الممارسة التطبيقية لتحليل الخطابات التي اختارها كمدونات لبحثه ، فقد اتجه إلى أساليب العرب وخطاباتهم ، ليأخذ نماذج من أرقى الأشعار والخطب والأسجاع والرسائل لدراستها ثم محاولة الموازنة بين أساليبها وأسلوب القرآن الكريم ، ليجد نفسه أمام نص محكم النظم حسن التأليف في مستوى رفيع عن غيره من الخطابات البشرية التي لا ترق إلى درجته من حيث نظمه وتأليفه .

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 62 .

3 ـ 3 منهج الباقلاني في بيان نظم القرآن :

اعتمد الباقلاني لبناء نظرته في النظم على قضية مركزية في النقد الأدبي وهي قضية اللفظ والمعني والعلاقة القائمة بينهما ، حيث يرى أن نظم الألفاظ في القرآن الكريم متعلق بنظم المعاني ، وقد بين ذلك في قضية نفي السجع عن القرآن الكريم ، و ذكر خبر النبي صلى الله عليه وسلم مع " الذين جاءوه وكلموه في شأن الجنين: ((كيف ندي من لا أكل ولا شرب ، ولا صاح فاستهل ، أليس دمه قد يطل)) ، فقال : أسجعا كسجاعة الجاهلية ؟ وفي بعضها: ((أسجعا كسجع الكهان ؟)) فرأى ذلك مذموما لم يصح أن يكون في دلالته "[1]، ثم انتقل إلى تفصيل القول في علاقة اللفظ بالمعني وعلاقة السجع بهما .

يقول الباقلاني :" السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تبعا للمعنى، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه ، بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى " [2].

يبيّن الباقلاني أن القرآن الكريم تكون فيه الألفاظ تابعة للمعاني ،عكس ما هو في نظم السجع الذي تكون فيه المعاني تابعة للألفاظ المسجوعة باختيار الساجع ، وعلى هذا الأساس أكد أنه " لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 111.

[2] المصدر نفسه، ص 111.

داخلا فيه لم يقع بذلك إعجاز "[1]، والمتعارف عليه أن السجع عند العرب مقترن بالكهان ، "والكهانة تنافي النبوات"[2].

إن نظرة الباقلاني إلى تأليف الألفاظ والمعاني على نسق الكلام العربي في فن السجع ورأيه فيها، يؤكد أن فكرة النظم لا تعتمد على الجانب الشكلي للخطابات فحسب ، بل تمتد إلى مستوى انسجام المعاني في النفس، ثم انسجام الألفاظ مع المعاني ، فالكلام يقوم على : اللفظ والمعنى و النظم الذي يمثل العلاقة بينهما.

يقول الخطابي ملخصا نظم العلاقة بين اللفظ والمعنى في القرآن الكريم :" إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ ، أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما و تشاكلا من نظمه ،وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها "[3] ، فالقرآن الكريم إنما اتّسم بصفة الإعجاز " لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، مضمنا أصح المعاني"[4].

لقد أخذ مفهوم النظم عند الباقلاني شكلا واسعا ، يتجاوز نظم الجملة إلى نظم الخطابات كاملة ، فقد اعتمد على الموازنة بين نظم القرآن كاملا مع نظم بعض

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 111.

[2] المصدر نفسه ، ص111.

[3] الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ص 27 .

[4] المصدر نفسه ، ص 27.

الخطابات العربية ، فاختار خُطبا ورسائل علق عليها ، كما اختار قصائد كاملة تناولها بالدراسة والتحليل من أجل الكشف عن ميزات النص القرآني بأكمله ، ولذلك تعتبر دراسة الباقلاني دراسة نصية في أساسها.

قدم الباقلاني قراءات لنصوص عربية متنوعة هدفها استخلاص المفاهيم الأساسية للإعجاز، حيث عالج القضية على مستويين :

المستوى النظري : الذي يبن فيه وجوه الإعجاز القرآني وتفنيده لقول أصحاب الصرفة ، كما أوضح أهمية النظم في بيان الإعجاز، وأنه المعيار الأساسي لإعجاز القرآن الكريم.

المستوى التطبيقي : انتقل إلى الممارسة النصية التي عالج فيها نصوصا شعرية ونثرية ليؤكد انسجام الخطاب القرآني من منطلق نظمه وتأليفه من حيث هو سرّ من أسرار إعجازه ؛ استطاع أن يوازن بين نظم القرآن ونظم غيره من النصوص البشرية ليثبت انفراده بأسلوبه الخاص .

ثالثا : معايير الإعجاز القرآني عند الباقلاني

جاء كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني ليعالج قضية الإعجاز القرآني من زاوية أسلوبه البياني ونظمه ، فكان منصبّا على جملة القرآن كله دون الفصل بين أجزائه، منطلقا منه " كنص كامل له ميزاته وصفاته التي تميزه عن أقوال العرب وفنون كلامهم"[1]، وعليه فإن هذه الدراسة عمدت إلى ما أنتجه الباقلاني في مسألة نظم القرآن ووجوه إعجازه من أجل

[1] محمد زغلول سلام : أثر القرآن في النقد العربي ، ص 270 .

إعادة قراءته في ضوء اللسانيات النصية الحديثة ووفق مقاربتها للنصوص ، باعتبار أن دراسة الباقلاني للقرآن الكريم هي دراسة نصية في الأساس .

إذا كانت معايير النصية هي تلك المعايير التي تميز النص عن اللانص ، أو كما حددها سعد مصلوح بأنها :" ما به يكون الكلام نصا" [1] ، فإن معايير الإعجاز عند الباقلاني هي تلك الوجوه التي تجعل من الخطاب القرآني نصا معيارا للبلاغة والبيان في الثقافة العربية ، تشرئب إليه أعناق الأدباء والمؤلفين ، ليس رغبة في معارضته ، بل لاتخاذه نموذجا أعلى للفصاحة والبلاغة للاحتذاء به في المواقف باعتباره خطابا خارجا عن العادة والمألوف في خطاباتهم ، وقد بين الباقلاني " أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم ، ويتقدم في بلاغته على كل قول " [2] .

سعى الباقلاني أن يحدد الوجوه التي ينفرد بها أسلوب القرآن في بديع نظمه وحسن تأليفه ، ويتميز بها عن غيره من الخطابات الأخرى ، وجعل تلك المعايير مقرونة بالبلاغة من جهة ، وبحسن بناء الخطاب وتأليفه من جهة أخرى ، و عرض فكرته انطلاقا من وضع مجموعة من المعايير النظرية و المكونات الأساسية لفكرته على مستوى التنظير ، ثم انتقل إلى المستوى التطبيقي ، بتطبيقها على نصوص قرآنية وأخرى شعرية ، ليبين انفراد الخطاب القرآني عن غيره من الخطابات .

---

[1] سعد مصلوح ، نحو أجرومية للنص الشعري ، ص 153 .

[2] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 198 .

المعايير النصية للخطاب القرآني عند الباقلاني :

ذهب الباقلاني في بحثه عن الإعجاز إلى تحديد المعايير التي تميز الخطاب القرآني عن غيره من الخطابات الأخرى داخل النظام الفكري والثقافي السائد في تلك المرحلة ، فأكد أن الميزة التي تجعله يتفوق عن غيره هي ميزة تنبثق من داخله ، وليست مصروفة إلى أمور أخرى خارجية ، وإن كانت هناك سمات يشترك فيها مع غيره، إلا أن المعايير التي ينفرد بها تجعل منه خطابا متعاليا، و هي في الأساس معايير تتمحور حول نظمه ، فإذا كانت الثقافة العربية تفتخر بأجود ما أنتجه النظام اللغوي من إبداعات أدبية راقية ، فإن ما يبحث عنه الباقلاني هو في الأساس أجود وأرقى إبداعا من مستوى المألوف لديهم .

كشف الباقلاني من خلال بحثه في إعجاز القرآن عن مجموعة من المعايير التي يسند إليها نظرته في الإعجاز، ويجعلها قالبا معياريا للحكم على نصية الخطاب ، فالقرآن الكريم في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة ، ولا تتحقق تلك المعايير كاملة ومجتمعة إلا فيه، وتظهر فيما دونه من النصوص بمستوى أقل ، وبدرجات متفاوتة .

إذا عدنا إلى الثقافة اللغوية العربية في مرحلة نزول القرآن ، والتي تمثل ذروة ما وصل إليه العرب من فنون الكلام ، نجد أن المعايير المعتمد لديهم في التحكيم ، والحكم على كمال الخطابات وجودتها، هي معايير متعلقة بمدى الإجادة في تحقيق الفصاحة والبلاغة فيها ، وإذا تأملنا المعايير التي صنفها الباقلاني ، نجد أنه يميل إلى البحث عن كل ما هو متعلق بالوصول بالخطابات إلى درجة التميز في الفصاحة والبلاغة وإدراك انسجام المعاني فيها من خلال النظم .

جعل الباقلاني معايير الإعجاز القرآني متعلقة بالفصاحة والبلاغة من جهة ، وبالنظم من جهة أخرى ، إذ لا يمكن للشاعر مهما كان وزنه الشعري ،أن يقترب في قوله من مستوى نظم القرآن الكريم ، وهذا راجع إلى التباين بين النظمين ، فالنظم في نظر الباقلاني هو الأساس الأول للإعجاز القرآني ، وبالتالي عدم قدرة العرب على معارضته ، وقد دعا إلى التأمل في الفرق بين كلام الله وكلام البشر بعدما عرض أشهر الخطب العربية بداية بخطب الرسول ثم الخلفاء الراشدين وأشهر الخطباء العرب أمثال عمر بن عبد العزيز والحجاج بن يوسف وقس بن ساعدة الإيادي ؛ فالفرق بينها ظاهر .

يقول الباقلاني :" فتأمل ذلك وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللسن ، والفصاحة والفطن ، والألفاظ المنثورة ، والمخاطبات الدائرة بينهم ، والأمثال المنقولة عنهم ، ثم انظر بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لبّ ، وجمع عقل في ذلك ، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس ، وكلام ربّ العالمين ، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم الآدميين ، وتعلم الحدّ الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ ، والخطيب و الخطيب ، والشاعر و الشاعر ، وبين نظم القرآن جملة " [1] ، فالنظم هو معيار الفصل بين كلام الله عز وجل وكلام البشر .

وهذه المعايير هي :

1 النظرة الشمولية إلى القرآن الكريم :

يُرجع الباقلاني إعجاز القرآن إلى جملته ، بالنظر إليه نظرة كلية شاملة غير تجزيئية ، " وذلك أن نظم القرآن على تصرُّف وجوهه ، خارج عن المعهود من نظام

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 197 .

جميع كلامهم ، و مباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد " [1].

إن المعيار الأساسي لإعجاز القرآن الكريم هو كونه يتميز عن غيره من الخطابات الأخرى بنظامه البديع في ترتيبه وانسجامه ، وأسلوبه غير المعتاد في كلام العرب ، فالنظرة الكلية إلى القرآن الكريم تكشف عن كونه خطابا مترابطا من خلال نظمه، ترابطا كليا بين سوره ، وآياته ، وكلماته ، وحروفه ، ومنسجما في ألفاظه ومعانيه، من بدايته إلى نهايته.

والقرآن إذا أمعن الناظر التأمل فيه من هذه الناحية " تبين ـ بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ـ أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز ، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتمييز حاصل في جميعه " [2] .

2 التناسب في الفصاحة والبلاغة :

يرى الباقلاني أن التناسب في البلاغة والفصاحة معيار من معايير الإعجاز في الخطاب القرآني ، ويؤكد " أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ، على هذا الطول ، وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ، يقع فيها ما نبينه من هذا الاختلال ، ويعترضها ما نكشفه من الإخلاف ، ويقع فيها ما نبديه من التعمُّل

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 86 .

[2] المصدر نفسه ، ص86 .

والتكلف و التجوُّز والتعسف ، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به ، فقال : ((ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ)) سورة الزمر،الآية 23. وقوله : ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿82﴾)) سورة النساء ، الآية 82 . فأخبر أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت ، وبان عليه الاختلال ، وهذا المعنى هو غير المعنى الذي بدأنا بذكره" [1].

إن هذا التناسب الذي ينفرد به القرآن الكريم على طوله وكثرته ، إنما يكون نابعا من حسن نظمه وتأليفه ، فلا يمكن للباحث أن يجد نصا شعريا أو نثريا بهذه الخصوصية أبدا، ولا يمكن أن يجد نصا طويلا يحافظ فيه صاحبه على نسق واحد من بدايته إلى نهايته في الأسلوب والبناء الجمالي والنظم والفصاحة والبلاغة ، ماعدا القرآن الكريم فقد جاء على نسق واحد لا اختلال فيه ، ولا تفاوت بين ألفاظه ومعانيه ، فقد جاءت الألفاظ مناسبة للمعاني ، وذلك من حسن البلاغة والبيان .

أما النصوص الإبداعية فإنها تتفاوت صعودا ونزولا في البلاغة والفصاحة والمقاصد والجمال الفني ، فقد تجد في الكلام " ما تقصر عبارته وتفضل معانيه ، وفيه ما تقصر المعاني وتفضل العبارات ، وفيه ما يقع كل واحد منها وفقا للآخر ، ثم ينقسم ما يقع وفقا إلى أنه قد يفيد على تفصيل ، وكل واحد منها قد ينقسم إلى ما يفيدها ، على أنه يكون كل واحد منها بديعا شريفا وغريبا لطيفا ، وقد يكون كل واحد منها مستجلبا

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص87.

متكلفا ، ومصنوعا متعسفا ، وقد يكون واحد منها حسنا رشيقا وبهيجا نضيرا ، وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر ، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة في واحد منهما ، وإنما يميز من يميز ، ويعرف من يعرف ، والحكم في ذلك صعب شديد ، والفضل فيه شأو بعيد " [1] ، وقد أوضح ذلك التفاوت والاختلاف في النصوص الشعرية والنثرية التي أوردها ، مع أنه اختار ما اتفق النقاد على أنه أجود الشعر وأحسنه، ومن ذلك ما فصله في نقده لمعلقة امرئ القيس ، رغم مكانتها الشعرية الرفيعة عند النقاد، إلا أنه وصفها بكونها أقل درجة في النظم من مستوى نظم القرآن .

3 موضوع الخطاب :

بيّن الباقلاني أن نظم القرآن الكريم لا يتغير بتغير موضوع الخطاب ، وهذا ما يوحي بحسن تأليفه ، وانسجامه ، وذلك " أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وأعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من التي يشتمل عليها " [2]، فمهما تغير موضوع الخطاب ، فإنك تجد القرآن لا يتغير نظمه ولا يختل أسلوبه ، وفي المقابل " نجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور " [3].

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 171 .

[2] المصدر نفسه ص 87.

[3] المصدر نفسه ص87.

وأشار إلى التباين الحاصل بين أساليب الشعراء والخطباء ، فمن الشعراء من يجيد القول في المدح دون الهجاء ، ومنهم من يجيد في الرثاء ، ومنهم من يجيد في وصف الإبل ، أو الخيل ، أو وصف الليل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الخمر ، أو الغزل ، وغيرها من أغراض الشعر وكذلك الحال يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام و فنون النثر ، وقد ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب.[1]

نبّه الباقلاني إلى النظر في قصائد الشعراء المجيدين ، فإن الاختلاف في نظم القصيدة الواحدة واضح وجلي باختلاف مواضيعها . قال :" ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره" [2]. وقد علّل ذكره للشعراء الثلاثة الذين ضرب بهم المثل في الإجادة بأشعارهم، " لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم، فإن كان الاختلال بينا في شعرهم ، لاختلاف ما يتصرفون فيه ، استغنينا عن ذكر من دونهم، وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها "[3] .

وإذا كان هذا حال الشعراء في نظم قصائدهم من الاختلاف والتفاوت فيها ، فإن القرآن إذا تأملناه ؛ " وجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، ولا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة

---

[1] ينظر : أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 88.

[2] المصدر نفسه ، ص 88 .

[3] المصدر نفسه ص 88 .

العليا ، ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف " [1]، وكذلك هو الحال عند تكرار القصة الواحدة عند الناس ، فإن ذلك مختلف ومتفاوت ، أما القرآن الكريم فإنه في غاية البراعة والبلاغة .

4 الفصل والوصل:

جعل الباقلاني الفصل والوصل من أهم معايير الإعجاز ، وذلك أن " كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره ، والخروج من باب إلى سواه"[2]، وهذا ما يسمى عند النقاد بحسن التخلص ، فقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين من بين ما نقله من تعريفات للبلاغة ،أنها " معرفة الفصل من الوصل " [3].

و بيّن أن القرآن على ما يحويه من مواضيع كثيرة ، و انتقاله من معنى إلى معنى ، ومن باب إلى باب، رغم ذلك كله إلا أنه " يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ، ويتجاوز العرف "[4].

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 89 .

[2] المصدر نفسه ، ص 89 .

[3] أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (150 / 255 هـ) ، البيان والتبيين ،تحقيق عبد السلام هارون ،مكتبة الخانجي القاهرة ، مصر ، الطبعة السابعة ، (1418هـ/ 1998م)، الجزء الأول ، ص88 .

[4] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 89 .

5 تقسيم الخطاب :

اشتمال القرآن الكريم على أنواع الخطاب المتداولة في كلام العرب من ناحية الإبداع والبلاغة والفصاحة ، والتي تجعل منه خطابا منفردا عنها ، حيث نجد فيها مواطن الشرح ومواطن الاختصار ، كما نجد فيه الفصل والوصل ، والحقيقة والخيال ، وكل هذه المميزات التي نجدها أيضا في النصوص العربية ، موجودة بدرجة أعلى بلاغة وإبداعا في الخطاب القرآني ، وقد ذكرها الباقلاني في قوله :" وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب : من البسط والاقتصاد والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح و التجوُّز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم ، موجودة في القرآن الكريم ، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة " [1].

6 مناسبة الألفاظ لمعانيها :

يقترب هذا المعيار عند الباقلاني من معيار الانسجام في الدراسات اللسانية النصية الحديثة ، فقد بيّن الباقلاني أن التناسب بين الألفاظ والمعاني يعد وجها من وجوه إعجاز القرآن ، وأن براعة الخطاب لا تظهر ، وفصاحته لا تتم ، و بلاغته لا تكتمل، حتى تتحقق مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فاشترط التوافق بينها لتمام البراعة والفصاحة فيه ، فلا اختلال في الخطاب من ناحية تناسق اللفظ والمعنى داخله. يقول :" إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني ، والمعاني وفقها ، لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر ،

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص93 .

والفصاحة أتم "[1]، وبهذا التناسب يتحقق الانسجام بين الألفاظ ومعانيها كمعيار من معايير الإعجاز .

7 اختيار الألفاظ في مواقعها :

يرى الباقلاني أن كل كلمة في القرآن الكريم لها مكانتها التي تبيّن فضل الكلام وفصاحته عن غيره ، فيجذب الأسماع والنفوس ، ويشبهه بالدرّة والياقوتة ، فيزيد جماله،"ويرى وجه رونقه باديا غامرا سائر ما يقرن به ، كالدرة التي ترى في سلك من خرز ، وكالياقوتة في وسط العقد ، وأنت ترى الكلمة في القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير ، وهي غرة جميعه ، وواسطة عقده ، والمنادي على نفسه بتميزه ، وتخصصه برونقه وجماله " [2]، فكل كلمة لها موقعها في الكلام ، يكتسب من خلاله جمال أسلوبه ، فلو تغيرت لفظة عن موضعها أو استبدلت بغيرها ، لأصاب الكلام اختلال في المعنى، وفي جمال الأسلوب ونظمه .

8 نظم الحروف

ذكر الباقلاني في نظم حروف القرآن الكريم " أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا ، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة ، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة ، وهو أربعة عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 94 .

[2] المصدر نفسه ص 94 .

التي ينظمون بها كلامهم "[1]، وليدل ذلك على أنهم لا يستطيعون نظم مثل هذا القرآن رغم كونه مبنيا على تلك الحروف التي تجري بها ألسنتهم .

9 بديع التأليف وحسن النظم :

إن المعيار الأساسي الذي بنى عليه الباقلاني نظرته إلى الخطاب القرآني ، وانطلق منه لتأليف كتابه هو معيار النظم ، وعليه أسس فكرته في بيان الإعجاز ، وهو ما يمنح القرآن " موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجن ، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا ، ويقصرون دونه كقصورنا ، وقد قال الله عز وجل : ((قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿88﴾)) سورة الإسراء "[2].

فالنظم مزية تجعل القرآن الكريم " متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه " [3] ، وقد فصّل الباقلاني حديثه عن النظم في عدة مواقف من الكتاب ، حيث جعله مرتبطا ببلاغة القرآن الكريم إلى مستوى العجز الذي انتهى إليه البشر ، كما أرجع معايير الإعجاز التي ذكرناها إلى مزية النظم ، فالنظرة الكلية إلى القرآن الكريم تكون من زاوية نظمه وتأليفه ، وتناسبه في الفصاحة والبلاغة تكون من ناحية نظمه ، وكذلك حسن الانتقال في مواضيع الخطاب القرآني بين الفصل والوصل تكون من جهة النظم ، فالنظم

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 96 .

[2] المصدر نفسه ، ص 90 .

[3] المصدر نفسه ، ص 86.

عند الباقلاني هو العماد الأساسي الذي ارتكز عليه لبناء نظريته في الإعجاز القرآني ، حيث لا يتحقق الإعجاز إلا من خلال النظم .

وإذا ما اتجهنا إلى باقي الخطابات الأخرى نجد أن الباقلاني يشير ضمنيا إلى أنها وإن كانت تبلغ درجة من الفصاحة والبلاغة عند النقاد ، فإنها أقل درجة في مستوى البلاغة والفصاحة في القرآن الكريم ، ومردّ ذلك إلى النظم ، فالقرآن الكريم قالب كامل، وخطاب معيار في الثقافة العربية ، لا يشوبه نقص، تتحقق فيه النصية الكاملة ، وعليه كان قياس الباقلاني لبقية الخطابات الشعرية والنثرية ، فمهما بلغت درجتها من الجودة والبلاغة والفصاحة ، إلا أنها تأتي في مراتب أقل ، ومتفاوتة حسب قائلها ، فالملاحظ حسب ترتيب الباقلاني لتلك النصوص ، الأولى فالأولى في البلاغة ، أنه جعل بعد القرآن الكريم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة الثانية من الفصاحة والبلاغة في فنون النثر .

يقول في بيان الفرق بينهما : " فإن كان لك من الصنعة حظ ، أو كان لك في هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب في الأدب بسهم ، أو في العربية بقسط ، وإن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب : فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم من خطبه ورسائله ، وما عساك تسمعه من كلامه ، ويتساقط إليك من ألفاظه ، وأقدّر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا ، وأمدا مديدا وميدانا واسعا ومكانا شاسعا " [1].

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 183 .

لقد كانت موازنة الباقلاني بين كلام الله عز وجل ، وكلام نبيه عليه الصلاة والسلام، اعتمادا على معرفة العربية و فنون الأدب ، والمعروف عند أهل الأدب في تأليف الخطب والرسائل " أن الخطيب يحتشد لها في المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الضخام ، ولا يتجوز فيها ، ولا يستهان بها ، والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه ، ويشمر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقع بها الإخلال ؟ وكيف يتعرض للتفريط ؟ "[1]

فإن عرف الموازن بين كلام الله وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأمور ، فإنه سيصل إلى نتيجة قطعية في أن الفارق بينهما هو النظم ، وقد لخصها الباقلاني في قوله :" فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهي ، وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر النبوي "[2] .

ثم اختار خطب ورسائل بعض أصحابه ، واختار أشهر الخطب العربية وأجودها ، للتأكيد على أن الخطاب القرآني هو المعيار الذي تقاس عليه الخطابات جودة في البلاغة والفصاحة ، فقال " فإن أردت زيادة في التّبيّن ، وتقدما في التعرف وإشرافا على الجلية ، وفوزا بحكم القضية ، فتأمل ــ هداك الله ـ ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء ، لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبي صلى الله عليه وسلم واحد ، وسبكها سبكٌ غير مختلف ، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين ، وبين شعر الشاعرين ، وذلك أمر له مقدار معروف ، وحدّ ـ ينتهي إليه ـ مضبوط ، فإن عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج ، ولجملته طريق ، وتبيّنت ما يمكن

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 184 .

[2] المصدر نفسه ، ص 184 .

فيه من التفاوت ، نظرت إلى نظم القرآن نظرة أخرى ، وتأملته مرة ثانية ، فتراعي بُعد موقعه ، وعالي محلّه ، وحكمت بواجب من اليقين ، وثلج الصدر بأصل الدين " [1].

الملاحظ في هذا النص للباقلاني أنه استعمل مصطلحين للدلالة على التأليف والنظم، وهما النسج والسبك ، والمراد بذلك أن الخطاب النبوي وخطب غيره من الصحابة والبلغاء العرب ، إنما هو على نظم واحد ، والاختلاف بينهما يكون في درجة البلاغة والفصاحة ، حيث يأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم ، وغيره بعده فصاحة وبلاغة، و الأمر الذي أكّد عليه أن مرد الاختلاف بين القرآن الكريم وكلام البشر هو حسن النظم والتأليف ، حيث دعا إلى التأمل بتفريغ اللب وجمع العقل ، في سائر أخبار أهل البيان والفصاحة، لتبين الفرق الظاهر بين كلام الله وكلام رسول الله ، ولتعرف الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، " وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم الآدميين ، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ ، والخطيب و الخطيب ، والشاعر و الشاعر، وبين نظم القرآن جملة "[2].

بعدما أكد الباقلاني التفاضل بين الخطاب القرآني وبين الكلام المنثور ، بدءا من خطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وخطب الصحابة وأشهر الخطباء العرب ، اتجه لبين ذلك على مستوى الشعر ، فاختار معلقة امرئ القيس سبيلا لذلك ، وقصيدة البحتري الذي اتفق الدارسون أنه من أهل الصنعة في العربية ، واستند عليهما ليثبت رأيه على مستوى الشعر كما بينه على مستوى النثر .

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 184 .

[2] المصدر نفسه ، ص 197.

10 سهولة القرآن وقربه إلى الأفهام :

يقول أبو بكر الباقلاني عن القرآن الكريم : " أنه سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشي المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريبا من الأفهام ، يبادر معناه قلبه إلى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس " [1].

إن هذه الخصائص التي ذكرها الباقلاني في القرآن الكريم تكشف على أنه يتميز بخاصيتي القبول والقصد :

أما القبول؛ فبكونه مقبولا لدى المتلقي بسهولة سبيله وقربه من فهمه ، وكونه غير مستكره ولا غريب ولا وحشي اللفظ ، ولا متكلف في الصنعة ، وقد بيّن أن الكلام لابد أن يقع موقع القبول في نفس المتلقي وأن يكون له تأثير حسن عليه ، وهذا ما يتميز به كلام الله عز وجل ، " فالقرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه، ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه ، من تعديل النظم وسلامته ، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ، ووقوعه في النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته ، حتى يحل محل البرهان ، ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة " [2] ، وهذا عكس ما هو معروف في الشعر ، وقد ضرب المؤلف مثالا بمعلقة امرئ القيس ، فقال :" وقد علمت أن كلام فصحائهم ، وشعر بلغائهم ، لا ينفكّ من تصرف في غريب مستنكر ، أو وحشي مستكره ، ومعان مستبعدة ، ثم عدولهم إلى كلام مبتذل وضيع لا يوجد دونها في الرتبة ثم تحولهم إلى كلام معتدل بين الأمرين ،

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 98 .

[2] المصدر نفسه ، ص 302 .

متصرف بين المنزلتين ، فمن شاء أن يتحقق هذا نظر في قصيدة امرئ القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل " [1] .

أما القصد ؛ فبأن يكون معناه وغايته أسرع وصولا إلى النفس من عبارته ولفظه ، فيخلّف آثارا في النفوس، ويكون له وقع على القلوب . يقول الباقلاني:" وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب ، والتمكّن في النفوس ، ما يذهب ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، ويطمع و يؤيس ، ويضحك ويبكي ، ويحزن ويفرح ، ويسكن ويزعج ، ويشجي ويطرب ، ويهز الأعطاف ، و يستميل نحوه الأسماع ، ويورث الأريحية والعزة ، وقد يبعث على بعث المهج والأموال شجاعة وجودا ، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمًى بعيدا، وله مسالك في النفوس لطيفة ، ومداخل إلى القلوب دقيقة ، وبحسب ما يترتب في نظمه ، ويتنزّل في موقعه ، ويجري على سمت مطلعه ومقطعه ، يكون عجيب تأثيراته ، وبديع مقتضياته" [2]

أشار الباقلاني إلى قصد المرسل وما يترتب عليه من شرف كلامه بأدائه مهمته وغايته ، فقال :" وإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس ، التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها ، وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها ، فما كان اقرب في تصويرها ، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها ، وكان رغم ذلك أحكم في الإبانة عن المراد ، وأشدّ تحقيقا في الإيضاح عن الطلب ، وأعجب في وضعه ، وأرشق في تصرفه، وأبرع في نظمه ، كان أولى وأحق بأن يكون شريفا " [3].

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 98 .

[2] المصدر نفسه ، ص 303.

[3] المصدر نفسه، ص 171.

جعل الباقلاني القصد في الخطاب ضرورة مقرونة بالبلاغة فقال :" وما صح أن تتبين فيه البلاغة ، ومحصولها الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس، على أحسن معنى ، وأجزل لفظ ، وبلوغ الغاية في المقصود من الكلام ، فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغا وبليغا ، فإذا تجاوز حد البلاغة ، إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة ، وانتهى إلى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة ، صح أن يكون له حكم المعجزات ، وجاز أن يقع موقع الدلالات ، وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مباين لسائر كلامهم ، ثمّ بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر " [1]، فالقرآن الكريم قد بلغ الغاية في المقصود منه ، وتجاوز في ذلك حدود البلاغة العربية ، وكان معجزا للعرب في أسلوبه ونظمه.

وعليه فإن وجوه الإعجاز التي فصلها الباقلاني في مؤلفه مرتبطة بقضيتين أساسيتين هما نظم الكلام وبلاغته ، فتلك الوجوه متعلقة ببديع نظم القرآن وحسن تأليف وجودة بلاغته، لتشكل منه أفق الخطابات العربية ، ومعيارا لها ، يقتدي به الشعراء والأدباء بعد نزوله ، فمهما بلغوا في إجادتهم ونظمهم واقترابهم من تحقيق هذه المعايير يبقى نظم القرآن معيار الانسجام والبلاغة والفصاحة لها .

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 311.

خلاصة :

من خلال قراءة وجوه الإعجاز التي ذكرها الباقلاني لبيان إعجاز القرآن الكريم نخلص إلى أنه وضع بذورا وأسسا لمشروع يعتمد على الممارسة النصية لدراسة الخطاب القرآني والشعري ، تتجلى مبادئه على مستوى التنظير في إبراز وجوه الإعجاز القرآني وعلاقتها بالنظم ، ثم تجسيدها على مستوى التطبيق عند تحليله لمعلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري.

فمن خلال نقده لهاتين القصيدتين سلك الباقلاني منحًا نصيا دراسة وتحليلا؛ بحثا عن آليات التماسك والانسجام ، واعتمد لبيان ذلك على فكرة النظم التي تشبع بها ، وأثرى بها كتابه (إعجاز القرآن) ، وجعلها مبدأ انسجام القرآن وتماسكه .

إذا كان الباقلاني أسّس مشروعه على فكرة النظم والنظرة الشمولية للقرآن الكريم، وهما معياران متعلقان بالخطاب في ذاته ، فإنه كذلك لم يغفل المعايير الأخرى المتعلقة بما وراء الخطاب ، والمتمثلة أساسا في السياقات التي أنتجته؛ حيث بين أن درجة إدراك الإعجاز تتفاوت ظهورا وغموضا بحسب اختلاف حال الكلام ، وكذلك ما هو متعلق بحال المتلقي من قرب فهم القرآن إلى ذهنه .

الفصل الرابع : انسجام الخطاب

(قراءة في المفاهيم والآليات المنهجية في كتاب الإعجاز)

أولا : دلالة لفظ الخطاب عند الباقلاني

ثانيا : الانسجام (المفهوم والآليات)

ثالثا : مظاهر الانسجام عند الباقلاني

رابعا : نماذج من التحليل النصي عند الباقلاني

أولا : دلالة لفظ الخطاب :

نال مصطلح (الخطاب) حظا واسعا ضمن استعمالات الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) ، وهو لا يبتعد في تحديد دلالته عما ورد في القرآن الكريم من معاني، فعند البحث بين طيات مؤلفه نجد أنه يكثر من تكرار اللفظ في العديد من السياقات ، حيث يستعمله مرادفا للكلام ومقترنا بأحد عناصر الخطاب؛ كالمرسل و المتلقي والسياق و القصد .

1 معاني لفظ الخطاب في القرآن الكريم :

وردت لفظة الخطاب في القرآن الكريم بصيغ متعددة في آيات مختلفة ، منها ما جاء بلفظ الخطب ، ومنها ما جاء بلفظ الخطاب :

1 ـ 1 ما ورد بلفظ الخطب :

يقول ابن منظور: " الخطب : الشأن أو الأمر صغر أو عظم ، وقيل هو سبب الأمر . يقال : ما خطبك ؟ أي ما أمرك ؟ وتقول هذا خطب جليل ، وخطب يسير " [1].

ومن الآيات الواردة في هذا السياق :

1 ـ قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ الذاريات 31 .

[1] ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد الثاني ، ص 1194.

جاءت هذه الآيات في سياق سرد قصة النبي إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين أتوه بالبشرى . يقول ابن كثير في تفسيرها " أي ما شأنكم وفيم جئتم "[1].

2 ـ قال الله تعالى في سورة يوسف في شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يوسف عن نَّفْسِهِۦ ﴾ يوسف .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية :" إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطبا لهن كلهن ـ وهو يريد امرأة وزيره ، وهو العزيز ـ (ما خطبكن) أي ما شأنكن وخبركن " [2].

3 ـ قوله تعالى عن موسى مع ابنتي شعيب : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ القصص .

وردت الآية في سياق حديث الله عز وجل عن موسى عندما ورد ماء مدين ووجد الناس يسقون ومن دونهم امرأتان تنتظران فسألهما : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ . يقول ابن كثير " أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء " [3].

4ـ وقوله عن موسى مع بني إسرائيل : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿95﴾ ﴾ سورة طه .

قصة السامري عندما صنع عجلا له خوار لبني إسرائيل فعبدوه ، " يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت ؟ ما الذي عرض لك حتى فعلت ما

[1] إسماعيل بن عمر ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق ، سامي بن محمد السّلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية 1420 هـ / 1999م، المجلد السابع ، ص 422 .

[2] المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص 394 .

[3] المصدر نفسه ، المجلد السادس ، ص 226 .

فعلت ؟ "[1]، ويقول الزمخشري في تفسيرها :" الخطب ، مصدر خطب الأمر إذا طلبه ، فإذا قيل لمن يفعل شيئا :ما خطبك ؟ فمعناه ما طلبك له ؟ " [2]

فلفظ الخطب في هذه الآيات دال على الأمر والشأن ؛ سواء كان عظيما أو يسيرا ويحمل معنى الخبر .

ب / ما ورد بلفظ الخطاب:

جاء بصيغتي الفعل والمصدر والآيات في ذلك معدودة ّ ؛ أما ما وردت فيها اللفظة بصيغة الفعل فهي :

1/ قال الله تعالى : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿37﴾﴾ هود 37 .

2/ وقال ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿27﴾﴾ المؤمنون .

خطاب الله عز وجل لنبيه نوح عليه السلام بعد غرق قومه بالطوفان ، يقول الزمخشري في تفسيرها :" لا تدعني في شأن قومك و استدفاع العذاب عنهم بشفاعتك"[3].

[1] إسماعيل بن عمر ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، المجلد الخامس ، ص 313 .

[2] جار الله محمد بن عمر الزمخشري (467هـ ـ 538 هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى 1418 هـ / 1998م ، الجزء الرابع ، ص105 .

[3] المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص 197 .

3/ قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿63﴾ ﴾ الفرقان .

وردت الآية في سياق ذكر صفات عباد الرحمن المؤمنين ، قال ابن كثير : "إذا سفه عليهم الجهال بالسيئ لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرا"[1].

وأما الآيات التي وردت فيها اللفظة بصيغة المصدر فهي ثلاث آيات ، مرة نكرة ، ومرتين معرفة :

1/ قال عز وجل : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿37﴾ ﴾ سورة النبأ .

الآية في وصف موقف الحشر يوم القيامة ، قال ابن كثير: " لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه " [2]، وقال عبد الرحمن السعدي: " فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين : أن يأذن الله له في الكلام ، وأن يكون ما تكلم به صوابا "[3]. فالمقصود بلفظ الخطاب في هذه الآية هو الكلام .

2/ قال الله عز وجل عن نبيه داوود : ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿20﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿21﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ

[1] ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، المجلد السادس ، ص 122 .

[2] المصدر نفسه ، المجلد الثامن، ص 309 .

[3] عبد الرحمن بن ناصر السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، دار الإمام مالك باب الوادي الجزائر ، الطبعة الأولى (1430 هـ / 2009م) ص 845 .

ٱلصِّرَٰطِ ﴿22﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿23﴾ ﴾ سورة ص .

وردت لفظة الخطاب في هذه السورة مصدرا معرفا مرتين ، ولكن معناها في الآية الأولى يختلف عن الثانية ، وقد وقف المفسرون على هذه الآيات لتحديد المعنى الذي تحمله اللفظة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ ، حيث جاءت في سياق ما آتى الله عز وجل داود من الصفات التي تميز بها عن غيره .

سرد ابن كثير عدة روايات في تفسير هذه الكلمة، منها أن فصل الخطاب يقصد به الشهود والأيمان ، ومنها إصابة القضاء وفهمه ، ومنها الفصل في الكلام وفي الحكم ، ومنها قول :(أما بعد) [1]، أما قوله : ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾ أي غلبني[2].

أما الزمخشري فيفصّل الحديث في معاني هذه الكلمة بقوله:" فمعنى (فصل الخطاب): البيّن من الكلام الملخص الذي يتبيّنه من يخاطب به لا يلتبس عليه ، ومن فصل الخطاب وملخصه : ألا يخطئ صاحبه مظانَّ الفصل والوصل ... وأردت بفصل الخطاب : الفاصل الذي يفصل بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، وهو كلامه في القضايا والحكومات ، وتدابير الملك و المشورات " [3].

أما ما أورده فخر الدين الرازي في بيان معنى فصل الخطاب فكان أكثر تفصيلا وبيانا إذ يقول : " إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتّب المنظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب

[1] ينظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، المجلد السابع ، ص 59 .

[2] ينظر : المصدر نفسه ، المجلد السابع ، ص 60 .

[3] الزمخشري ، الكشّاف ، الجزء الخامس ، ص251 .

القول ، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب في بعض الوجوه ، ومنهم من يكون قادرا على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أكمل ، وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ، ولما بين الله تعالى كمال حال النفس النطقية لداود بقوله : ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ وهذا الترتيب في غاية الجلالة ...لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال ، بحيث لا يختلط شيء بشيء ، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام "[1] .

دلّ هذا النص للرازي على أن معنى لفظ (الخطاب) متعلق بالتعبير والقدرة على إبلاغ القصد من الكلام إلى المتلقي دون أي خلل أو خلط في الكلام ، وهذا ما يستدعي كون الكلام مرتبا منظما مضبوط المعنى، يهدف لإبلاغ غاية مقصودة في نفس المتكلم.

إن المتأمّل في الآيات التي ورد فيها لفظ الخطاب والنظر في أقوال المفسرين ، يجد أن معانيها في الآيات الثلاث يتمحور حول الكلام ، وبذلك يكون مدلوله متعلقا بطرفي الخطاب: المرسل والمتلقي ، ثم القصد الذي يحمله في ذاته ومتصلا بسياق محدد ، ففي آية (سورة النبأ) فقد ورد في سياق موقف يوم القيامة ، أما في آيتي (سورة ص) فقد ورد في سياق تخاصم الإخوة عند داوود عليه السلام ، والمعاني الثلاثة توحي بالكلام .

[1] محمد الرازي فخر الدين ، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى 1401 هـ / 1981 م ، جزء 26 ، ص 187 ، 188 .

2 دلالة لفظ الخطاب عند الباقلاني :

وأما ما جاء في بيان دلالة لفظ الخطاب في كتاب إعجاز القرآن فهذا بعضه :

ـ قال الباقلاني في سياق حديثه عن عجز العرب وعدم قدرتهم على معارضة القرآن بعدما حاولوا مقاربته بما لديهم من خطابات : " ينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة ، وإلا فإن مقتضى ما قدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب ، ويتقن مصارف الكلام ، وكان كاملا في فصاحته، جامعا للمعرفة بوجوه الصناعة ، لو أنه أحتجّ عليه بالقرآن ، وقيل له إن الدلالة على النبوة ، والآية على الرسالة ، ما أتلوه عليك منه ، لكان ذلك بلاغا في إيجاب الحجة ، وتماما في إلزامه فرض المصير إليه"[1].

ـ وقال في حديثه عن نظم القرآن : " إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم و مباين لأساليب خطابهم "[2] ثم يفصل أنواع الخطابات العربية من سجع وشعر، إلى أن يقول عن الطاعنين في القرآن :" ومنهم من يدّعي أنه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب "[3].

ـ وفي سياق كلامه عن القرآن الكريم وما يتضمنه من أقاصيص الأولين وأخبار المرسلين والأخبار عن الغيوب يقول: " فلا يخرج عن أن يكون متأولاً على ما يقتضيه نظام الخطاب ، من أنه لا يأتيه الباطل من شبهة سابقة تقدح في معجزته ، أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده أمر يشكك في وجه دلالته ، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه " [4] .

---

[1] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 72 .

[2] المصدر نفسه ص 102 .

[3] المصدر نفسه ، ص 102 .

[4] المصدر نفسه ، ص 61 .

وكذلك قوله في كون القرآن أعجميا في آية فصلت يقول :" فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم ... " [1] .

ـ وقال معبرا عن عجز العرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن : " والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحدّاهم إليه حتى طال التحدي وجعله دلالة على صدق نبوته ، وتضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه ، بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم ، ومألوف في خطابهم " [2].

ـ وقال : " من كان يعرف وجوه الخطاب ويتقن مصارف الكلام ، وكان كاملا في فصاحته ، جامعا للمعرفة بوجوه الصناعة ، لو أنه احتج عليه بالقرآن ، وقيل له إن الدلالة على النبوة ، والآية على الرسالة ، ما أتلوه عليك منه ، لكان ذلك بلاغا في إيجاز الحجة "[3].

ـ وقال : " فأما من كان متناهيا في معرفة وجوه الخطاب ، وطرق البلاغة ، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة ، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه " [4] .

ـ وقال : " وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام وأنواع الخطاب ، ووجد القرآن مباينًا لها، علم خروجه عن العادة " [5] .

ـ وما ذكره في وجوه إعجاز القرآن التي منها بديع النظم ، وأرجع ذلك إلى جملة القرآن، فيقول: " وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه خارج عن المعهود في نظام جميع

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 61

[2] المصدر نفسه ، ص 68 .

[3] المصدر نفسه ، ص 72 .

[4] المصدر نفسه ، ص73 .

[5] المصدر نفسه ، ص 74 .

كلامهم و مباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد " [1].

ـ قال عند تفصيله لأقسام الخطاب حسب بلاغته : " الذي ينقسم عليه الخطاب : من البسط والاقتصاد والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح و التجوُّز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم " [2].

وعليه فمصطلح الخطاب عند الباقلاني مرادف الكلام ، حيث يعبر به عن أساليب الكلام ، و يقصد بها كلام العرب من شعر وسجع وخطب ورسائل وغيرها من فنون القول عند العرب .

كما أن القرآن الكريم داخل في معنى الخطاب ، فهو كثيرا ما يستعمل عبارة (الخطاب القرآني) ، والخطاب يقتضي وجود مرسل ومتلقي وسياق وقصد، ويتميز في أسلوبه عن غيره من الأساليب المعهودة في كلام العرب وخطاباتهم .

3 أنواع الخطاب عند الباقلاني :

إن الخطاب القرآني لما يحمله من مميزات يختص بها دون غيره ، يعتبر خطابا ربانيا مقدسا يتضمن إعجازا لغويا وبلاغيا خاصا ، وقد سعى الباقلاني إلى تأكيد ذلك ، فهو خارج عن فنون الكلام المعروفة وقت نزوله .

وقد اعتمد الباقلاني في تقسيم الخطاب على ما هو سائد في الثقافة العربية في العصر الجاهلي ، إلى ثلاثة أقسام هي: الشعر ، و الرسائل ، و الخطب ، وجعلها أصولا لما يكون به التفاصح ، و تقصد به البلاغة [3]، والمراد بذلك أن العرب قديما إنما

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص76.

[2] المصدر نفسه ، ص 93 .

[3] ينظر : المصدر نفسه ، ص 54 .

يتفاخرون بفصاحتهم ويظهر تفاوتهم في البلاغة من خلال هذه الأصول الثلاثة ، و يضربون لأنفسهم أسواقا يلقون فيه أفصح الخطب وأبلغها ، ويتناشدون فيها أجود الشعر وأحسنه، ويتحاكمون فيه ؛ فمن أجاد فيها ، فقد أجاد القول .

وقد أضاف تفصيلا آخر لأنواع الخطاب التي ذكرها في البداية ، فزاد السجع لأنه يكثر في استعمال كلامهم ، ثم جعل تلك الأنواع في صنفين رئيسين فقال : " قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى : نظم ونثر " [1] ، فالأول نظم الشعر ، أما الثاني فتندرج ضمنه الخطب والرسائل والسجع .

للخطاب مظاهر متنوعة في الثقافة التي ينتمي إليها ، إذ يعكس التنوع المعرفي الحاصل فيها ، ويتنوع بتنوع الكيفيات التي يُعرض بها بحسب المواقف الاجتماعية والثقافية التي تفرض نوعيته ، وهذا الذي يحدد المجال الذي ينتمي إليه انطلاقا من موضوعه وبعض مميزاته .

ويمكن أن نستنبط أنواع الخطاب من خلال ما أورده الباقلاني في الإعجاز ، حيث عرض مقابلة بين نوعين من الخطابات : الخطاب القرآني والخطاب البشري ، وبذلك يكون تقسيم الخطاب عند الباقلاني كالتالي :

1 / الخطاب القرآني : يتميز عن غيره من الخطابات بنظمه الفريد ، حيث يفوقها أسلوبا وبلاغة وفصاحة وجمالا .

2/ الخطاب البشري : وفيه نوعين :

1/ الخطاب النبوي : وهو كلام الرسول ، حيث يعتبر الأقرب إلى الخطاب القرآني ، إلا أنه أقل درجة منه لكونه صادر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه النقطة

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 116 .

عالج الباقلاني قضية كون الأحاديث النبوية هل هي وحي من الله عز وجل لفظا ومعنى أم أنها وحي بالمعنى فقط ، وهنا تختلف الأحاديث عن الخطاب القرآني بأنه من الله عز وجل لفظا ومعنى .

2/ الخطاب الأدبي : يتمثل في النصوص الإبداعية العربية سواء كانت شعرية أم نثرية، حيث عرض مجموعة من النصوص الشعرية التي تعد من أجود القصائد العربية لشعراء مجيدين ، ومجموعة من النصوص النثرية المتمثلة في خطب لأشهر الخطباء العرب ، وقام بموازنة بينها من جهة وبين القرآن الكريم من جهة أخرى ليثبت تفرد الخطاب القرآني في أسلوبه ونظمه وانسجامه عن غيره من الخطابات الأخرى التي عرضها ، وقدم تحليلات نقدية لها.

ثانيا : مبدأ انسجام الخطاب عند الباقلاني

1 مفهوم الانسجام

1 ـ 1 في الاصطلاح اللغوي :

قال ابن منظور في لسان العرب:" سجمت العين الدمع ، والسحابة الماء ، تسجِمهُ وتسجُمُهُ سجما وسجوما وسجمانا ، وهو قطران الدمع و سيلانه ... وانسجم الماء والدمع فهو منسجم إذا انسجم ، أي انصبَّ " [1].

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة :" السين والجيم والميم أصل واحد ، هو صب الشيء من الماء والدمع ، يقال سجمت العين دمعها ، وعين سجوم ، ودمع مسجوم، ويقال أرض مسجومة : ممطورة "[2].

[1] ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الثالث ، ص 1948.

[2] أحمد بن فارس : معجم مقاييس اللغة ، الجزء الثالث ، مادة سجم ، ص 145 .

أما الزمخشري في أساس البلاغة فيسرد معاني الانسجام بقوله :" دمع ساجم ومسجوم ومنسجم ، ودموع سواجم وعيون سواجم ، و سجمت العين دمعها سجما و سَجَمَ الدمع سجوما ، ومن المجاز : مطر وسحاب ساجم و سجَّام " [1] .

فمن خلال تتبع معاني الانسجام في المعاجم اللغوية نجد أن دلالته تتمحور حول صب الماء و سيلانه وكذلك الدمع ، وهذا يوحي بالانحدار والتتابع والاستمرار دون انقطاع و انحباس .

1 ــ 2 الانسجام في التراث العربي :

جاءت لفظة الانسجام في التراث العربي مقترنة بالكلام، فقد أورده الكفوي في (كتاب الكليات) قائلا :" الانسجام : هو أن يكون الكلام لخلوه من العقادة منحدرا كتحدر الماء المنسجم لسهولته وعذوبة ألفاظه وعدم تكلفه ليكون له في القلوب موقع وفي النفوس تأثير "[2].

ذكر الكفوي في تعريفه للانسجام أثر الكلام على متلقيه ، فاشترط أن يكون عفويا ليس فيه تكلف ، وأن يؤثر في نفسية المتلقي ليحكم عليه بالانسجام؛ ولذلك شبهه بالماء المتحدر؛ فالماء المتحدر يرتبط بعضه ببعض دون انقطاع، والكلام الذي يتصف بالانسجام و سهولة التراكيب وعذوبة الألفاظ والخالي من التعقيد، حيث يجعل القارئ "يتحرك بسهولة من جملة إلى أخرى، ويقرأ النص كوحدة واحدة وليس مجموعة من الجمل المنفصلة، ومعها يصبح النص وحدة اتصالية متجانسة "[3] مثل الماء المنسجم الذي يتصف باستمرارية التدفق وعدم الانقطاع .

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري : أساس البلاغة ، مادة سجم ، الجزء الثاني ، ص 440 .

[2] الكفوي : الكليات ، ص 196 .

[3] عزة شبل: علم لغة النص النظرية والتطبيق : ص 184.

1 ـ 3 الانسجام في الدراسات النصية الحديثة :

يمثّل الانسجام النصي بؤرة الدراسات اللسانية النصية ، و يعد أحد المعايير الأساسية التي وضعها دي بوجراند و التي تتحقق بها نصية النصوص ، ورغم استعمال الدارسين لعدة مصطلحات مختلفة للدلالة على معنى الانسجام كالالتحام ، والترابط المفهومي، والحبك ، إلا أنها تصب جميعا في معنى الانسجام الذي يبحث عن العلاقات الذهنية التي تربط بين مكونات النص من الناحية الدلالية.

إذا كان الاتساق النصي يهتم بالكشف عن الوسائل والأدوات اللغوية الظاهرة على سطح النص ويكشف عن الكيفيات التي يتماسك بها من الناحية الشكلية ، فإن الانسجام يهتم بالبنية العميقة له.

يقول سعد مصلوح : " معيار الحبك يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص"[1]، ثم يذهب إلى شرح ذلك قائلا :" ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم"[2]، فالنص عبارة عن سلسلة من المعاني يخضع ترابطها في بنيتها العميقة إلى مجموعة من العلاقات الدلالية التي توحي للقارئ بتماسك النص .

و يرى دي بوجراند أن الانسجام يتطلب من الإجراءات ما تتنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي و تشتمل وسائله على العناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص و معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف[3]، وهذه المعلومات يستنبطها المتلقي من السياق . وهذا ما أكّد عليه محمد

---

[1] سعد مصلوح : نحو أجرمية للنص الشعري ،دراسة في قصيدة جاهلية ،مجلة فصول مجلد 10 ،عدد 1-2 (م1991)، ص154.

[2] المرجع نفسه ، ص154.

[3] ينظر : روبرت دي بوجراند : النص والخطاب والإجراء ، ص103 .

خطابي في بيان وجهة نظر يول و براون بأن " الخطاب يستمد انسجامه من فهم وتأويل المتلقي" [1].

يحدد محمد خطابي من هذا المنطلق دور المتلقي في اكتشاف وبناء الانسجام بالاعتماد على ما يحيط به من سياقات ومعارف محيطة بالخطاب ، ويبيّن الكيفية التي يعتمدها في ذلك من خلال قوله : " المتلقي ينطلق من افتراض أن الخطاب ، كيفما كانت طريقة تقديمه ، ورغم خلوه من الروابط الشكلية ، خطاب منسجم ، ثمّ يبحث بعد ذلك عن العلاقات الممكنة من أجل بناء انسجامه ، وبالتالي الوصول إلى قصد الرسالة التي ينقلها الخطاب ، بالإضافة إلى ذلك يعتمد المتلقي على ما تراكم لديه من تجارب سابقة في مواجهة أمثال هذا الخطاب ، وكذلك الاحتمالات الممكنة في إخراج النصوص، بل كثيرا ما يملك المتلقي معرفة أعلى مما يقدمه الخطاب نفسه "[2].

يؤكد خطابي على أن " كل نص قابل للفهم والتأويل فهو نص منسجم" [3] ، وذلك أن اكتشاف خاصية الانسجام في النصوص يستند أساسا على عملية التأويل التي يقوم بها المتلقي انطلاقا من معرفته بالسياق ، وبالتالي يمكن القول أن هناك عناصر أخرى مساعدة في تحقيق الانسجام وهي المتلقي والسياق .

وهذا ما أوضحه دومينيك مانغونو بقوله :" إن الانسجام ليس ثاويا في النص ، بل إن المتلفظ المشارك هو الذي يتولى بناءه ... والحكم الذي يقتضي بأن النص منسجم أو غير منسجم قد يتغير وفق الأفراد ووفق معرفتهم بالسياق "[4] .

---

[1] محمد خطابي : لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص 51

[2] المرجع نفسه ، ص 52 .

[3] المرجع نفسه ص 52 .

[4] دومينيك مانغونو : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد يحياتن ، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة ، الطبعة الأولى 2008 م ص 21 .

وعليه فليس من السهل إيجاد مفهوم موحد بين الدارسين للانسجام ، وإنما هي تقاربات في المفاهيم التي تصب في قالب واحد، وتؤسس الانسجام على تلك العلاقات الخفية التي تربط بين عناصر النص من الناحية الدلالية ، وتسمح بتحقيقه وبنائه لدى المتلقي عبر آليات الفهم و التأويل التي تعتمد أساسا على السياقات المحيطة بالنص .

2 الانسجام عند الباقلاني :

انطلق الباقلاني كغيره من علماء القرآن والإعجاز من قضية عقائدية تتعامل مع الخطاب القرآني على أنه يتميز بمبدأ الانسجام ، وأخذ على عاتقه مهمة البحث عن الآليات التي يمكن بها إظهار هذا الانسجام ، ثم الكشف عن أسراره .

يرى أن من بين أسرار الإعجاز القرآني ما يحتويه هذا الخطاب الرباني من انسجام وتماسك بين أجزائه، رغم طوله وتعدد سوره واختلاف مواضيعه وتباعد أزمنة نزوله . فقد تعرض القرآن الكريم إلى حملات شرسة تطعن في تماسكه ، وتروّج لفكرة أن القرآن نص مشتت ، فكيف لهذا الكتاب الذي أنزل في أكثر من عشرين سنة بأن يكون نصا منسجما ومتماسكا في بنائه ومعانيه ؟ ولهذا سعى علماء القرآن والإعجاز لرد هذه الأقاويل بالحجة والدليل .

ذهب علماء الدراسات القرآنية مذاهب شتى لإبراز انسجام الخطاب القرآني واكتشاف مواطن الإعجاز فيه ، فاتجه نفر منهم إلى دراسته ضمن منهج السياق والبحث عن أسباب النزول ومعرفة المكي والمدني ومعرفة فواصل الآيات ، واتجه نفر آخر إلى تحليله ضمن علم المناسبات الذي يعبر عن مدى تماسك أجزاء الخطاب القرآني ، والنفر الثالث ومنهم الباقلاني اعتمدوا في دراستهم له على مبدأ النظم كأداة إجرائية تثبت انسجامه ، ليصبح فيما بعد نظرية قائمة في الإعجاز القرآني .

إن دراسة الباقلاني للإعجاز القرآني هي محاولة للكشف عن انسجام القرآن الكريم وترابط أجزائه ، على المستوى الظاهري له ، وعلى المستوى العميق ، مستندا على آلية النظم لإبراز ذلك ، فقد أسس نظريته في الإعجاز على هذا المبدأ الذي كان يعتمده كآلية من الآليات الإجرائية في تحليل الخطابات .

وقد تجلت نظرته النصية من خلال تحليله لمعلقة امرئ القيس ، ولامية البحتري ، وتأكد تطبيقه لمبدأ النظم من أجل الكشف عن مدى انسجام أبيات المعلقة مع بعضها من ناحية تناسب الألفاظ مع بعضها ، وكذا مناسبتها للمعاني ، والطريقة نفسها انتهجها مع لامية البحتري ، حيث حاول في غير موضع أن يبرز الخلل الذي وقع فيه الشاعران، رغم كونهما من فحول الشعراء وإجادتهما في فنون القول ، ومع ذلك فقد بيّن الباقلاني أن شعرهما ينتابه الكثير من الخلل والتذبذب في نظمه مقارنة مع أسلوب القرآن الكريم الذي يتفرد نظما وتأليفا ، وهذه هي غاية الباقلاني من وراء مقارنته بين نظم القرآن الكريم ونظم القصيدتين .

وإذا كان الباقلاني قد كشف عن ضعف في نظم القصيدتين ، فإنه في المقابل عند تحليله لجزء من سورة النمل اتجه إلى الرفع من قيمة نظم الأسلوب القرآني من خلال بيان العلاقات الرابطة بين الآيات داخل سياق السورة الواحدة ، و العلاقات الرابطة بين الآيات داخل سياق القصة الواحدة ، وبهذا يؤكد انسجام الخطاب القرآني على مستوى السورة ، أو على المستوى الكلي .

يدعو الباقلاني من خلال مبدأ النظم إلى البحث عن العلاقات الرابطة بين ألفاظ القرآن الكريم وآياته ، و لم يكتف بالبحث عن الروابط الشكلية بينها ، بل تعدى ذلك إلى البحث عن العلاقات الخفية و ارتباط المعاني ببعضها ، فالهدف الأساسي له في كتابه هو الدفاع عن القرآن الكريم باعتباره خطابا منسجما ، وما اعتمد على فكرة النظم إلا لإثبات انسجامه .

وإذا تأملنا مضمون الكتاب ، وتحليلاته للقصائد الشعرية ، فإننا نجد أول ما يبدأ به في نقدها هو كونها تتصف بصفة الانسجام أم لا ، وذلك لاستعماله لعبارة (بيت منقطع عما قبله) وغيرها من العبارات التي توحي بالمعنى نفسه ، ثم يذهب إلى نفي صفة الانقطاع عن القرآن الكريم، ويثبت أن" نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه ، فإن العقول تتيه من جهته وتحار في بحره ، وتضلّ دون وصفه "[1] .

وإذا عرضنا قصة الوليد بن المغيرة التي تحدثنا عنها سالفا ، فإننا نستأنس ببعض اللطائف في هذا الموضوع ؛ فعندما سمع القرآن الكريم عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعاد إلى قريش وقال لهم :" فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله لا يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، و والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطّم ما تحته " [2].

وكذا قصة عتبة بن ربيعة عندما قال: "سمعت قولا ما سمعت به قط ، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهره على العرب به فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا سحرك بلسانه، قال هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم "[3].

---

[1] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 225 .

[2] ينظر: جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج2 ، ص 1003 .

[3] ينظر : عبد القاهر الجرجاني ، الرسالة الشافية ، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) تحقيق محمد خلف الله احمد و محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 1976م، ص 124 .

يقول (عبد القاهر الجرجاني) معلقا عن العرب ومواقفهم لما سمعوا كلام الله عز وجل وتأثروا به ولم يجدوا له نظيرا في ثقافتهم على نطاقها الواسع ، وقد وقفوا أمامه عاجزين عن مجاراته ، وليس لهم سبيل للطعن فيه : " وبهرهم أن تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى و أخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما ..."[1].

فإذا تأملنا هذه الأقوال لكبراء قريش في الجاهلية ، وحاولنا النظر إليها من زاوية لسانية واجتماعية ، نتبيّن أنهم متيقنون من كون هذا النص اللغوي الراقي في الأسلوب ، يفوق نصوصهم أسلوبا وجمالا وبلاغة وفصاحة ونظما ، وإنما يبحثون فيه عما ينتقصونه به، وليس ذلك بعيدا عن مألوف عاداتهم الكلامية ، فقد عرضوه على سياقات ثقافية ولغوية واجتماعية مختلفة ، فعرضه الأول على أسلوبهم في الشعر ، وهو أعلمهم بلغتهم كما قال ، وعرضه الثاني على السحر والكهانة وما يوافق سياقاتهم الثقافية والاجتماعية ، ولكن عادوا خاسئين ولم يجدوا له مأخذا يأخذونه به .

يستند الباقلاني في بيان انسجام الخطاب القرآني على آلية النظم ، حيث يرى أنه خاضع لنظمه وتأليفه مما يجعل منه خطابا منسجما متميزا عن غيره من الخطابات التي ألفتها العرب في كلامها ، وقد استعمل في كتابه (إعجاز القرآن) العديد من المصطلحات التي توحي بالتماسك والانسجام في الخطاب القرآني مثل : النظم ، الرصف ، حسن التأليف، التناسب ، حسن السبك التلاؤم ، الوصل ، وغيرها مما يدل على ترابط أجزاء الخطاب وانسجامه .

[1] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص39 .

ثالثا : مظاهر الانسجام عند الباقلاني :

يسعى هذا الجزء من البحث إلى استنباط بعض مظاهر الانسجام وفق نظرة الباقلاني إلى الخطاب القرآني والخطاب الشعري ، وهذه أهما:

1 النظم :

يعتبر مبدأ النظم أبرز مظهر من مظاهر انسجام الخطاب عند الباقلاني ، حيث تميّز القرآن الكريم عن غيره من الخطابات السائدة في الثقافة العربية بهذه الخاصية، وذلك أن " نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه ، فإن العقول تتيه في جهته وتحار في بحره ، وتظل دون وصفه " [1]، فيبقى نظم القرآن متفردا عما سواه من فنون الكلام عند العرب قبل نزوله وأثناء نزوله وبعد نزوله ، لذلك نجد الباقلاني يعتمد على الموازنة بينه وبين نصوص من عصور مختلفة لتكون أحكامه موضوعية ولا تميل على الذاتية .

إن انسجام الخطاب القرآني يُكتشف ضمنيا من خلال آلية النظم وما تعتمد عليه من أدوات إجرائية يترابط بها النص القرآني على مستوى الألفاظ وعلى مستوى المعاني ، وقد أشار الباقلاني إلى أن النظم متعلق بانتظام المعاني في النفس فيؤول إلى انتظام الألفاظ في الكلام.

أصبح معيار النظم يأخذ حيزا كبيرا في بيان انسجام القرآن الكريم ويشكّل مبدأ أساسيا من مبادئ علم الإعجاز القرآني ، وذلك ما ذهب إليه أشرف عبد البديع في دراسته التأصيلية لنحو النص في كتب إعجاز القرآن ، حيث أكد أن " وجود النظم من خلال التركيب إنما يجعله ضمن شبكة من العلاقات الخارجية و الداخلية ، تتفاعل فيما

[1] أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن ، ص 225.

بينها لانسجام بنيات النص " [1]، وقد أكد فخر الدين الرازي أن " القرآن الكريم كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه ، وشرف معانيه ، فهو أيضا لسبب ترتيب ونظم آياته "[2].

2 تغيّر موضوع الخطاب

جعل الباقلاني تغيّر موضوع الخطاب عنصرا أساسيا في انسجام الخطاب ، وأشار إليه عند حديثه عن البحتري مقارنا أسلوبه بنظم القرآن وأسلوبه البديع في الانتقال من موضوع إلى آخر رغم أنه متعدد المواضيع ، وبين أن البحتري عاب عليه النقاد تقصيره في ذلك .

قال الباقلاني :" ألا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره ، والخروج من باب إلى سواه ، حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري ـ مع جودة نظمه وحسن وصفه ـ في الخروج من النسيب إلى المدح ، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء " [3]، وبين " أن القرآن ـ على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة ــ يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب ، وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ، ويخرج به الكلام عن حد العادة ، ويتجاوز العرف " [4] ، ويكون متميزا عما ألفه العرب في خطاباتهم من سبل لتنقل الشعراء من موضوع إلى آخر دون أن يحس بذلك المتلقي.

وقد ضرب الباقلاني مثلا في حسن التخلص والخروج من معنى إلى معنى ، وذلك لما فصّله في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ ، وما احتوت عليه هذه

[1] أشرف عبد البديع ، الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن ص 102 .

[2] فخر الدين الرازي ، التفسير الكبر ، ج 2 ، ص 977 .

[3] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 89.

[4] المصدر نفسه ، ص 89 .

السورة كغيرها من سور القرآن من حسن الانتقال من كلام إلى آخر وملاءته لما قبله [1]، وذلك ما يميز الأسلوب القرآني عن غيره .

يقول الباقلاني مبرزا تغير موضوع الخطاب في قصة سيدنا سليمان مع بلقيس: "متى تهيأ لآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية ، هذه الكلمة الشريفة العالية ((أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿31﴾)) سورة النمل ، و الخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير و اشتغلت به من المشورة ، ومن تعظيمها أمر المستشار ، ومن تعظيمها أمرها ، وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة ، والكلمات العجيبة البليغة ، ثمّ كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿32﴾)) سورة النمل، وذكر قولهم : ((قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿33﴾)) سورة النمل ، تعلم براعة نفسه وعجيب معناه ، وموضع اتفاقه في هذا الكلام ، وتمكّن الفاصلة ، و ملاءمة لما قبله " [2]

بعدما بيّن الباقلاني في هذا المقطع أسلوب القرآن الكريم في حسن الانتقال من موضوع إلى آخر ، ذهب ليبيّن أهمية الاختصار والإيجاز في الأسلوب القرآني في إبلاغ المراد إلى الأفهام بأبسط السبل وأدق الألفاظ وأقصر العبارات للدلالة على أوضح المعاني وأبلغها ، مشبها في ذلك قول الله تعالى بنظم الأحجار الكريمة ، قائلا :" ثمّ فكر بعد ذلك فيه آية آية ، أو كلمة كلمة في قوله : ((قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿34﴾)) (النمل) . هذه الكلمات الثلاث:

[1] ينظر: أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 232 .

[2] المصدر نفسه ، ص 232 .

كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره ، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره ، ثم تأمل تمكن الفاصلة ـ وهي الكلمة الثالثة ـ وحسن موقعها و عجيب حكمها و بارع معناها " [1].

يتبيّن لنا من خلال تعامل الباقلاني مع هذه الآيات الموزعة على سور مختلفة أنه اعتمد على مبدأ الانسجام ، انسجام هذه الآيات في إطار النظرة الكلية للخطاب القرآني.

3 النظرة الكلية إلى النص القرآني :

انتهج الباقلاني في دراسته للنص القرآني سبيل القراءة الكلية والنظرة الشمولية ، حيث يبيّن ذلك قائلا عن أسلوب القرآن الكريم :" إذا تأمله المتأمل تبيّن ـ بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ـ أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز ، وهذه الخصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتميّز حاصل في جميعه "[2]. فالنظرة الكلية إلى القرآن ، والتعامل معه كوحدة كلية متكاملة الأجزاء هي الأساس الذي انطلق منه الباقلاني لبيان تفرد أسلوبه عن باقي أساليب العرب في الكلام .

ومن مظاهر انسجام الخطاب عند الباقلاني قضية ائتلاف وتلاؤم الألفاظ مع بعضها في إطار السياق الواحد للنص ، وكذلك التناسب بين الألفاظ ومعانيها، وسيأتي تفصيلها في تحليله لمعلقة امرؤ القيس وقصيدة البحتري .

رابعا : نماذج من التحليل النصي للخطاب عند الباقلاني

حاول الباقلاني أن يجري مفاهيم نظريته في الإعجاز على المستوى التطبيقي ، متّخذا من الخطاب القرآني والخطاب الشعري ميدانا لذلك ، فنراه يستند على مبدأ المقارنة بينهما من أجل تحقيق غايته في الدراسة، و" يعمد في هذه المقارنة إلى شعراء أجمع النقاد على عظم شأنهم ورفعة أقدراهم فيختار شاعرا من العصر الجاهلي كامرئ

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 233.

[2] المصدر نفسه ، ص 86 .

القيس ، وشاعرا من العصر العباسي كالبحتري ، ثم يختار قصيدة لكل منهما متفق على كبر محلها ، وصحة نظمها ، وجودة بلاغتها ، ورشاقة معانيها ، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها ، فيبيّن ما تخللها من نقص وفضول ، وما بها من تعسف وتكلف ، وما فيها من مزج بين الكلام الرفيع والوضيع ، ثم يبيّن فضل القرآن عليها ، وتناهيه في البلاغة "[1]، وبذلك تتحقق غايته في القول أن نظم القرآني الكريم متفرد عن المعتاد من الخطابات الشعرية العربية ، وأنه لا مجال للمقارنة بين نظمه ونظمها .

فالباقلاني في دراسته التطبيقية لهذه النصوص يجعل نصب عينيه غايته الأولى التي رسمها في بداية الكتاب ، وهي الاستدلال لإعجاز القرآن الكريم من خلال مقارنته بأجود الشعر ، لمعرفة الفرق الذي يفصل بينهما ، وأن نظم القرآن يخالف نظم كلام البشر .

1 قراءة الباقلاني لمعلقة امرئ القيس في ضوء فكرة النظم:

اهتم الباقلاني بتطبيق فكرة النظم من الناحية الإجرائية ، ليس فقط في الخطاب القرآني، وإنما تجاوز ذلك مبرزا كيفية تحققها على مستوى الخطاب الشعري ، فسعى إلى بيان مدى تحقق ذلك في نصوص شعرية ، واختار معلقة امرئ القيس لتكون مجالا تطبيقيا لدراسته النصية ، موازنا بينها وبين القرآن الكريم لتحقيق غرضه من المؤلف ، وهو بيان سر إعجاز القرآن الكريم وتفوق أسلوبه البياني عن الكلام العربي بخاصية النظم .

و قبل أن يبدأ الباقلاني في تحليله للمعلقة أكد على جودة شعر امرئ القيس ، وأنه لا ريب في براعته وفصاحته وإبداعه في طرق الشعر ، وأساليب الشعراء " وهو كبيرهم

[1] عبد القادر حسين ، اثر النحاة في البحث البلاغي ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، 1998م ، ص 224 .

الذي يُقرّون بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله ، وقائدهم الذي يأتمون به ، وإمامهم الذي يرجعون إليه"[1]، وغايته في ذلك هو بيان مكانة امرئ القيس وشعره بين الشعراء ، فإذا كان شعره على هذا القدر الذي وصفه من البراعة والبيان فإن الأحكام النقدية التي يطلقها عليه لا تحتاج إلى دليل ليعممها على سائر الشعر في بيان الفرق بينه وبين نظم القرآن الكريم.

يقول الباقلاني معلقا على تحليله لشعر امرئ القيس :" وإذا كنا قد أبنّا في القاعدة ما علمت، وفصلنا لك في شعره ما عرفت ، لم نحتج إلى أن نتكلم على شعر شاعر ، وكلام كل بليغ ، والقليل يدل على الكثير ، وقد بيّنا في الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب ، ومزيته عليها في النظم والترتيب ، وتقدمه عليها في كل حكمة وبراعة"[2]. فالباقلاني اعتمد على النموذج الأعلى في الشعر العربي ليعمم حكمه على سائر الشعر .

استهل تحليله بوصف المعلقة مبرزا محاسنها وخصائصها فقال :" وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورا اتبع فيها : من ذكر الديار ، والوقوف عليها ، إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه ، والتلميح الذي يوجد في شعره، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه ، من صناعة وطبع ، وسلاسة وعلو ، ومتانة ورقة ، وأسباب تحمد ، وأمور تؤثر وتمدح " [3].

بعد وصفه للمعلقة دعا القارئ إلى التأمل فيما سيفصله من نقد لها قائلا :" وإذا شئت أن تعرف عظم شأنه ، فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشعاره،

[1] أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن ، ص 254.

[2] المصدر نفسه ، ص 255.

[3] المصدر نفسه، ص 201 .

وما نبين لك من عواره على التفصيل " [1] . فقبل أن يبدأ الباقلاني في نقد القصيدة بدأ نقده بحكم مسبق بيّن فيه أن شعر امرئ القيس على جودته التي يراها النقاد إلا أن فيه نقصا وإخلالا .

انطلق الباقلاني في تحليله من مطلع المعلقة الذي يمثل أجود وأحسن ما فيها ، إذ يتخيره الشاعر ليكون عتبة نصية جاذبة للقارئ ، معبرا به عن حسن الاستهلال . فإن وفّق الشاعر وأجاد في نظم وسبك المطلع ، فالقصيدة تكون حسنة ، وقد شدد الباقلاني في نقده للمعلقة ، فذهب إلى تقويض الركن الأول منها ليسهل عليه نقد بقية أركانها ، رغم أنه اعترف بأسبقيته وإبداعه في نظم الشعر كما ذكرنا آنفا عندما قال : " وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورا اتبع فيها " [2].

كما أنه اعترف أيضا بإبداعه في المقدمة الطّللية وأن " هذا من البديع، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجع واسترجع ، كله في بيت "[3]. ورغم كل ما ذكره من محاسن القصيدة وجودتها ، إلا أن ذلك لم يمنعه من تقويض ركنها الأساس وهو المطلع وحكم عليه بالاختلال في لفظه ومعناه [4]، وهذا ما أكد عليه في مواضع كثيرة من تحليله للمعلقة بأنها لا تخلو من الخلل والنقص والضعف.

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 202 .

[2] المصدر نفسه ، ص 201 .

[3] المصدر نفسه، ص 202 .

[4] ينظر : المصدر نفسه، ص 203 .

وهذا مطلع المعلقة[1] :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمأل

بيّن الباقلاني الخلل الذي يراه في مطلع القصيدة ، ويرى أنه راجع إلى عدم التلاؤم بين اللفظ ومعناه فيقول : " فأول ذلك : أنه استوقف من يبكي لذكرى الحبيب ، وذكراه لا تقتضي بكاء الخلي ، وإنما يصح طلب الإسعاد في مثل هذا، على أن يبكي لبكائه ، ويرق لصديقه في شدة برحائه ، فأما أن يبكي على حبيب صديقه ، وعشيق رفيقه ، فأمر محال ، فإن كان المطلوب وقوفه وبكاءه أيضا عاشقا ، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه، والتواجد معه فيه"[2].

و أوضح أن في المطلع تناقضا وخللا من ناحية المعنى، وتساءل : هل يصح أن يدعو الواقف على الأطلال رفيقه للبكاء على عشيقه والتغزل به ؟ ثم انتقل إلى بيان أن في ذكر الأماكن التي ذكرها (الدخول ، توضح ، المقراة ، سقط اللوى) أن فيها حشوا وتطويلا في الكلام ، ثم بين أن هناك تناقضا في كلام الشاعر في البيت الثاني بين لفظتي (عفا و درس) في الأبيات التي تليه ، " لأن معنى (عفا و درس) واحد، فإذا قال لم يعف رسمها ، ثم قال قد عفا فهو تناقض لا محالة "[3]، وهنا اعتمد على

---

[1] امرؤ القيس : الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة ، مصر ، الطبعة الخامسة ، 1958، ص 8 . **وينظر** : شرح ديوان امرئ القيس ، شرح وتعليق أسامة صلاح الدين منينه ، دار إحياء العلوم بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1990 م ، ص 164 . و **ينظر** : أحمد بن الأمين الشنقيطي : شرح المعلقات ، تحقيق أحمد شتيوي ، دار الغد الجديد ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى 2007م ، ص 19 ، وينظر الباقلاني ، إعجاز القرآن ص 203.

[2] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ص 203 .

[3] المصدر نفسه ، ص 204 .

الربط بين الأبيات المتتالية للقصيدة وبيّن ذلك التناقض الذي بينها لأن كل بيت ليس مستقلا في معناه عن الآخر ، فهو ينطلق من مبدأ الكشف عن العلاقات الرابطة بين أبيات القصيدة مستعينا بآلية النظم .

ثم يواصل الباقلاني نقده لأبيات المعلّقة بعد ذكر كل بيتين مع بعضهما :

يقول الشاعر :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معوّل

يظهر بحث الباقلاني عن العلاقات الرابطة بين أبيات القصيدة جليا في تحليله للبيت الثالث وربطه بالبيت الأول قائلا :" والبيت الأول منهما متعلق بقوله (قفا نبك) ، فكأنه قال : قفا وقوف صحبي بها على مطيهم ، أو قفا حال وقوف صحبي "[1]. فهذا جانب من بحثه عن تماسك الأبيات فيما بينها وترابطها . وقد استعمل لفظي الانقطاع والتلاؤم للدلالة على تماسك الكلام وانسجامه في القصيدة أو عدم ترابطه وانقطاعه عن بعضه .

واستعمل مصطلح (النسج) للدلالة على نظم الكلام وانسجامه ، وذلك في سياق نقده لقول الشاعر :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشقّ وتحتي شقها لم يحول

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت عليّ وآلت حلفة لم تحلل

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 205 .

فبعد أن وصف كلام الشاعر في البيت الأول بالفحش والسخف والقبح ، وأن ليس في البيت لفظ بديع ومعنى حسن ، ورغم أن البيت الثاني متصل ومتعلق بالبيت الأول إلا أنه وصفه أنه كلام رديء النسج ، لأن النفس تستنكره ، و يشمئز منه القلب ، وليس فيه شيء من الإحسان والحسن[1] .

فبالرغم من أن حكم الباقلاني على الأبيات كان من منظور أخلاقي ، إلا أنه أشار إلى قضية لغوية تتمثل في ترابط البيتين من حيث المعنى، إذ وردا كلاهما في الغزل الماجن ، وهذا ما جعل الباقلاني يستقبحهما ، وأما وصفه للثاني بالرداءة في النسج ، فيعلل ذلك بأن ليس هناك فائدة لذكره لنا أن حبيبته تمنعت عليه يوما بموضع يسميه ويصفه[2].

وأشار إلى ذلك عندما تحدث عن موقع اللفظة في الكلام وتناسبها مع معناها في السياق ، فقال :" والكلام الغريب ، واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام ، قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها ،كقول الله عز وجل في وصف يوم القيامة : ((يوما عبوسا قمطريرا)) الإنسان الآية 10 ، فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب ما تحمد في موضعها "[3]، فالنسج هنا يشير به إلى نظم الكلام وحسن تأليفه ، واللفظة تؤثّر في نظم الكلام إذا استعملت في غير موقعها المناسب .

أما قول الشاعر :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

أغرّك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القــلب يفعل

[1] ينظر : أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 210 .

[2] ينظر : المصدر نفسه ، ص 210

[3] المصدر نفسه ، ص 218 .

وصف الباقلاني البيت الأول بالركاكة ، ثم ذهب إلى البحث عن العلاقة الرابطة بين الشطر الأول والثاني ، ورأى أن " المصراع الثاني منقطع عن الأول لا يلائمه ولا يوافقه " [1] ، ويربطه بالبيت الذي تقدمه ، ويبرر عدم ترابطهما بسؤاله :" كيف ينكر عليها تدللها والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدللـه ؟ "[2] والظاهر أن الباقلاني يعتمد في نقده على تناسق المعاني ومناسبتها لبعضها ، وإلا فالكلام غير متلائم ولا منسجم .

وإذا تتبعنا تحليلات الباقلاني لأبيات المعلقة و تأملناها يتبيّن أنه يركز في نقده على ناحية ارتباط المعاني وتناسقها مع بعضها ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى نظم المعاني مما يؤدي إلى انسجام القصيدة كلّها ، فنجده غالبا ما يبدأ في قراءته لكل بيتين متتاليين بعبارات كثيرا ما يكررها مثل : (البيت منقطع عن الأول ، غير متصل، لا يلائمه ، لا يوافقه ، خروج عن اعتدال الكلام ، لفظه ومعناه فيه خلل ، مختل النظم، خلط النظم و التأليف) وكل هذه العبارات توحي بأن شعر امرئ القيس لا يتميز بخاصية الانسجام ، وهذه هي الخلاصة التي يسعى الباقلاني إلى الوصول إليها ، وبالتالي يؤكد من خلال الموازنة بين المعلقة من جهة وبين الخطاب القرآني من جهة أخرى ، أن القرآن الكريم ينفرد عن غيره من الخطابات بخاصية الانسجام وحسن التأليف والنظم ، عكس الشعر الذي نجد أنه يتفاوت في ذلك .

يحاول الباقلاني أن يبيّن اختلال النظم في أبيات القصيدة ، وبالتالي عدم توفر عنصر الانسجام بينها مصرحا بذلك في تحليله لقول الشاعر :

وإن كنت قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي عن ثيابك تنسل

---

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 210 .

[2] المصدر نفسه ، ص 210 .

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

فبعد أن ذكر أن البيت الأول " قليل المعنى ركيكه وضيعه " [1]، ذهب إلى أن البيت الثاني معدود من محاسن القصيدة وبدائعها ، ورغم ذلك فهو لم يسلم من الخلل في المعنى ، وبين أن فيه عدم موافقته للأبيات التي قبله ، فهذا " البيت غير ملائم للبيت الأول ، ولا متصل به في المعنى ، وهو منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام لم يقتضي بكاءها ، ولا سبب يوجب ذلك ، فتركيب هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال "[2]، أي أن ذكر الشاعر للدموع لم يكن متعلقا بكلام سابق له عن البكاء، فكأن بين ذكر فاطمة وعتابه لها وبين ذكر الدموع لا توجد أية علاقة رابطة بين الكلامين .

ثم أوضح تباين مراتب شعر امرئ القيس في النظم وعدم انسجامه بين الكلام المتوسط والسوقي والحسن ، وأنكر عليه عدم تناسبه بين اللفظ والمعنى في كثير من الأحيان ، رغم كونه من المجيدين في نظم الشعر ، فيقول :" ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتا وكان بديعا ولا عيب فيه فليس بعجيب ، لأنه لا يُدّعى على مثله أن كلامه كله متناقض ، ونظمه كله متباين ، وإنما يكفي أن نبيّن أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال إنه يتقدم فيه أحدا من المتأخرين ، فضلا عن المتقدمين ، إنما قدم في شعره لأبيات قد برع فيها ، وبان حذقه فيها ، وإنما أنكرنا أن يكون شعره متناسبا في الجودة ، ومتشابها في صحة المعنى واللفظ ، وقلنا : إنه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كالمهل مستكرهة ، وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين سخيف مستشنع " [3]. ثم يستدل

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 211 .

[2] المصدر نفسه ، ص 212 .

[3] المصدر نفسه ، ص 212 .

على أن نظم القرآن الكريم وتأليفه مباين لنظم الشعر ، وأنه لا اختلاف فيه ، بقوله تعالى((**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**)) النساء ، الآية 8 .

نبّه الباقلاني إلى قضية ترتيب المعاني وذكرها متوالية لما لها من أثر في نظم الكلام وحسنه ، وأشار إلى علاقة الأبيات المتتالية مع بعضها في قول الشاعر:

فجئت وقد نضّت لنوم ثيابـها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

فقالت : يمين الله ما لك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

قال الباقلاني :" انظر إلى البيت الأول والأبيات التي قبله كيف خلط في النظم ، وفرط في التأليف ، فذكر التمتع بها ، وذكر الوقت والحال والحرس ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها ، ووصل إليها ، من نزعتها ثيابها إلا ثوبا واحدا ، والمتفضل الذي في ثوب واحد هو الفضل ، فما كان من سبيله أن يقدمه إنما ذكره مؤخرا ، وقوله: (لدى الستر) حشو ، وليس بحسن ولا بديع ، وليس في البيت حسن ، ولا شيء يفضل لأجله"[1].

يؤكد الباقلاني على النظم وما له من أثر في ترتيب المعاني ، حيث أن الشاعر أخّر ذكر أمور من حقها أن تقدم فقال :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا علي حراصا لو يسرون مقتلي

ثم قال :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفضل

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 217 .

ختم الباقلاني دراسته لأبيات القصيدة بخلاصة نقدية؛ فقال :" اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة ، وأبيات متوسطة ، وأبيات ضعيفة مرذولة، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة وأبيات معدودة بديعة ، وقد دللنا على المبتذل منها ، ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر الذي يروع السمع ، ويهول القلب ، ويكد اللسان ، ويعبس معناه في وجه كل خاطر ، ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر ، ولا يقد بمثله التمدح والتفاصح ، وهو مجانب لما وضع له أصل الإفهام ، ومخالف لما بني عليه التفاهم بالكلام"[1] .

و قبل أن ينهي تحليله للمعلقة ذكر بعض الأبيات التي يرى النقاد أنها من بديع شعر امرئ القيس في معلقته ، حيث وصفها بالمعدودة ، ومنها قول الشاعر :

و تُضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وبيّن أن ما جعلوه بديعا في هذا البيت هو ما يحتويه المصراع الأخير من كناية،"ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة لها من يكفيها "[2].

ومما نقله أيضا من استحسان النقاد في هذه المعلقة قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

[1] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 221 .

[2] المصدر نفسه ، ص221.

قارن الباقلاني هذه الأبيات بقول النابغة :

كليني لهمّ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب[1]

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يتلو النجوم بآيب [2]

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب[3]

وبيّن وجه المقارنة بينهما وقدّم أبيات امرئ القيس ،لاستحسان استعاراتها ،" وقد جعل للّيل صدرا يثقل تنحيه ، ويبطئ تقضيه ، وجعل له أردافا كثيرة ، وجعل له صلبا يمتد ويتطاول "[4].

وأضاف إلى ما استحسنه أيضا من باب البديع قوله :

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجـرد قيـــــد الأوابــد هيكـل

مكـرّ مفـرّ مقبــل مدبــر مـعا كجلمود صخر حطّه السيل من عل

وقوله أيضا :

له أيطلا ظبي وساقــا نعامة وإرخـاء سرحــان وتقريــب تتفــل

و يكتفي الباقلاني في العديد من أبيات المعلقة بشرح الألفاظ الغريبة ، ويبين معناها، ومن ذلك ما ذكره في قول الشاعر :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

---

[1] **كليني** : دعيني ، اتركيني . **ناصب** : منهك .بطيء الكواكب : أي أن ليله يطول . **ينظر** : ديوان النابغة الذبياني ، شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، 1996 م ، ط 3 ،ص 29 .

[2] **تقاعس** : وفي الديوان : تطاول . **آيب** : عائد ، **ينظر** : المصدر نفسه ، ص 29 .

[3] أي أن الليل الطويل جدّد همومه وأعادها بعد أن كادت أن تزول . **ينظر**: المصدر نفسه ، ص 29 .

[4] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 222 .

قال الباقلاني :" قوله (**أجزنا**) بمعنى قطعنا ، **الخبت** : بطن من الأرض ، **والحقف:** رمل معوج ، و **العقنقل** : المنعقد من الرمل الداخل بعضه في بعض " [1] ، وذكر أن هذا البيت جاء فيه بألفاظ غريبة وحشية .

ثم يتحدث الباقلاني عن التلاؤم بين المعاني وتناسبها، والذي يتحقق من خلاله الانسجام على مستوى المعلقة ، حيث بيّن ذلك في حديثه عن قول الشاعر :

فإن كنت قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي عن ثيابك تنسل

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

قال في بيان ذلك :" واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الأول ولا متصل به في المعنى ، وهو منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها ولا سبب يوجب ذلك، فتركيب هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال " [2]، وفي هذا الحكم إشارة واضحة من الباقلاني إلى قضية الانسجام بين أبيات القصيدة وما تخلفه من اختلال في المعنى الكلي لها بسبب اختلال النظم .

خلاصة حول قراءة الباقلاني لمعلقة امرئ القيس :

اهتم الباقلاني في تحليله للمعلقة بتقديم شروح لبعض المفردات المعجمية مثلما هو معمول في شروح القصائد المطولة ، وبين مواضع الكلمات في البيت الشعري ومناسبتها لموضوعه ، وكذا مناسبتها لسياقه، كما يشير إلى بعض المعاني الإعرابية ويوضح بعض الجوانب من العلاقات التركيبية بين الألفاظ وبين الجمل ، وأكثر ما يهتم

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 218 .

[2] المصدر نفسه ، ص 212 .

به هو البحث عن تلك العلاقات الدلالية بين الأبيات الشعرية ، من حيث ترابطها وانسجامها وعدم انقطاعها عن بعضها ، وعلاقتها بالموضوع العام للمعلقة ، وأكثر ما يركز عليها هو مبدأ النظم ، إذا يحاول دوما أن يبين أن نظم المعلقة ــ وإن كانت أجود المعلقات ـ فإن نظمها يبقى فيه نوع من الاختلال وعدم التوازن مقارنة بنظم القرآن الكريم الذي لا يضاهيه نظم ولا يوازيه تأليف ولا يناظره انسجام في نص غيره مهما كانت درجته من البلاغة والفصاحة وحسن التركيب .

وقد استند في دراسته على رؤية نقدية قبلية وأحكام جاهزة ، يود الوصول إليها، وهي أن الشعر العربي ولو كان أفصحه وأبلغه ، في مستوى أدنى بكثير من مستوى نظم القرآن الكريم ، ولا شك في ذلك ، ولكن المنهجية المتبعة في إثبات ذلك تعتمد على هدم النموذج الشعري الذي اختاره ، ولعل في ذلك بعض التعسف في الأحكام النقدية التي يطلقها ، فهو يقول مثلا بعد تحليله للأبيات العشرة الأولى من معلقة امرئ القيس ، وهي التي تشكل تلك المقدمة الطللية بما لها من أهمية في بناء القصيدة الجاهلية عند الشعراء : " وإلى هذا الموضع لم يمرّ له بيت رائع وكلام رائق"[1].

إن هذا الحكم النقدي الذي أصدره الباقلاني على معلقة امرئ القيس ، مع علمه بمكانتها الشعرية بين الأدباء والنقاد ، هو حكم قاسٍ، هدَّ فيه أركان المقدمة الطللية بما تحمله من قداسة شعرية في أعراف الشعراء في الثقافة العربية ، خاصة وأن القصيدة التي يتحدث عنها متفق على أنها من عيون المعلقات العربية .

في نقد الباقلاني لمعلقة امرئ القيس بعض التناقض في أحكامه النقدية ، فهو في تقديمه لهذه المعلقة يصفها بأبدع الأوصاف التي قيلت في الشعر ، ثم نجده خلال

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 207 .

دراسته لها يقلل من شأنها تقليلا رهيبا إلى درجة أنه يصف العديد من أبياتها بالركاكة والضعف .

ولنتأمل قوله في بداية النقد : " وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورا اتبع فيها: من ذكر الديار ، والوقوف عليها ، إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه ، والتلميح الذي يوجد في شعره ، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه ، من صناعة وطبع ، وسلاسة وعلو ، ومتانة ورقة ، وأسباب تحمد، وأمور تؤثر وتمدح " [1].

ثم تأمل بعض الأحكام النقدية التي يطلقها على بعض أبيات المعلقة ، إذ يقول في نقده لقول الشاعر :

فإن كنت قد ساءتك مني خليقة فسليّ ثيابي عن ثيابك تنسل

يقول :" وهو بيت قليل المعنى ركيك وضعيف ، وكل ما أضاف إلى نفسه ووصف به نفسه بذلك سقوط وسفه وسخف يوجب قطعه "[2].

والأغرب من ذلك ما قرره في حق المعلقة من أوصاف تقلل من شأنها ، مع أنه يعترف بالإبداع في بعض الأبيات منها فقط ، وقد وصفها بالمعدودة . يقول :" اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة ، وأبيات متوسطة ، وأبيات ضعيفة مرذولة، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة وأبيات معدودة بديعة ، وقد دللنا على المبتذل منها ، ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر الذي يروع السمع ، ويهول القلب ، ويكد اللسان ، ويعبس معناه في وجه كل خاطر ، ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر ،

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 201 .

[2] المصدر نفسه ، ص 211.

ولا يقع بمثله التمدح والتفاصح ، وهو مجانب لما وضع له أصل الإفهام ، ومخالف لما بني عليه التفاهم بالكلام"[1] .

ختم الباقلاني تحليله لمعلقة امرئ القيس مستخلصا " أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتا بيّنا ، في الجودة والرداءة ، والسلاسة والانعقاد ، والسلامة والانحلال ، والتمكن و التسهّل ، والاسترسال والتوحش والاستكراه"[2].

ثم عاد بعد تحليله لها إلى بيان إعجاز القرآن الكريم مبيّنا ما بينها وبينه من فوارق عظيمة في الأسلوب والنظم والتأليف والرصف ، فقال :" فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته ، وتحار في بحره ، وتضل دون وصفه ، ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض ، وتستولي به على الأمد ، وتصل به إلى المقصد ، وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس ، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر ، وأقرب لك الغامض ، وأسهل لك العسير "[3]. ثم أوضح أن سر إعجاز القرآن راجع إلى انسجام ألفاظه ومعانيه ، ويؤكد من خلال عدة آيات ساقها لبيان تناسب الألفاظ والمعاني أن النظم يبيّن فضل الكلام و به تظهر فصاحته وبلاغته[4] .

2 تحليل الباقلاني لنصوص قرآنية

بعدما بيّن الباقلاني أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم راجع إلى نظمه وتأليفه ، قرر أن يأخذ نموذج لنصوص من القرآن الكريم ، ليبيّن وجه النظم والإعجاز فيها وفي تأليف قصصها ، مبينا كيف تأتي القصة الواحدة بمعاني متعددة في سور مختلفة ، معتمدا في ذلك على اختلاف نظم ألفاظها ، وقد مثل لذلك بقصة سيدنا موسى عليه

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 221 .

[2] المصدر نفسه ، 223.

[3] المصدر نفسه ، ص 225.

[4] ينظر: المصدر نفسه ، ص 229 .

السلام في سورة النمل ، وربط آياتها بما ورد في القصة ذاتها في سورة طه،و سورة القصص ، وسورة الشعراء ، وغيرها .

انطلق الباقلاني في تحليله للخطاب القرآني من مبدأين أساسيين هما :

ـ مبدأ انسجام الخطاب القرآني وائتلافه وحسن تأليفه .

ـ النظرة الشمولية إلى القرآن الكريم .

وسعى إلى بيان انسجام القرآن من خلال هذين المبدأين مبرزا دور آلية النظم ، منتهجا أسلوب تفسير القرآن بالقرآن، مستحضرا الآيات المتعلقة بالموضوع ذاته من سور متعددة ، معتمدا على القصص القرآني ، ومستكشفا انسجام معاني القصة الواحدة الواردة في سور مختلفة بألفاظ مختلفة.

قبل أن يبدأ تحليلاته لآيات من القرآن الكريم أشار إلى دور النظم في انسجام الخطاب القرآني ، وعبر عن معنى الانسجام بمصطلحي (الائتلاف والتلاؤم) ، وذلك من خلال تحليله لخاتمة سورة الشورى ، وبيان العلاقة بين آياتها المتتالية .

قال الله تعالى : ((وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣)) سورة الشورى .

بعد أن بين الباقلاني أن هذه الآيات شريفة النظم وبديعة التأليف وعظيمة الرصف ، وأن كل كلمة منها تامة وكل لفظ بديع ، ذهب إلى تحديد العلاقة الرابطة بين الآيتين

وأنهما في غاية الانسجام و الائتلاف في قوله تعالى : ((وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿52﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿53﴾)).

وعلق على تماسك الآيتين قائلا :" فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث ، فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان ، وقوله : ((أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿53﴾)) كلمة منفصلة مباينة للأولى، قد صيرها شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤلف وألطف انتظاما من الحديث الملائم ، وبهذا يَبين فضل الكلام وتَظهر فصاحته وبلاغته "[1].

ثم بيّن الدور الذي أداه النظم ليكون الكلام في الآيات منسجما ، وعبّر عن ذلك بعبارتي (ائتلاف الكلام ، وتلاؤم الحديث) ، والغاية من ذلك كله هو بيان فضل القرآن الكريم وإظهار فصاحته وبلاغته .

و استهل الباقلاني تحليله لنماذج من الخطاب القرآني بدعوته إلى التأمل في سورة النمل ، لمعرفة قصصها وما فيها من براهين ، ثم النظر فيها كلمةً كلمة وفصلاً فصلا، لغرض معرفة كيفة انتظام الكلام وانسجامه ، ثم الاستدلال على إعجازه .

كانت بداية تحليله من الآية السادسة في سورة النمل بعد أن أشار إلى مقدمتها وأن القرآن الكريم من عند الله تعالى بقوله : ((وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٖ ﴿6﴾)). ثم انتقل إلى الحديث عن قصة سيدنا موسى عليه السلام ((إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿7﴾)) سورة النمل . ثم ربطها بما يوازيها من آيات في سور أخرى ، فقال في سورة طه : ((إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿10﴾)) سورة

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، 268 .

طه، وفي سورة القصص : ((قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩)) سورة القصص .

انطلق الباقلاني من النظرة الشمولية التي رسمها في ذهنه عن القرآن الكريم ، وأخذ يسرد الآيات التي تتقاطع مع موضوع هذه الآية من سور مختلفة ، مبينًا الإعجاز القرآني من خلال ورود القصة الواحدة في سياقات متعددة وبألفاظ متنوعة ، وقد علّل هذا التنوع بإظهار الإعجاز فقال :" أتى بذكر القصة على ضروب ، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ، ولهذا قال : ((فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ)) سورة الطور 34 ، ليكون أبلغ في تعجيزهم ، وأظهر للحجة عليهم ، وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة ، فهي بليغة في نفسها ، تامة في معناها " [1].

بيّن أن قضية تكرار القصص القرآني بمعاني متعددة في سياقات مختلفة بألفاظ مختلفة ، تدل على عظم شأن القرآن، وتنوع نظمه وانسجام كل لفظ مع القصة التي ورد فيها ، " فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها ، وضامتها ذواتها ، تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها ، ثم من قصة إلى قصة ، ومن باب إلى باب ، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل ، وحتى يصور لك الفصل وصلا ، ببديع التأليف وبليغ التنزيل " [2].

ولكي يؤكد الباقلاني ما ذهب إليه من انسجام الكلمة مع موضوع القصة التي وردت فيها ، وما تؤول إليه من المعاني إذا تغيرت الألفاظ ، دعا القارئ إلى أن يعمد إلى قصة من القصص أو حديث من الأحاديث فيغير في ألفاظه بعبارة من عنده ، ويرى ما يلحقه من النقص الظاهر ، ويتبيّن أن نظم القرآن الكريم دليل باهر على

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 230 .

[2] المصدر نفسه ، ص 231 .

إعجازه ، " ولذلك أعاد قصة موسى في سور ، وعلى طرق شتى ، وفواصل مختلفة ، مع اتفاق المعنى "[1].

ثم انتقل إلى قصة سيدنا سليمان مع بلقيس منتهجا الأسلوب ذاته، فذكر الآيات المشابهة لها في سور مختلفة ، ولكن في هذه القصة اعتمد للكشف عن انسجام آياتها على قضية الخلوص و حسن الانتقال من موضوع إلى آخر في القصة الواحدة واتفاق الكلام وتلاؤمه مع بعضه ، مبيّنا ما تحتوي عليه القصة من اختصار وإيجاز ، مع البيان وحصول الفهم والقصد وتمام البلاغة والفصاحة .

قال :" متى تهيأ لآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام ، بعد ذكر العنوان والتسمية ، هذه الكلمات الشريفة العالية : ((أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿31﴾)) سورة النمل 31 ، و الخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير و اشتغلت به من المشورة ، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها ، بتلك الألفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكّن قولها : ((قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿32﴾)) سورة النمل ، وذكر قولهم : ((قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿33﴾))،لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به ، وقوله : ((وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ)) ، تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه ، وموضع اتفاقه في هذا الكلام ، وتمكّن الفاصلة و ملاءمة ما قبله ، وذلك قوله: ((فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿33﴾)) النمل "[2].

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 231.

[2] المصدر نفسه ، ص 232 .

ثم ختام الآيات قوله : ((قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَۖ ﴿34﴾)) النمل . حيث شبه كلمات هذه الآيات بالنجم والياقوت فقال:" كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره ، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره "[1]، لحسن موقعها وانتظام معانيها .

عاد الباقلاني إلى قصة موسى عليه السلام مرة ثانية ، ولكن في سورة القصص مشيرا إلى قضية ردّ آخر الكلام على أوله ، وعطف عجزه على صدره ، مبرزا ذلك في العلاقة بين أول السورة وآخرها ، إذ بدأ السورة بحديثه عن فرعون ومعاملته لقوم موسى، ثم ختمها بقصة قارون وما كان من أمره مع قومه وخسف الأرض به .

قال الله عز وجل في بداية السورة عن فرعون : ((إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿4﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿5﴾)) القصص ، وقوله في نهايتها عن قارون : ((وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَۖ ﴿77﴾)) القصص .

علق الباقلاني عن الجمل في هذه الآية مبرزا دور النظم في انسجامها فقال:"وهي خمس كلمات ، متباعدات في الموقع ، نائية المطارح ، قد جعلها النظم

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 233.

البديع أشد تألفا من الشيء المؤتلف في الأصل ، وأحسن توافقا من المتطابق في أول الوضع"[1].

فالنظم القرآني يجعل الآيات التي تظهر وكأنها لا تربط بينها أية علاقة ، يجعلها أشد ترابطا وانسجاما مع بعضها ، ومن ذلك قوله تعالى : ((فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿81﴾)) القصص.

و لا يبتعد الباقلاني كثيرا عن منهجه في الموازنة ، إذ نجده بعد أن ذكر تكرار قصة موسى في عدة سور مبينا فائدة ذلك ؛ في أن القوم ظهر عجزهم أمام نظم القرآن الكريم، نجده يشير إلى الموازنة داعيا إلى التأمل في نظم الشعراء ، وانتقالهم من موضوع إلى آخر ، أو في وصفهم للواقعة وذكرهم للقصص بأساليب متعددة ، وأنهم في ذلك عاجزون ، فقال :" إذا أردت أن تحقق ما وصفت لك ، فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين ، هل تجد كلامه في المديح والغزل و الفخر و الهجو يجري مجرى كلامه في ذكر القصص ؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف الواقعة ، أو نقل خبر، عاميَّ الكلام ، سوقي الخطاب ، مسترسلا في أمره ، متساهلا في كلامه ، عادلا عن المألوف من طبعه ، وناكبا عن المعهود من سجيته ، فإن اتفق له في قصة كلام جيد ، كان قدر ثنتين أو ثلاثة ، وكان ما زاد عليها حشوا ، وما تجاوزها لغوا ، ولا أقول إنها تخرج عن عادته عفوا ، لأنه يقصر عن العفو ، ويقف دون العرف ، ويتعرض للركاكة " [2] .

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 235 .

[2] المصدر نفسه ، ص 235 .

ولعل الباقلاني ينتهج هذا الأسلوب في نقده لمعلقة امرئ القيس ولامية البحتري ، إذ يحاول دوما في كل بيت أن يبيّن ما فيه من حشو وتكرار يرى أنه لا فائدة منه ، ليحكم على الشعر بالركاكة واختلال النظم .

يؤكد الباقلاني ما ذهب إليه في القصص القرآني معيدا الحديث عن قصة سيدنا موسى في سورة الشعراء مشيرا إلى بديع التصرف وحسن التنقل بين الفصول في السورة، حيث دعا إلى التأمل فيها لمعرفة الإعجاز؛ بداية من قول الله تعالى : ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿52﴾ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿57﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿58﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿59﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿60﴾ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿63﴾ ﴾ ، حتى نهاية السورة بقوله : ﴿ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿227﴾ ﴾ الشعراء ، متسائلا :" هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد ، وأن تنظم مثل هذا النظم ، وأن تجد مثل هذه النظائر السابقة ، وتصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ؟ " [1]

ومما استدل به أيضا في باب حسن التخلص والانتقال بالخطاب من موضوع إلى آخر ما أورده الله عزّ وجل في قوله في سورة غافر : ﴿ حمٓ ﴿1﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿2﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿3﴾ ﴾ سورة غافر ؛ إذ دعا إلى التأمل في كلام البشر وخطبهم والمقارنة بينه وبين كلام الله عز وجل ، هل تجد فيه مثل هذا النظم ، ومن شريف

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 237 .

المعاني وحسن الفاتحة والخاتمة ، لمعرفة " وجه الخلوص من شيء إلى شيء : من احتجاج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار ، ومن فنون من الأمر شتى مختلفة تتألف بشريف النظم ، ومتباعدة تتقارب بعلي الضمّ "[1]، وكذلك رد عجز الخطاب إلى صدره لما بينهما من المناسبة والائتلاف في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿5﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿6﴾﴾ غافر .

وفي نهاية تحليلاته لهذه النصوص القرآنية ومقارنتها بكلام العرب ، يصل إلى نتيجة مفادها أن كل كلام بشري مهما بلغت فصاحته وبلاغته متخلف في نظمه عن النظم القرآني ، لأن نظم القرآن لا يتفاوت في شيء ، ولا يتباين في أمر ، ولا يختل في حال ، بل له المثل الأعلى ، والفضل الأسنى[2] ، فالشاعر المفلق والأديب الحاذق، تراه يتفاوت في شعره كلما تغير موضوع الخطاب ، وذلك ما حاول الباقلاني أن يبيّنه في شعر امرئ القيس ، إذ يرى أن فيه تذبذبا واختلالا في النظم ، ومثله شعر البحتري مقارنة بنظم القرآن . و" إذا قلنا إن الشعر متفرد بنظمه وأساليبه وعباراته ونماذجه ، فإن القرآن الكريم من باب أولى وأحرى أن نتحدث فيه عن التباس المعاني فيما بينها في العبارة الواحدة ، وتماسكها واتساقها كأنها صبت في ذلك القالب اللغوي إصبابة واحدة ، وسبكت سبكا واحدا ، ولم يعد للفظ الواحد وجود إلا بسابقه وتاليه ، ولو أبدلت لفظا مكان لفظ لارتبك التعبير واضطرب ولخرج من باب البلاغة إلى باب الكلام المألوف ، فلما أخرجت عبارات القرآن العظيم ذلك الإخراج الكريم تميز بناؤه اللغوي والبلاغي ،

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 238 .

[2] ينظر : المصدر نفسه ، ص 241 .

وتفرّدت عباراته البديعة"[1] ، وهذا ما ذهب إليه الباقلاني في مقارنته بين نظم القرآن ونظم الشعر .

ويؤكد " أن نظم القرآن في مؤتلفه و مختلفه ، وفصله ووصله ، وافتتاحه واختتامه وفي كل نهج يسلكه ، وطريق يأخذ فيه ، وباب يتهجم عليه ، ووجه يؤمه ، لا يتفاوت"[2]، مستدلّا بقوله تعالى في عدة آيات كريمة : ((ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)) النساء 82 ، وقوله : ((قرآنا عربيا غير ذي عوج)) الزمر 28 ، وقوله : ((بلسان عربي مبين)) الشعراء 195. ويكمل حديثه عن القرآن فيقول : "و غيره من الكلام كثير التلون ، دائم التغير ، يقف بك على بديع مستحسن ، ويعقبه قبيح مستهجن ، ويطلع عليك بوجه الحسناء ، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء ، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كاللآلئ الزهر ،وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهم ، قد يقع إليك منه الكلام المثبج ، والنظم المشوش ، والحديث المشوه ، وقد تجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه ولا يتآلف ولا يتماثل "[3] .

وبعد أن وضّح الفرق بين نظم الشعر ونظم القرآن الكريم ، قسم الآيات بحسب تمام المعنى وعلاقتها مع غيرها إلى قسمين مشيرا إلى قضية الانسجام :

النوع الأول : "ما يتم بنفسه ، أو بنفسه وفاصلته ، فينير في الكلام إنارة النجم في الظلام"[4] .

النوع الثاني :" ما يشتمل على كلمتين أو كلمات ، إذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة ، وغاية البلاغة ، وإنما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين

[1] عبد الرحمان بودرع ، في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، ص 24.

[2] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن، ص 242.

[3] المصدر نفسه ، ص 247.

[4] المصدر نفسه ، ص 246 .

أضعاف كلام كثير ، أو خطاب طويل ، فتراها ما بينها تدل على نفسها ، وتعلو مع ما قد قرن منها لعلو جنسها ، فإذا ضمت إلى أخواتها ، وجاءت في ذواتها ، أرتك القلائد منظومة، كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منها اليواقيت منثورة ، والجواهر مبثوثة "[1].

فالباقلاني يشبه الكلمات المفردة في فصاحتها وبلاغتها بالجواهر واليواقيت لقيمتها ، أما إذا نظمت داخل الخطاب ، فهي أشبه ما تكون بالقلائد المنظومة ، وهنا إشارة إلى حسن انسجامها وتوافقها مع بعضها .

خلاصة :

نخلص في هذا المقام إلى بيان بعض مظاهر الانسجام في تحليل الباقلاني لنماذج من الخطاب القرآني ، ومنها :

ـ الملاءمة و الائتلاف بين الكلام وحسن رصفه وتأليفه .

ـ حسن التخلص و الانتقال بالخطاب من موضوع إلى آخر دون الإخلال بالنظم .

ـ المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها .

ـ المناسبة بين الآيات الدالة على القصة الواحدة من سور مختلفة .

3 نقد الباقلاني لقصيدة البحتري اللامية (أهلا بذلكم الخيال المقبل) :

نظم البحتري هذه القصيدة يمدح فيها محمد بن علي بن عيسى القمي الكاتب ويصف الفرس والسيف [2] .

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 246.

[2] ينظر : الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري ، الديوان ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1963م ، المجلد الثالث ، ص 1741.

وقد حلل الباقلاني شطرا كبيرا من هذه القصيدة ، و اعتمد في دراستها على الأسلوب الذي انتهجه في تحليل معلقة امرئ القيس ، إذ عمد إلى شعر البحتري واختار أجوده لتحقيق الغاية نفسها ، مبررا اختياره لقصيدته اللامية (أهلا بذلكم الخيال المقبل) بأنها أجود شعره ، فيقول : " ونحن نعمد إلى بعض قصائد البحتري ، فنتكلم عليها ، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس ، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة ، ويستخلص من سر المعرفة سريرة ، ويعلم كيف تكون الموازنة ، وكيف تقع المشابهة والمقارنة ، ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره "[1].

ثم يضيف مستدلا على جودتها وحسنها قوله:" سمعت الصاحب إسماعيل بن عباد (ت 385هـ) يقول : سمعت أبا الفضل بن العميد (ت 360هـ) يقول : سمعت أبا مسلم الرستمي يقول : سمعت البحتري (ت 284 هـ) يذكر أن أجود شعر قاله : أهلا بذلكم الخيال المقبل" [2].

إذا كان اختيار الباقلاني للقصيدة قائما على هذا الأساس ، فإن المراد من وراء ذلك أن تكون الموازنة التي يعقدها موضوعية ، وإذا كان نظم القرآن الكريم يفوق أجود الأشعار العربية ، في أرقى العصور الأدبية شعرا ، فهو يفوق ما دونها نظما وتأليفا .

بعد بيان سبب اختياره لقصيدة البحتري اللامية شرع مباشرة في نقدها ، بالاعتماد على دراسة كل بيتين متتاليين من حيث نظم المعاني وعلاقتها بألفاظ القصيدة ، ثم بيان العلاقة التي تربطهما بما يسبقهما من أبيات في إطار السياق العام لها .

[1] أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 258 .

[2] المصدر نفسه ص 258 .

ومثلما كانت بدايته في دراسة معلقة امرئ القيس مع المقدمة، كذلك اتجه مع قصيدة البحتري إلى نقد المطلع ، فالشاعر يتخير أحسن الألفاظ لأحسن المعاني لبناء مطلع قصيدته ، من أجل أن تكون مؤثرة في المتلقي من بدايتها .

قال البحتري (205هـ ــ 284هـ) في مطلع قصيدته [1] :

أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذي نهواه أو لم يفعل

برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلل

يقول الباقلاني معلقا على المطلع :" البيت الأول في قوله (ذلكم الخيال) ثقل روح وتطويل وحشو وغيره أصلح له... وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف ، فيصير إلى الكزازة ، وتعود ملاحته بذلك ملوحة ، وفصاحته عيّا ، وبراعته تكلفا، وسلاسته تعسفا ... "[2]، وأضاف قائلا عن الشطر الثاني (فعل الذي نهواه أو لم يفعل) : " ليست بكلمة رشيقة ، ولا لفظة ظريفة ، وإن كان كسائر الكلام " [3]. فإذا كان نقده للمطلع على هذا المنوال من بيان هذه الأوصاف وإثباتها للمطلع وجعله لا يختلف عن سائر كلام الناس ، فكيف يكون نقده لبقية الأبيات ؟

رصد الباقلاني ضمن نقده للقصيدة ظاهرة الانسجام والترابط بين أبياتها ، و عبر عنها بمصطلحي (الملاءمة والانقطاع) إذ يرى أن الكثير من أبيات القصيدة منقطعة وغير منسجمة مع بعضها ، وهي ظاهرة متعلقة بالنظم أساسا ، و " يشدد عليها باعتبارها الضامنة لانسجام النص ومعناه على مستوى التقبل والفهم " [4] ، فإن كان

[1] ينظر : البحتري : الديوان ، المجلد الثالث ، ص 1741، و ينظر : إعجاز القرآن للباقلاني ص 259 .

[2] أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن ، ص 259 .

[3] المصدر نفسه ، ص 259 .

[4] حسين خمري، نظرية النص ، ص 357 .

النظم سويا تحقق الانسجام بين أبيات القصيدة ، وبين ألفاظها ومعانيها ، وإن اختل نظمها انعدم انسجامها .

و سعى إلى تحقيق الغاية التي رسمها في كتابه مؤكدا أن معظم أبيات القصيدة منقطعة عن بعضها وغير متماسكة لاختلال النظم، وبيّن ذلك في الكثير من أبياتها ليثبت في مقابل ذلك أن القرآن الكريم أبعد عن هذا النقص في أسلوبه وبنائه من الشعر، وذلك لتمام نظمه وحسن رصفه ، مقارنة مع ما ينتاب الشعر الجيد من اختلالات في تماسك الألفاظ واتساقها من الناحية الشكلية أو من ناحية ترابط المعاني وانسجامها .

4 مظاهر الانسجام في تحليل الباقلاني لقصيدة البحتري :

أسس الباقلاني رؤية نقدية حول لامية البحتري ومن قبلها معلقة امرئ القيس ، تنطلق من قاعدة مركزية تتمثل في أن نظم القرآن الكريم لا يماثله نظم ، وأن لامية البحتري على جودتها لا تخلو من الخلل في النظم مما يؤثر على انسجامها .

وقد اعتمد في نقده للقصيدة على مبادئ أساسية متعلقة بانسجامها تتمثل في :

ـ ملاءمة المعاني لبعضها ضمن السياق الثقافي والاجتماعي ، فهو يرى أن هناك عدم توافق بين معاني بعض الأبيات مع السياق الثقافي والاجتماعي في تلك البيئة .

ـ حسن الخروج والانتقال من فكرة إلى أخرى ، إذ يرى أن أجود الشعر ما أجاد فيه الشاعر الخروج ، وكانت له المقدرة على الانتقال من فكرة إلى أخرى دون أن يشعر القارئ بتغير الموضوع [1] .

[1] ينظر : أبو بكر الباقلاني ،إعجاز القرآن ، ص 263.

ـ وصل الكلام بين أبيات القصيدة ، إذ يرى أن معظم الأبيات منقطعة عن بعضها ، وذلك راجع إلى خلل في نظمها [1] وقد عدّ ذلك عيبا ونقصا في شعر البحتري .

حاول أن يبحث عن مواطن الخلل في القصيدة ، واستعمل لفظ (نقد) بمعناه السلبي فقط ، إذ لم يبحث عن محاسن القصيدة ، عكس ما فعله مع معلقة امرئ القيس، ولو كان نادرًا جدًّا .

نحاول من خلال هذا المبحث رصد أهم مظاهر الانسجام النصي التي اعتمد عليها الباقلاني في تحليله للامية البحتري معتمدا على آلية النظم ، ليصل بها إلى الحكم على تماسكها من عدمه ، مفرقا بين نظم الشعر ونظم القرآن الكريم ، وأنه لا مجال للموازنة بينهما من حيث الأسلوب البياني، وأبرز هذه المظاهر هي :

4 ـ 1 الملاءمة بين المعاني :

اهتم الباقلاني بقضية الملاءمة بين المعاني ، وذهب يجول في ربوع القصيدة بحثا عن الأبيات التي تفتقر إلى هذا العنصر ، من أجل أن يثبت الخلل في شعر البحتري ، فإذا ما قارنه مع نظم القرآن يتبين الفرق الواسع بينهما ، والمراد بالملاءمة تلك العلاقات الرابطة بين المعاني ، فتكون متوافقة ومتناسبة مع بعضها ، حيث بيّن أن " المتلائم في الطبقة العليا القرآن كله " [2]، وأكد أنه طريق إلى إظهار الإعجاز فقال :" التلاؤم : حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، ووقع المعنى في القلب ، وذلك كالخط الحسن ، والبيان الشافي ... فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان ، في أعلى الطبقات ، ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع ، وبصيرا بجودة الكلام "[3]. وهذه

[1] ينظر : أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 265 .

[2] المصدر نفسه ، ص 298 .

[3] المصدر نفسه ، ص 298 .

الخاصية عند الباقلاني متعلقة بحسن الخروج من معنى إلى آخر ، وكذلك الوصل بين الكلام وعدم قطع المعاني ، ومن ذلك ما ذهب إليه تعليقا على قول الشاعر :

ماذا عليـــــك في انتظـــار متيـم بل مـا يضرك وقفة في منزل

إن سيل عيَّ عن الجواب فلم يطق رجعا فكيف يكون إن لم يسأل

فبعد استحسانه للبيتين ، بيّن أن فيهما شيئا من عدم التلاؤم وعدم الوصل مع ما سبقهما من أبيات تغزّل فيهما بالحبيب وذكر فيها العذل ، فقال :" إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضربا من الانقطاع ، لأنه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر ، وإنما جرى ذكر العاذل على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائم، ثمّ الذي ذكره من الانتظار ، وإن كان مليحا في اللفظ ، فهو في المعنى متكلف لأن الواقف في الدار لا ينتظر أمرا ، وإنما يقف تحسرا وتذللا وتحيرا "[1] ، فكأن الباقلاني يشير إلى عدم الانسجام بين هذا البيت وما سبقه من أبيات في قول الشاعر :

ما الحسن عندك يا سعـــاد بمحسن فيما أتاه ولا الجمال بمجمل

عذل المشوق ، وإن من سيما الهوى من حيث تجهله لجاج العذل

يقول الباقلاني :"في البيت الأول (عندك) حشو ، وليس بواقع ولا بديع ، وفيه كلفة والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء، وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهييج وجده و تهييم قلبه ، وضدّ هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب " [2] ، إذ ليس من عادة الشعراء عدم تهييج الوجد و تهييم القلب عند ذكر محاسن المحبوب .

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 263 .

[2] المصدر نفسه ، ص 262 .

ومن الملاءمة ما ذكره في معلقة امرئ القيس عند حديثه عن قوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

إذ علّق عليه قائلا :" والمصراع الثاني منقطع عن الأول لا يلائمه ولا يوافقه ، وهذا يبيّن لك إذا عرضت معه البيت الذي تقدمه ، وكيف ينكر عليه تدللها والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله ؟ " [1]. فالباقلاني اعتمد على ملاءمة المعنى بين الشطر الأول والثاني ليبين الترابط الحاصل بين أبيات القصيدة من عدمه .

4 ـ 2 حسن الخروج والانتقال من معنى إلى آخر :

جعل الباقلاني حسن الخروج عنصرا أساسيا للحكم على انسجام معاني القصيدة ، إذ يعتبر الشاعر مجيدا إذا أحسن الانتقال من معنى إلى آخر ، و يرى أن البحتري غير بارع في هذا الباب [2]، واستدل على ذلك بأبياته :

وأغرّ في الزمن البهيم محجّل قد رحت منه على أغر محجّل

كـــالهيكـــل المبني إلا أنـــه في الحسن جاء كصورة في هيكل

يرى الباقلاني أنها غير منسجمة مع بعضها " فالبيت الأول لم يتفق له فيه حسن خروج ، بل هو مقطوع عما سلف من الكلام، وعامة خروجه نحو هذا ، وهو غير بارع في هذا الباب وهذا مذموم معيب منه .لأن من كان صناعته الشعر ، وهو يأكل به وتغافل عما يرفع إليه في كل قصيدة ، واستهان بأحكامه وتجويده ، مع تتبعه لأن يكون عامة ما يصدّر به أشعاره من النسيب عشرة أبيات ، وتتبعه للصنعة وتركيب العبارات وتنقيح الألفاظ وتزويرها ،كان ذلك أدخل في عيبه ، وأدل على تقصيره أو قصوره ، وأنه

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 210 .

[2] ينظر : المصدر نفسه ، ص 265 .

لا يقع له الخروج منه "[1]، فالبحتري في رأي الباقلاني لم يحسن الخروج من الغزل إلى ذكر الممدوح وتشبيهه بالفرس في صفتي الغرة و التحجيل ، واهتم فقط بتنميق الألفاظ والعبارات ، ولم يهتم بالعلاقات الرابطة بين أبيات القصيدة من حيث الانتقال من موضوع إلى آخر ، فقال في الأبيات التي سبقتها بعد ذكر سعاد:

لا تكلفـــن لي الدمـــوع فـإن لي دمعا ينمُّ عليه إن لم يفضل

ولقد سكنت إلى الصدود من النوى و الشريُ أريٌ عند طعم الحنظل

وكذلك طرفة حين أوجس ضربـــة في الرأس هان عليه فصد الأكحل

ويرى عدم وجود علاقة رابطة بين البيت الثالث وما سبقه من كلام ، إذ إنّ " البيت الثالث أجنبي عن كلامه غريب في طباعه ، نافر من جملة شعره، وفيه كزازة وفجاجة"[2]، ولعل هذا ما جعل البحتري لم يحسن الانتقال من الغزل إلى وصف الفرس ، فكان هذا البيت غير منسجم مع أبيات القصيدة ، فعدّه الباقلاني أجنبيا عنها .

4 ـ 3 وصل المعاني :

أكد الباقلاني أن وصل الكلام معيار من معايير الإعجاز في الخطاب القرآني ، وبيّن أن معرفة الفصل من الوصل أمر ضروري للوصول بالخطاب إلى مراتب البلاغة، و كثيرا ما نجده يستعمل لفظ الانقطاع في تحليله للأبيات المتتالية في القصيدة ، للدلالة على أن تلك الأبيات تفتقر إلى عنصر الترابط والتماسك ، ويرى أن معظم أبياتها منقطعة عن بعضها ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى عدم انسجام معانيها بسبب اختلال

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 265 .

[2] المصدر نفسه ، ص 264 .

في نظمها ، و في تحليله لقصيدة البحتري يعيب عليه أنه " لا يهتدي إلى وصل الكلام ونظام بعضه إلى بعض، وإنما يتصنع لغير هذا الوجه " [1].

وهذه نماذج من الأبيات التي أوردها وحكم عليها بالانقطاع :

قال البحتري :

ذنَب كما سحب الرداء يذب عن عرف وعرف كالقناع المسبل

تُتَوَهَّم الجوزاء في أرساغه والبدر فوق جبينه المتهلل

قال الباقلاني معلقا عليه : " فالبيت الأول : وحشي الابتداء ، منقطع عما سبق من الكلام" [2].

ثم انتقل الشاعر إلى ذكر ممدوحه :

لمحمد بن علي الشرف الذي لا يلحظ الجوزاء إلا من عل

وسحابة لولا تتابع مزنها فينا لراح المزن غير مبخل

والجود يعذله عليه حاتم سرفا ولا جود لمن لم يعذل

يعيب الباقلاني على البحتري في هذه الأبيات عدم إتقانه لحسن الانتقال من وصف الفرس إلى المدح ، ولا يجد له عذرا ، كما يلومه على قطع المعاني ؛ قائلا:" البيت الأول منقطع عما قبله ، على ما وصفنا به شعره في قطعه المعاني ، وفصله بينها ، وقلة تأتيّيه لتجويد الخروج والوصل ، ذلك نقصان في الصناعة ، وتخلف في البراعة ،

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 268 .

[2] المصدر نفسه ، ص 268 .

وهذا إذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها ، أما إذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له "[1].

وهذا حكم مطلق على الغالب من شعر البحتري بأنه لا يتميز بمعيار الانسجام ، لأن معانيه غير مترابطة ، ثم يواصل الباقلاني حكمه على الشاعر بأن لا عذر له ، لان غالبية شعره على هذا المنوال من قطع المعاني .

فمن خلال ما أورده الباقلاني في حق شعر البحتري نستنتج أنه في حكمه على جودة الشعر يؤكد على انسجام المعاني مع بعضها ، وعدم قطعها لأن ذلك نقص في الصناعة وتخلف في البراعة ، كما وصفه .

ومما ذكره أيضا من قطع المعاني ما أورده في قول الشاعر :

فضل و إفضال وما أخذ المدى بعد المدى كالفاضل المتفضل

سار إذا أدلج العفاة إلى الندى لا يصنع المعروف غير معجل

قال الباقلاني :" فالبيت الأول منقطع عما قبله ، وليس فيه غير التجنيس الذي ليس ببديع "[2].

أما قوله :

عال على نظر الحسود كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل

أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 269 .

[2] المصدر نفسه ، ص 271 .

قال فيه الباقلاني : " فالبيت الأول منكر جدا في جرّ النجوم بالأرسان موضعه إلى العلو ، والتكلف فيه واقع ، والبيت الثاني أجنبي عنه بعيد منه ، وافتتاحه رديء ، وما وجه الاستفهام والتقرير و الاستبانة والتوقف ؟ والبيتان أجنبيان من كلامه غريبان في قصيدته ، ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد " [1].

حكم الباقلاني على هذين البيتين بعدم الانسجام ، لأن الثاني بعيد في المعنى عن الأول ، ثم حكم عليهما بعدم الانسجام مع القصيدة كلها وعدّهما غريبين في المعنى عنها ، ثم على القصيدة كلها بعدم الجودة في المدح .

يواصل نقده لأبيات القصيدة موضحا الأبيات التي وقع فيه عدم الانسجام مع ما قبلها، ومن ذلك قول البحتري :

مضر الجزيرة كلها وربيعة الـ خابور توعدني وأزد الموصل

قد جدت بالطرف الجواد فثنّه لأخيك من أُدَد أبيك منصل

بيّن أن " البيت الثاني قد تعذر وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف ، وهو قبيح اللفظ ، حيث يقول فيه: فثنّه لأخيك من أُدَد أبيك ، ومن أخذه لهذا التعرض لهذا السجع ، وذكر هذا النسب ، حتى أفسد به شعره " [2] . فالباقلاني يرى أن البحتري في هذا البيت اهتم بذكر النسب في قالب سجع ، مما جعل هذا البيت مختل النظم مع ما سبقه من أبيات .

وقد أكد في نهاية نقده لقصيدة البحتري " أن مراعاة الفواتح والخواتم ، والمطالع والمقاطع ، والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لا بدّ منه ، وأن

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 271 .

[2] المصدر نفسه ، ص 272

الإخلال بذلك يخلّ بالنظم ، ويذهب رونقه ، ويحيل بهجته ، ويأخذ ماءه وبهاءه " [1]، فالنظم عند الباقلاني هو أساس البلاغة ، ولا يكون النظم حسنا إلا بمراعاة الملاءمة والمناسبة بين المعاني ، وحسن الخروج من معنى إلى آخر ، وكذلك مراعاة وصل الكلام وعدم قطع المعاني ، وكل هذه المبادئ مما يساهم في انسجام الخطاب .

وعليه فإن الباقلاني بنقده للأبيات من حيث ترابطها مع بعضها ، وبحثه عن مواطن الخلل في نظمها ، يحيلنا إلى قضية انسجامها وتماسكها من خلال مبدأ النظم، فأغلب الأبيات حكم عليها بأنها غير منسجمة مع ما سبقها من القصيدة، على خلاف ما هو وارد في القرآن الكريم من انسجام النظم وتماسك أجزاء القرآن ، وارتباط المعاني ببعضها .

يعمد في كثير من الأحيان عند نقده لأبيات القصيدة ، ومن أجل أن يؤكد عدم جودتها في رأيه ، فيقارنها بأبيات شاعر آخر في الموضوع نفسه الذي تحدث عنه ، وقد أشار إلى ذلك قائلا :" وإنما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته ، ومن أهل عصره ، ومن هو في مضماره ، أو في منزلته " [2]، فذكر بعضهم ، أمثال : أبي تمام ، وابن الرومي، والمتنبي ، ولعل الغرض من ذلك هو إثباته أنها أقل بلاغة من قول الذي عارضها به ، فما بالك إذا كانت الموازنة بين أسلوبه في الشعر وبين أسلوب القرآن الكريم .

وفي خاتمة نقده للقصيدة يذكّر بعلة اختياره لها ، مبرزا الغرض الرئيس من تأليفه كتاب الإعجاز قائلا :" وإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحتري لأن الكُتّاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على من في عصره ، ومنهم من يدّعي له الإعجاز غلوا ، ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوا ، والملحدة تستظهر بشعره ، و تتكثر بقوله ،

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 276 .

[2] المصدر نفسه ، ص 278 .

وتدّعي كلامهم من شبهاتهم ، وعباراته مضافا إلى ما عندهم من ترهاتهم ، فبيّنا قدر درجته ، وموضع رتبته ، وحدّ كلامه ، وهيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه ، وأن يكون الليل كالنهار ، والباطل كالحق ، وكلام رب العالمين ككلام البشر " [1]. ولعلّ في هذا إشارة إلى نقد الباقلاني للبحتري وما في ذلك من بعض التناقض ؛ فهو من جهة يقرّ أن الكتّاب يفضلونه على أهل عصره ، ومن جهة أخرى ينتقص من شعره عندما يوازنه بشعر أقرانه الذين ذكرهم أمثال أبي تمام والمتنبي وابن الرومي .

5 خلاصة حول منهج الباقلاني في " إعجاز القرآن " :

تتميز دراسة الباقلاني بعدة مميزات منها :

ـ الاعتماد على أنواع متعددة من الخطابات العربية (الشعر ، الخطب ، الرسائل ، السجع)، فجاءت دراسته متكاملة وشاملة لأنواع تلك الخطابات ، وشاملة للخطاب الواحد في ذاته ، فلم يقتصر على خطاب دون الآخر ، ولم يعتمد على جزء من الخطاب دون الكل، فقد حلّل بعض السور كاملة ،كما درس قصيدتي امرئ القيس والبحتري دراسة كلية ، كل واحدة في سياقها الثقافي ، بالإضافة إلى نظرته إلى الخطاب القرآني نظرة شمولية متكاملة على أن القرآن كالكلمة الواحدة متسقة المباني منسجمة المعاني .

ـ عدم التقيد بعصر دون غيره ، فقد اعتمد في موازنته على اختيار نموذجين شعريين مختلفين ينتميان إلى ثقافتين متمايزتين ، النموذج الأول " تطور ضمن تقاليد شعرية سادت فيها الشفوية الشعرية والاعتماد على الذائقة وبالتالي فإن شروط تلقيه كانت تعتدّ بالإنشاد والسماع ، بينما تطور الثاني ضمن تقاليد الصنعة الشعرية التي اهتمت كثيرا بالجانب الشكلي والبلاغي في القصيدة " [2] ، كما أن هذا الاختيار كان نابعا من أصل

[1] أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص 280 .

[2] حسين خمري ، نظرية النص ، ص342 .

الثقافة التي أخذ منها نموذجه الشعري ، فقد انتقى " الأشعار المتفق على جودتها ، وتقدم أصحابها في صناعتهم ، ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب ، وتباعد مواقع البلاغة، وتستدل على مواضع البراعة " [1].

أما منهجه في الدراسة فيجب أن نميز بين منهجين مختلفين في كتابه:

5 ـ 1 المنهج الأول : وهو منهجه في بيان إعجاز القرآن الكريم ، وهو ما سلكه في عموم الكتاب ، واستند إليه للدفاع عن القرآن الكريم ضد الطاعنين فيه ، حيث تظهر براعته في الحجاج والبرهنة ، ودحض حجج الخصم وردّها بالدليل القاطع ، وذلك راجع إلى تكوينه الفكري والثقافي ، منتهجا أساليب علم الكلام ، باعتباره متكلما أشعريا وفقيها مالكيا . وأن القضية التي ينتصر لها في هذا المجال هي قضية دينية عقائدية بالدرجة الأولى، ولغوية بلاغية بالدرجة الثانية ،وكلامية بالدرجة الثالثة ، مثلت محورا من محاور علم الكلام في عصره .

5 ـ 2 المنهج الثاني : فهو منهجه في تحليل الشعر ، وهذا الجانب أقرب ما يكون إلى الأدب والنقد، ويمكن القول أن الباقلاني أجاد في الأول أحسن من الثاني ، حيث يتضح ذلك خلال دراسته لمعلقة امرئ القيس ونقده للامية البحتري؛ أنه في الغالب يعتمد على أحكام نقدية جاهزة ومسبقة ، كما ينطلق من الذاتية في الحكم في بعض الأحيان .

لسنا في موقف نقد الباقلاني في أحكامه النقدية التي تخص معلقة امرئ القيس ولامية البحتري ، أو في الحكم عليه : هل وفق في تحليلهما؟ بقدر ما يهمنا بيان المنهج الذي اتبعه في دراسته النصية وإبراز الأدوات الإجرائية التي اعتمدها، بعدما " كانت له الجرأة الأدبية لتناول قصيدتين بأكملهما تقريبا، تناولا تحليليا مبينا نقاط العلو

[1] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 200.

فيهما ونقاط النزول في المعنى وكذا المناطق التي تعاني من الخلل على مستوى البناء والتركيب "[1]، معتمدا في تحليله على مبدأ النظم لبيان انسجام الخطاب ، إذ نجده في تحليلاته غالبا ما يُرجع كل خلل كشف عنه في القصيدتين إلى خلل في النظم ، وبالتالي خلل في تناسب المعاني وانسجامها .

إن التحليلات التي أجراها الباقلاني على المستوى التطبيقي هي في الأساس ممارسات نصية خالصة ، إذ لم يعتمد مبدأ التحليل الجزئي ، بل انطلق من النظرة الكلية ، متخذا من النظم أداة إجرائية يثبت بها انسجام الخطاب القرآني ، مبرزا المظاهر التي يتحقق بها هذا الانسجام ، من تلاؤم المعاني وتناسبها ، وائتلاف الألفاظ وتناسقها، وكذلك حسن الخلوص ، وتغير موضوع الخطاب وانتقاله من معنى إلى آخر.

[1] حسين خمري ، نظرية النص ، ص361.

خاتمة

خاتمــة

وختاما فإن التراث العربي حافل بالكثير من التحليلات النصية المتعلقة بانسجام الخطاب؛ تلك التحليلات المتجسدة في جهود علماء القرآن والمفسرين وعلماء الإعجاز في دراساتهم للقرآن الكريم واعتمادهم على آليات إجرائية منبثقة من صلب الثقافة العربية وفهمهم للخطاب القرآني وفق ما تمليه عليهم الضرورة الحضارية في عصورهم .

انبثقت فكرة النظم في التراث اللغوي العربي من قضية الإعجاز القرآني التي شغلت الفكر العربي بداية من القرن الأول للهجرة؛ بعدما انتقلت حركة التفكير في الحضارة العربية الإسلامية من مرحلة الذوق والفطرة إلى مرحلة التعليل والتفسير؛ حسب ما فرضته مقتضيات البيئة الفكرية والثقافية التي نشأت وتطورت فيها ، حيث بدأت تُنسج الخيوط الأولى لهذه الفكرة ؛ لتتطور وتصبح نظرية قائمة بذاتها ، دانية الثمار.

وقد سعيت في هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن مظاهر انسجام الخطاب القرآني عند الباقلاني من خلال ما فصّله في كتابه (إعجاز القرآن)، ولمّا كان مفهوم النظم متقاربا مع مفهوم الانسجام في اللسانيات النصية الحديثة ؛ عملت على قراءة تصورات الباقلاني في مجال تحليل الخطاب القرآني وفق آلية النظم، في ضوء ما قدمته لسانيات النص من مبادئ وأدوات يتحقق بها عنصر الانسجام، والنظر في الممارسات النصية التي خاض غمارها من أجل سبر أغوار الخطاب القرآني لاستنباط مقاصده والكشف عن غوامضه وأسراره من جهة، والاستدلال على ترابطه وانسجامه من جهة أخرى، ثم البحث عن تحقق الأهداف التي رسمها وفق منهجه في المقارنة بين الخطاب الشعري والخطاب القرآني.

يبرز هذا البحث مكانة الباقلاني في الدراسات اللغوية البلاغية المهتمة بقضية النظم في التراث العربي، وكذلك في الفكر الإسلامي بكونه متكلما أشعريا، حيث مثّل حلقة من حلقات التطور المعرفي والمنهجي في نشأة وتطور نظرية النظم، فقد كان كتابه إعجاز القرآن أحد أبرز المؤلفات في هذا الاتجاه من الدراسات القرآنية، بعدما استند فيه على قوة عقيدته الأشعرية ، ومخزونه المعرفي في الدائرة البلاغية ، فكانت نظريته في الإعجاز القرآني قائمة على ثلاثة أبعاد: بعد ديني عقائدي ، بعد مذهبي أشعري، بعد لغوي بلاغي .

كانت الانطلاقة التي جعل منها الباقلاني أساسا في رسم تصوراته حول إعجاز القرآن الكريم هي الإشكالية التي سعى للإجابة عنها والمتمثلة في : ما المعجز في الخطاب القرآني ؟ وما الذي أخرجه عن المعهود في خطابات العرب ؟

ومن أجل أن يصل إلى مراده؛ استند إلى منهج المقارنة بين الخطاب القرآني والخطابات العربية ـ الشعرية والنثرية ـ التي تمثل ذروة البلاغة ، فكان كتابه (إعجاز القرآن) بذرة لمشروع حاول فيه التأسيس لممارسة نصية لتحليل الخطاب القرآني والخطاب الشعري ، معتمدا على آلية النظم والنظرة الشمولية للقرآن الكريم؛ تتجلى مبادئه على مستوى التنظير في إبراز وجوه الإعجاز القرآني وعلاقتها بالنظم ، ثم تجسيدها على مستوى التطبيق في تحليله لجزء من سورة النمل ومعلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري؛ مبينا انسجام الخطاب القرآني من خلال حسن نظمه وتأليفه ورصفه .

خلص الباقلاني إلى أن نظم القرآن خارج عن المعهود ومباين للمألوف في نظام الخطابات العربية ؛ متميّزا بأسلوبه الذي يختص به دون غيره من أساليب الكلام المعتاد ؛ وكشف عن المعايير التي يظهر بها إعجاز القرآن؛ متخذا من النظرة

الكلية إلى القرآن الكريم أساسا في ذلك ، فبها يتحقق التناسب في فصاحته وبلاغته، و وحدة موضوعه، ومن خلال بديع التأليف وحسن النظم ، وصولا إلى المقصد الأهم منه وهو تقريبه إلى الأفهام وتبسيط معانيه في الأذهان .

إن نظرية النظم التي أقيم صرحها في التراث العربي تقوم في الأساس على مبدأ العلاقات الرابطة بين الألفاظ ومعانيها ، فالألفاظ قوالب للمعاني التي تنتظم أولا في ذهن المرسل لتستقر منتظمة في ذهن المتلقي مشكلة خطابا منسجما ؛ مع أن مبدأ النظم عند الباقلاني لم يرق إلى مستوى نظرية نصية ، وإنما هو عبارة عن وسيلة تطبيقية اعتمدها في دراسته للخطاب مبرزا من خلالها انسجام الخطاب القرآني واختلال الخطاب الشعري مهما كانت مرتبته .

إن التحليلات التي أجراها الباقلاني على المستوى التطبيقي هي في الأساس ممارسات نصية خالصة ، فهو لم يعتمد مبدأ التحليل الجزئي ، بل انطلق من النظرة الكلية للقرآن الكريم ، متخذا من مبدأ النظم أداة إجرائية يثبت بها انسجام الخطاب القرآني ، مبرزا المظاهر التي يتحقق بها هذا الانسجام؛ من تلاؤم المعاني وتناسبها، وائتلاف الألفاظ وتناسقها ، وكذلك حسن الخلوص ، والانتقال من معنى إلى آخر؛ حفاظا على موضوع الخطاب الكلي ، متخذا من النظرة الشمولية إلى النص القرآني مبدأ أساسيا في تحقيق انسجام الخطاب القرآني .

عُرف الباقلاني بشجاعته في الدفاع عن نظم القرآن بكل ما أوتي من حجة ودليل معتمدا على ملكته اللغوية ؛ مبديا قوة حجته وبراعته في الاستدلال ؛ متميزا بمنهجه النقدي، و المقارنة بين نظم القرآن الكريم ونظم ما دونه من الخطابات العربية منذ العصر الجاهلي إلى غاية عصره الذي كثر فيه التهجم والطعن في تأليف وانسجام القرآن الكريم .

وعموما فإن الدراسات النصية العربية الحديثة تسلك أحد اتجاهين، إما مترجمة ناقلة للنظريات الغربية إلى الساحة الثقافية العربية الحديثة، وإما موغلة في التراث العربي باحثة عن أصول تلك النظريات النصية فيه؛ متيقنة من فكرة كون الحضارة العربية حضارة نصية ، والتراث العربي بمختلف اتجاهاته يحمل في باطنه كنوزا تحتاج من الباحث الكشف عن مكنوناتها من أجل النهوض بالبحث اللساني العربي المعاصر وتطويره ، رغم كل ما يعانيه من إشكالات تعترض طريقه ؛ بداية من إشكالية الفوضى المصطلحية، ثم إشكالية الموضوع المعروض للدراسة ، إلى إشكالية المنهج المتبع في الدراسات اللسانية العربية المعاصرة .

ولذلك فإنه من بين ما يمكن التوصية به من خلال هذه الدراسة إنشاء مخابر بحث خاصة بالدراسات النصية القرآنية من أجل أن يتجه الباحثون المهتمون باللسانيات النصية العربية صوب الدراسات القرآنية المتعلقة بتفسير القرآن الكريم وعلومه وإعجازه لدراسة و استنباط تلك المناهج والآليات التي اعتمدها العلماء في دراستهم للخطاب القرآني .

ولله الحمد على توفيقه .

.

ملحق

الأبيات التي حلّلها الباقلاني من معلقة امرئ القيس[1] :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدّخول فحومـل[2]

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمـأل[3]

ترى بعر الأرآم في عرصاتـها وقيعانها كأنه حب فلفـــــــل[4]

كأني غداة البين يوم تحملـوا لدى سمرات الحي ناقف حنظـل [5]

وقوفا بها صحبي عليّ مطيـهم يقولون لا تهلك أسى وتجمـــل [6]

وإن شفـــــــائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معـوّل [7]

---

[1] **ينظر**: الباقلاني ، إعجاز القرآن ص (201 ـ 223)
ذكرت في هذا الملحق الأبيات التي قام الباقلاني بتحليلها من المعلقة فقط .

[2] امرؤ القيس : الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة ، مصر ، الطبعة الخامسة ، 1958 م، ص 8 . **وينظر** : شرح ديوان امرئ القيس ، شرح وتعليق أسامة صلاح الدين منينه ، دار إحياء العلوم بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1990 م ، ص 164 . و **ينظر** : أحمد بن الأمين الشنقيطي : شرح المعلقات، تحقيق أحمد شتيوي ، دار الغد الجديد ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى 2007م ، ص 19 .

قفا : يخاطب نفسه، أو يخاطب صاحبه، أو صاحبيه ، لأن العرب قد يخاطب الواحد منهم صاحبه مخاطبة الاثنين كما يخاطب الجماعة كذلك ، ينظر : أسامة صلاح شرح ديوان امرئ القيس ، ص 164.
سقط اللوى : منقطع الرمل ، **الدخول و حومل** : موضعان شرقي اليمامة ، المرجع نفسه ، ص 164.

[3] **توضح و المقراة** : موضعان قريبان من الدخول و حومل ، **لم يعف رسمها** : لم يدرس ولم يتغير ولم يمح أثرهما ، ينظر المرجع نفسه ص 164 / 165 .

[4] **الأرآم** : الظباء البيض .الديوان ، ص 9.

[5] **السَّمُر**: شجر أم غيلان ، وهي شجر الصمغ العربي ، و **الناقف** : المستخرج حب الحنظل ، والحنظل له حرارة تدمع منها العين . المصدر نفسه ، ص 9 .

[6] **المطي** : الإبل ، والواحد مطية ، يقال : وقفت الدابة أي حبستها ، ينظر : الديوان ، ص 9 .

[7] **معول** : من العويل والبكاء ، أي أن البكاء على الرسم لا يجدي شيئا فلا ينبغي أن يعول عليه ، ينظر : أسامة صلاح ،شرح ديوان امرئ القيس ، ص 166 ، وقال الشنقيطي في شرحه : يقال : عولت على فلان أي اعتمدت عليه ، ينظر شرح المعلقات للشنقيطي ، ص 20 . و المعنى الأول أقرب لأن الشاعر في سياق البكاء على الأطلال .

كدأبك من أم الحويرث قبلـــها وجارتها أم الرباب بمأســـــــــل[1]

إذا قامتا تضوع المسك منهـما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفـــــل[2]

ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بلّ دمعي محملـي [3]

ألا ربّ يوم لك منهن صـــــالح ولا سيما يومٌ بدارة جلجـــــــــــل [4]

ويوم عقرت للعذارى مطيـــــتي فيا عجبا من رحلها المتحمـــــــــل[5]

فظل العذارى يرتمين بلحمـــــها وشحم كهدّاب الدمقس المفتـــــــل [6]

ويوم دخلت الخدر خـــــــــدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجـــلي [7]

تقول وقد مال الغبيط بنا مـــــعا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانـــــزل [8]

فقلت لها سيري وأرخي زمـــــامه ولا تبعديني من جناك المعلـــــــــل [9]

---

[1] **كدأبك** : في الديوان كدينك ، وهو الدأب والعادة ، **مأسل** : اسم موضع . ديوان امرئ القيس ، ص 9

[2] **تضوع** : انتشر ، المصدر نفسه ، ص9

[3] **الصبابة** : رقة الشوق ، **المحمل** : سير يحمل به السيف ، وأراد أنه بكى بكاء شديدا حتى بلّ دمعه محمل سيفه . ينظر : المصدر نفسه ص 9.

[4] **دارة جلجل** : اسم موضع

[5] **فيا عجبا من رحلها المتحمل** : يعني أنه لما نحر ناقته صارت هذه تحمل رحله ، وهذه نمرقته (الطنفسة التي توضع فوق الرحل) فعجب لذلك . ينظر : المصدر نفسه ، ص 11.

[6] **يرتمين بلحمها** : يتهادين بينهن ،وقيل معناه تدّعي كل واحدة منهن أن عقر الناقة كان من أجل صاحبتها ، **الدمقس** : الحرير الأبيض ؛ شبه الشحم به لبياضه ولينه ونعمته . ينظر : المصدر نفسه ، ص 11 .

[7] **الخدر** : الهودج ، وهو من مراكب النساء ، مرجلي : أي تاركي أمشي راجلة . ينظر : المصدر نفسه ، ص 11 .

[8] **الغبيط** : قتب الهودج ، وخص البعير لأنهم كانوا يحملون النساء في الهودج على الذكور من الإبل من أجل أنها أقوى وأصبر . ينظر : المصدر نفسه ، ص 11 .

[9] **سيري** : أي هوني عليك ولا تبالي : أعقر أم لم يعقر ، وأراد بالجني ما يجني منها من القبل واللمس وغير ذلك، **والمعلل** : من العلل أي الذي يعللنا (والعلل : الشرب بعد الشرب) ، ينظر: المصدر نفسه ، ص 12 .

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضـــع فألهيتها عن ذي تمائم مغيـــــــــل [1]

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشقّ وتحتي شقها لم يحـــــــــــول[2]

ويوما على ظهر الكثيب تعـــذرت عليّ وآلت حلفة لم تحلـــــــــــل [3]

أفاطم مهلا بعض هذا التـــــدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي[4]

أغرّك مني أن حبك قاتـــــلي وأنك مهما تأمري القـلب يفعـــــل

وإن كنت قد ساءتك مني خليقـــة فسلي ثيابي عن ثيابك تنســـــــــل[5]

وما ذرفت عيناك إلا لتضربـــــي بسهميك في أعشار قلب مقتـــــــل[6]

وبيضة خدر لا يرام خبـــــــاؤها تمتعت من لهو بها غير معجـــــل[7]

---

[1] **التمائم** : معاذات تعلق على الصبي ، **والمغيل** : المُرضَع وأمه حبلى ، أو الذي يرضع وأمه تجامع . ينظر : م س، ص 12 .

[2] يقول الشنقيطي في شرحها :أنها تميل إلى ولدها بطرفها وتنظر إليه هو لتؤنسه . ينظر شرح المعلقات، ص 23 .

[3] **الكثيب** : الرمل المجتمع في ارتفاع ، **تعذّرت** : امتنعت وتصعّبت وجاءت بمعاذير من غير عذر ، **آلت** : حلفت ، **لم تحلل** : لم تستثن في يمينها ، أي جعلته حلفا قاطعا ، ينظر : أسامة صلاح ،شرح ديوان امرئ القيس . ، ص 168 .

[4] فاطمة هي ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر ، **أزمعت** : عزمت وأجمعت الرأي ، **صرمي** : هجري ، **أجملي** : أحسني صحبتي ودعي هذا العزم . **ينظر** : المرجع نفسه ، ص 169 .

[5] **ساءتك** : آذتك ، **خليقة** : طبيعة ، **ثيابي** : يريد بها قلبه ، تنسل : تخرج وتنصرف ، ينظر : المرجع نفسه ، ص169 .

[6] **ذرفت** : دمعت ، **بسهميك** : يريد بهما عينيها ، **أعشار القلب** : أجزاؤه ، **مقتّل** : مذلّل بحبك ، ينظر المرجع نفسه، ص 169 .

[7] **وبيضة خدر** : وربّ غادة مخدرة ، **لا يرام خباؤها** : لا يستطاع الوصول إليها ، **غير معجل** : غير خائف من أحد،بل لهوت بها في ريث واطمئنان . **ينظر** : المرجع نفسه ، ص 169 .

تجاوزت أحراسا إليها ومعشـــــــرا علي حراصا لو يسرون مقتـــــــلي[1]

إذا ما الثريا في السماء تعرضـــت تعرض أثناء الوشاح المفضـــــــل[2]

فجئت وقد نضّت لنوم ثيابـــــها لدى الستر إلا لبسة المتفضـــــــل [3]

فقالت : يمين الله ما لك حيلـــــة وما إن أرى عنك الغواية تنجـــــلي[4]

خرجت بها تمشي تجرّ وراءنـــا على أثرينا ذيل مرط مرحـــــــــــل [5]

فلما أجزنا ساحة الحي وانتـــحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقـــــل[6]

هصرت بفودي رأسها فتمايلـــت علي هضيم الكشح ريّا المخلخـــــــل[7]

مهفهفة بيضاء غير مفاضـــــــة ترائبها مصقولة كالسجنجـــــــــل[8]

---

[1] **تجاوزت أحراسا** : مررت بحراسها وأهلها الحريصين على قتلي لو يستطيعون ذلك ، ينظر : المرجع السابق ، ص 169 .

[2] **البيت يعني** : كان تجاوزي الأحراس ، و تقحّمي المعاشر إليها ، وقت تعرض الثريا في وسط السماء ، كما يأخذ الوشاح وسط المرأة . **وأثناء الوشاح** : ثناياه . **المفصل** : الذي فصل بين كل خرزتين منه بلؤلؤة .ينظر أسامة صلاح ، شرح الديوان ، ص 170 .

[3] **نضّت ثوبها** : خلعته عند النوم . **لبسة المتفضل** : ما يلبس وقت النوم من نحو قميص أو إزار، ينظر المرجع نفسه ، ص 170 .

[4] **ما لك حيلة** : لا أجد لك حيلة في دفعك ومنعك . **الغواية** : الجهالة . **تنجلي** : تتكشف . ينظر المرجع نفسه ، ص170 .

[5] **المرط** : إزار خز ، ويكون من الصوف أيضا وإنما تجر مرطها ليخفي أثره وأثرها فلا يستدل عليهما . **المرحل**: الموشى . الديوان ص 14 .

[6] **أجزنا** : قطعنا ، الساحة : الفناء ، انتحى : مال ، الحقف من الرمل : المعوج ، ركام : بعضه فوق بعض ، **العقنقل** : المنعقد المتداخل. ينظر : المصدر نفسه ، ص 14 .

[7] **الهصر** : الجذب ، **الفودان** : جانبا الرأس ، **تمايلت** : مالت ، **هضيم** : ضامر ، **الكشح** : الخصر ، **ريا:المخلخل** : ممتلئة موضع الخلخال من الساق . ينظر : المصدر نفسه ، ص 14 .

[8] **مهفهفة** : خفيفة اللحم ، **مفاضة** : الضخمة البطن ، أي هي خميصة البطن ضامرته .**الترائب** : جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر ، **السجنجل** : المرآة بالرومية ، ينظر : المصدر نفسه ، ص 15 .

تصدّ وتبدي عن أسيل وتتقـــــــي بناظرة من وحش وجرة مطفـــــــــل[1]

وجيد كجيد الريم ليس بفاحـــــــش إذا هي نصّته ولا بمعطـــــــــــل [2]

و يضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضـــل[3]

وليل كموج البحر أرخى سدولـــــه علي بأنواع الهموم ليبتـــــــــلي[4]

فقلت له لما تمطى بصلبـــــــــه وأردف أعجازا وناء بكلكـــــــــل[5]

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـــــي بصبح وما الإصباح منك بأمثـــل[6]

وقد أغتدي والطير في وكناتـــــها بمنجـرد قيـــد الأوابـد هيكـــــل [7]

---

[1] **الأسيل** : الخد السهل ، **الناظرة** : العين ، والمعنى بناظرة بقرة ذات طفل؛ أي معها ولدها .أي تقابلك من نفسها بمثل بقرة ناظرة إليك . ديوان امرئ القيس ، ص 16 .

[2] **ليس بفاحش** : ليس بكريه المنظر فاحش الطول ، **نصّته** : مدته وأبرزته ، **المعطل** : الذي لا حلي عليه . المصدر نفسه، ص 16 .

[3] **وتضحي** : تنتبه من نومها في ضحوة النهار . **فتيت المسك** : ما تفتّت منه .أو كأنه يريد أن يقول : إذا قامت من نومها وحدت لها ريحا طيبا كأنما باتت على مسك مفتت وإن لم يكن هناك مسك ولا طيب، **لم تنتطق**: لم تشدّ نطاقا للعمل، يعني أنها مرفهة منعمة مخدومة. **عن تفضل**: عن ثوب النوم . **ينظر** : أسامة صلاح ، شرح ديوان امرئ القيس ، ص.172

[4] **كموج البحر** : يعني في ظلمته وكثافته . **أرخى سدوله** :أرسل ستوره ، ويريد بها ظلماته . ليبتلي : ليختبر ما عندي من الصبر أو الجزع . ينظر : المرجع نفسه ، ص 173 .

[5] **تمطى** : تمدّد . **أردف أعجازا** : تابع أواخره بأوائله . **ناء بكلكل** :ناء بمعنى حطّ ، أي حطّ بصدره ، **ينظر**:المرجع نفسه ، ص 173 .

[6] **بأمثل** : ليس الإصباح فيك بأفضل من الإمساء ، يعني أن ما جلبته عليّ من الهموم جعل النهار عندي كالليل فليس أحدهما فيما ابتليت به بأفضل من الآخر . **ينظر**: المرجع نفسه ، ص 173 .

[7] **أغتدي** :أخرج بفرسي في غدوة النهار أي عند تباشير الصباح . **وكناتها** : أوكارها . **المنجرد** : الفرس القصير الشعر . **الأوابد** : الوحوش الآبدة . **قيدها** : إمساكها بقوة حضره ، فكأنها لم تبرح مكانها . **الهيكل** : الفرس الطويل المتين الخلق . **ينظر** : المرجع نفسه ، ص 175 .

مكـرّ مفـرّ مقبـل مدبـر مـــــــــعا كجلمود صخر حطّه السيل من عل[1]

له أيطلا ظبي وساقـا نعامـــــــــة وإرخـاء سرحـان وتقريـب تتفـــــل[2]

[1] **مكرّ مفرّ** : يقول أن هذا الفرس معاود الكرّ والفرّ . **مقبل مدبر** : حسن الإقبال في سبقه ، جيد الإدبار في عدوه. **الجلمود** : الصخر الأصم . **من عل** : من مكان عال . **ينظر**: المرجع السابق ، ص 175 .

[2] **أيطلا ظبي**: خاصرتا ظبي ، لضمورهما وعدم انتفاخهما . **وساقا نعامة** : شبه ساقيه بساقي النعامة لصلابتهما وقصرهما . **وإرخاء سرحان** : سرعة ذئب في لين . **وتقريب تتفل** : وجري تتفل وهو ولد الذئب . **ينظر**: أسامة صلاح شرح ديوان امرئ القيس ، ص 176 .

الأبيات التي حلّلها الباقلاني من قصيدة البحتري [1] :

أهلا بذلكم الخيال المقبـــــــــــل فعل الذي نهواه أو لم يفعـــــــل[2]

برق سرى في بطن وجرة فاهتـــدت بسناه أعناق الركاب الضـــــــلل[3]

من غادة منعت وتمنعت نيلـــــها فلو أنها بُذلت لنا لم تبـــــــــذل

كالبدر غير مخيل والغصن غيـــر مميل والدعص غير مهيـــــــل [4]

ما الحسن عندك يا سعـــاد بمحسن فيما أتاه ولا الجمال بمجمـــــــل

عُذِلَ المشوق ، وإن من سيما الهوى من حيث تجهله لجاج العـــــــذل

ماذا عليـــك في انتظـــار متيـــــم بل مـا يضرك وقفة في منـــــــزل

إن سيل عيَّ عن الجواب فلم يطـق رجعا فكيف يكون إن لم يســـــأل [5]

لا تكلفـــن لي الدمـــوع فـإن لـــــي دمعا ينمُّ عليه إن لم يفضـــــــــل

ولقد سكنت إلى الصدود من النـــوى و الشريُ أريٌ عند طعم الحنظـــــل[6]

---

[1] ينظر : إعجاز القرآن للباقلاني، ص (259 ـ 276) .

اكتفيت أيضا بذكر الأبيات التي حللها الباقلاني من القصيد فقط .

[2] ينظر : البحتري : الديوان ، المجلد الثالث ، ص 1741،

[3] **وجرة** : مكان بين مكة والبصرة . ينظر المصدر نفسه ،المجلد الثالث ، ص 1741 .

[4] مخيل : الذي يحجبه الغيم ، الدعص : كثيب الرمل المجتمع ، المصدر نفسه ، المجلد الثالث ص1742 .

[5] سيل : مخفف سئل . عي من العي وهو ضد البيان .ينظر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 262 .

[6] **الشري** : الحنظل . **الأري**: العسل. ينظر : ديوان البحتري ، ص1743 .

وكذلك طرفة حين أوجس ضربـــــة في الرأس هان عليه فصد الأكحـــل[1]

وأغرّ في الزمن البهيم محجّـــــــل قد رحت منه على أغر محجّـــــل[2]

كـالهيكـل المبني إلا أنـــــــــــه في الحسن جاء كصورة في هيكـل

ذنَب كما سحب الرداء يذب عـــــن عرف وعرف كالقناع المسبـــــــــل[3]

تُتَوَهَّم الجوزاء في أرساغـــــــــه والبدر فوق جبينه المتهلـــــــــــل [4]

لمحمد بن علي الشرف الـــــــــذي لا يلحظ الجوزاء إلا من عـــــــل[5]

وسحابة لولا تتابع مزنـــــــــــــها فينا لراح المزن غير مبخـــــــــــل [6]

والجود يعذله عليه حـــــــــــــاتم سرفا ولا جود لمن لم يعـــــــــــذل

فضل و إفضال وما أخذ المـــــــدى بعد المدى كالفاضل المتفضـــــــل[7]

---

[1] **طرفة** : هو طرفة بن العبد البكري ، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات مات أبوه وهو صغير فنشأ ميالا إلى الهوى وقول الشعر والهجاء ، حقد عليه عمرو بن هند فأرسله برسالة إلى عامله على البحرين الربيع بن حوثرة وقد أوهمه انه أمر له فيها بجائزة ، فلما قرأها الربيع قال له : (إن الملك أمرني بقتلك فاختر أي قتلة تريده؟ فسقط في يده فقال : إن كان لابد من القتل فقطع الأكحل .فأمر به ففصد من الأكحل ولم تشدّ يده حتى نزف دمه فمات ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره) ينظر : ديوان البحتري ، ص 1743 .

[2] **الأغرّ من القوم:** الكريم الأفعال والسيد الشريف ، **والأغرّ من الخيل** : ما كان في جبهته بياض . وقد قصد في صدر البيت ممدوحه وفي عجز البيت الفرس الذي أهداه إليه . **المحجّل** : المشهور ، ومن الخيل ما كان في قوائمه بياض. ينظر : ديوان البحتري ، ص 1744.

[3] **العرف** : الشعر النابت محدب رقبة الفرس .ينظر : المصدر نفسه ، ص 1746 .

[4] **الأرساغ:** جمع رسغ ، وهو الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل .ينظر المصدر نفسه ص 1747.

[5] **يلحظ** : في الديوان وردت يرمق . ينظر : المصدر نفسه ، ص1748 .

[6] أي أن ممدوحه جاد جودا غزيرا بخل معه الغمام المصدر نفسه ، ص 1748.

[7] المدى : الغاية .

سار إذا أدلج العفاة إلى النـــــــدى لا يصنع المعروف غير معجـــل[1]

عال على نظر الحسود كأنـــــــما جذبته أفراد النجوم بأحبـــــــــل

أو ما رأيت المجد ألقى رحلـــــــه في آل طلحة ثم لم يتحـــــــول [2]

مضر الجزيرة كلها وربيعـــة الـ خابور توعدني وأزد الموصـــــل[3]

قد جدت بالطرف الجواد فتنـــّه لأخيك من أُدَد أبيك منصـــــل[4]

[1] **أدلج** : سار الليل كله أو في آخره ، **العفاة** : طالبوا الفضل أو الرزق. ينظر : ديوان البحتري ، ص 1749 .

[2] **آل طلحة** : أسرة الممدوح حيث تنتسب إلى طلحة بن محمد بن السائب بن مالك. ينظر : ديوان البحتري ، ص 1749.

[3] **الخابور** : اسم موضع ونهر بالجزيرة . ينظر : إعجاز القرآن ، ص 272 .

[4] **الطرف** : الكريم من الخيل . **المنصل** : السيف . ينظر : ديوان البحتري ، ص 1750 .

أدد : اسم الجد الأعلى الذي تنتمي إليه هذه القبيلة التي منها الممدوح . ينظر إعجاز القرآن ، ص 272 .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

ـــ **القرآن الكريم برواية ورش** .

ـــ **مدونة البحث : (إعجاز القرآن) ؛ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني** ؛ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، 2013م .

ـــ **إبراهيم مصطفى وآخرون** : المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)،المكتبة الإسلامية للنشر ، ط2.

ـ **أحمد بن الأمين الشنقيطي** : شرح المعلقات ، تحقيق أحمد شتيوي ، دار الغد الجديد ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى 2007م .

ـــ **أحمد عفيفي:** نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ،مكتبة زهراء الشرق القاهر (مصر) ط1 ، 2001 م .

ـــ **أحمد بن فارس:** معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة إتحاد الكتاب العرب 1423هـ /2002 م.

ـــ **أحمد المتوكل** : الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1431هـ/ 2010م .

ـــ **الأزهر الزناد:** نسيج النص (بحث فيما يكون به الملفوظ نصا)، مركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993م.

ـ **أسامة صلاح الدين منينه:** شرح ديوان امرئ القيس، دار إحياء العلوم بيروت (لبنان) ط 1 ، 1990 م.

ـــ **إسماعيل بن عمر بن كثير:** تفسير القرآن العظيم ،تحقيق سامي بن محمد السلامة ، دار طيبة للنشر، المملكة العربية السعودية ، ط2،(1420هـ،1999م).

ـــ **أشرف عبد البديع عبد الكريم:** الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن ، مكتبة الآداب القاهرة ، مصر ، 2008م.

ـــ **إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد:** مدخل إلى علم اللغة ،مطبعة دار الكتاب نابلس (فلسطين) ، ط1 ، 1992م .

ـــ **امرؤ القيس (جندح بن حجر الكندي):** الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة (مصر) الطبعة الخامسة ، 1958.

ـــ **أيوب بن موسى الحسيني الكفوي:** الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)أعده عدنان درويش ومحمد المضري، مؤسسة الرسالة للنشر،بيروت (لبنان) ط2، 1419 هـ /1998م.

ـــ **بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي:** البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ، دار التراث ،القاهرة (مصر) ط3، (1404هـ،1984م) .

ـــ **برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي:** نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ،تحقيق محمد عبد الحميد ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، مصر 1969م .

ـــ **براون و يول** : تحليل الخطاب ، ترجمة محمد لطفي الزليطني ، منير التريكي ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1418هـ / 1997م.

ـــ **بشير إبرير:** مفهوم النص في التراث اللساني العربي ،مجلة جامعة دمشق ،المجلد 23،العدد الأول،2007م.

ـــ **بلخير ارفيس** : نظرية النظم بين الأصل النظري والبعد الفكري، دار البدر الساطع للطباعة والنشر (العلمة) الجزائر .

ـــ **بول ريكور** : من النص إلى الفعل (أبحاث التأويل) ، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية ، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى 2001م.

ـــ **جلال الدين السيوطي** :

ـ الإتقان في علوم القرآن ، تقديم وتعليق أبو الحسن مصطفى ديب البغا ، دار الهدى عين مليلة (الجزائر) ، 1998م .

ـ لباب النقول في أسباب النزول ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1422هـ/2002م .

ـــ **جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الشافعي الدمشقي ، الخطيب القزويني** (ت 739) : التلخيص في علوم البلاغة (تلخيص كتاب مفاتيح العلوم للسكاكي) تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 2009م .

ـــ **جميل عبد المجيد** :

ـ البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، ط 1 ، 1998م.

ـ بلاغة النص (مدخل نظري ودراسة تطبيقية) ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة، مصر ، الطبعة الأولى 1999م .

ـــ **جورج إليا صرفاتي** : عناصر لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد ساري ، دار التنوير الجزائر ، الطبعة الأولى 2013م.

ـــ **جون لاينز**: اللغة والمعنى والسياق ،ترجمة عباس صادق الوهاب ،دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد(العراق)ط1، 1987م .

ـــ **حافظ إسماعيلي علوي** :

ـ اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة (دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته)، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 2009 م.

ـ أسئلة اللغة ، أسئلة اللسانيات ، الدار العربية للعلوم بيروت (لبنان) ، منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة ، ط1 ،1430 هـ / 2009م.

ـــ **حسام أحمد فرج:** نظرية علم النص ،رؤية منهجية في بناء النص النثري ، مكتبة الآداب القاهرة ،ط1، 2002م .

ـــ **حسام البهنساوي** : أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، مصر 1414هـ / 1994م.

ـــ **الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري** : كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)،تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ت دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية.

ـــ **حسين خمري** : نظرية النص ، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ، الجزائر العاصمة ، 1428هـ / 2007م.

ـــ **حمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان الخطابي** : بيان إعجاز القرآن ، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) تحقيق محمد خلف الله احمد و محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 1976م.

ـــ **حمزة بين قبلان المزني** : مراجعات لسانية ، النادي الأدبي بالرياض ، الطبعة الأولى 1410 هـ / 1990م.

ـــ **خالد حميد صبري** : اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة ، بحث في الأطر المنهجية والنظرية ، دار ومكتبة عدنان ، بغداد (العراق)، منشورات الاختلاف (الجزائر العاصمة) ، الطبعة الأولى ، 1436هـ / 2015م.

ـــ **خلود العموشي:** الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، الطبعة الأولى 1429هـ/ 2008م.

ـــ **الخليل بن أحمد الفراهيدي:** العين، تحقيق مهدي المخزومي ،إبراهيم السمرائي .

ـــ **خليل بن ياسر البطاشي:** الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب ،دار جرير للنشر ،عمان (الأردن)ط1،(1430هـ . 2009م).

ـــ **خولة طالب الإبراهيمي:** مبادئ في اللسانيات دار القصبة للنشر،الجزائر ط2 ، 2010م .

ـــ **درويش الجندي** : نظرية عبد القاهر في النظم ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، مصر، 1960 م.

ـــ **دومينيك مانغونو:**

ـ معجم تحليل الخطاب ،ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود ،دار سيناترا المركز الوطني للترجمة تونس 2008م.

ـ المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد يحياتن ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى 1428هـ / 2008م.

ـــ **ردة الله بن ردة الطلحي:** دلالة السياق ،منشورات جامعة أم القرى ،المملكة العربية السعودية ،ط1 ، 1424هـ.

ـــ **روبيرت دي بوجراند:** النص والخطاب والإجراء ،ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة،ط1 ، 1481هـ / 1998م.

ـــ **زياد بن معاوية (أبو أمامة) النابغة الذبياني** : الديوان ، شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية ، بيروت (لبنان) 1996 م ، ط 3.

ـــ **زيتسلاف و أورزنياك:** مدخل إلى علم النص(مشكلات بناء النص)ترجمة سعيد بحيري،مؤسسة المختار للنشر ،القاهرة ،ط1 ، 2003م.

ـــ سعد مصلوح:

ـ نحو أجرمية للنص الشعري ،دراسة في قصيدة جاهلية ،مجلة فصول مجلد 10 ،عدد 1-2 (م1991).

ـ العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ، جامعة الكويت ط1، 1990 م.

سعيد بحيري :

ـ علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، الشركة المصرية لونجمان،مصر،1997م.

ـ دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، مكتبة الآداب القاهرة ، مصر ، 2005م .

ـــ شذى عطا جرار : موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني في كتابيهما إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز ، منشورات أمانة عمان ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، 2005م.

ـــ شوقي البوعناني : مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع ، الرباط / المملكة المغربية ، بيروت / لبنان الطبعة الأولى 2018م.

ـــ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية في السور المكية ، دار قباء، القاهرة ط1 ، 2000م .

ـــ عبد الرحمن بودرع: في لسانيات النص وتحليل الخطاب نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية 2013/02/16م، جامعة الملك سعود.

ـــ عبد الرحمن بن ناصر السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، دار الإمام مالك باب الوادي الجزائر ، الطبعة الأولى (1430 هـ / 2009م).

ـــ عبد السلام المسدي :

ـ التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، تونس 1981م .

ـ قاموس اللسانيات ، الدار العربية للكتاب ،تونس ، الطبعة الأولى 1984 .

ـــ **عبد العزيز عبد المعطي عرفة** : قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية ، علم الكتب بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1405هـ/ 1985م.

ـــ **عبد الغاني بارة** : الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي ، منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة ، الطبعة الأولى 1429 هـ / 2008م .

ـــ **عبد القادر الفاسي الفهري** : اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء المغرب ، الطبعة الثالثة 1993م.

ـــ **عبد القادر حسين** : أثر النحاة في البحث البلاغي ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، 1998م.

ـــ **عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت 429هـ)** : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة (1402 هـ / 1982م).

ـــ **عبد القاهر الجرجاني:**

ـ دلائل الإعجاز ، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة مصر ، 1404هـ / 1984م .

ـ الرسالة الشافية ، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) تحقيق محمد خلف الله احمد و محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 1976م.

ـ **عبد الله بن مسلم ابن قتيبة:** تأويل مشكل القرآن ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر ،مكتبة دار التراث القاهرة ، مصر ، الطبعة ، 1973م .

ـــ **عبد الله بن المقفع** : الأدب الصغير، تحقيق وائل حافظ خلف ، دار الألوكة للنشر ، الطبعة الأولى ، مصر ، 2011م.

ـــ **عبد الهادي بن ظافر الشهري** : استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى 2004م .

ـــ **عبد الواسع الحميري** : الخطاب والنص " المفهوم ، العلاقة ، السلطة " ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1429 هـ/ 2008م.

ـــ **عزة شبل:** علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة(مصر)، ط 2، 2009م .

ـــ **علي التهانوي:** موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ،تحقيق علي دحروج مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت (لبنان) ط1996،1م.

ـــ **علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت 816هـ)** : معجم التعريفات تحقيق محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر ، 2004م.

ـــ **عمر بن بحر أبو عثمان الجاحظ (150 / 255 هـ):**

ـــ كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الثانية (1384هـ/ 1965م) مصر.

ـــ البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ،مكتبة الخانجي القاهرة ، مصر ، الطبعة السابعة، (1418هـ/ 1998م).

ـــ **عمر أبو خرمة:** نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى ، عالم الكتب الحديث إربد (الأردن)، ط1، (1425هـ/2004م).

ـــ **فان ديك:**

ـ النص والسياق ، استقصاء البحث الخطاب الدلالي والتداولي ، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2000م.

ـ علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة سعيد حسن بحيري ،دار القاهرة للكتاب ، مصر الطبعة الأولى ،1421هـ / 2001م.

ـــ **فولفجانج هاينيه:** مدخل إلى علم اللغة النصي ، ترجمة فالح بن شبيب العجمي ، مطابع جامعة الملك سعود (1419هـ / 1999م).

ـــ **فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي** : دراسات في علوم القرآن الكريم ،مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، السعودية، 2005 م.

ـــ **كلاوس برينكر** : التحليل للغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج ، ترجمة ـ سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار للنشر ، القاهرة مصر 1425هـ /2005م، الطبعة الأولى.

ـــ **لطفي حاتم الزاملي:** سؤال اللسانيات مقاربة تأسيسية ، ضمن كتاب جماعي اللسانيات العربية رؤى وأفاق الجزء الثاني مراجعات لسانية ، إشراف وتحرير حيدر غضبان ، عالم الكتب الحديث ، إربد الأردن 2019 الطبعة الأولى.

ـــ **لطفي فكرى محمد الجودى** : جمالية الخطاب في النص القرآني ،قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية وآليات التكوين ، مؤسسة المختار للنشر ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى 1435هـ / 2014 م.

ـــ **ماري نوال ، غاري بريوي** : المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ،ترجمة عبد القادر فهيم الشيباني ، الطبعة الأولى ، سيدي بلعباس ، الجزائر ، 2007م.

ـــ **المثنى عبد الفتاح محمود:** نظرية السياق القرآني ،دراسة تأصيلية دلالية نقدية ، دار وائل للنشر ،عمان (الأردن) ط1 ،2008م.

ـــ **محمد الأخضر الصبيحي:** مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه ،منشورات الاختلاف،الجزائر ،ط1429،1هـ/2008م.

ـــ **محمد بازي** : صناعة الخطاب ـ الأنساق العميقة للتأويلية العربية ، دار كنوز المعرفة للنشر ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م.

ـــ **محمد خطابي:** لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت،ط1، 1991م .

ـــ **محمد زغلول سلام** : أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ، مكتبة الشباب بالمنيرة، الإسكندرية ، مصر ، الطبعة الأولى (1372هـ/ 1952م).

ـــ **محمد الشاوش** : أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية " تأسيس نحو النص "، الجزء الأول ، جامعة منوبة تونس ، المؤسسة العربية للتوزيع (تونس) الطبعة الأولى ،1421هـ/ 2001م .

محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني :

ـ كتاب التمهيد ، تصحيح ونشر ، الأب ريتشرد يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية بيروت ، 1957 .

ـ الانتصار للقرآن ، تحقيق محمد عصام القضاة ، دار الفتح للنشر والتوزيع عمان الأردن ، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، 2001م /1422هـ.

ـــ **محمد عامر محمد** : أثر المناسبة في توجيه المعنى في النص القرآني ، أطروحة دكتوراه في فلسفة اللغو وآدابها ،جامعة الكوفة(1432هـ2011م).

ـــ **محمد العبد** : النص والخطاب والاتصال ،الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي ،مصر ، ط 1 ،2014م.

ـــ **محمد عبد الباسط عيد** : النص والخطاب (قراءة في علوم القرآن) ، مكتبة الآداب القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2009م.

ـــ **محمد بن عبد الكريم أبو الفتح الشهرستاني(ت 548هـ)** : الملل والنحل ،تعليق أحمد فهمي محمد ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية (1413هـ / 1992م).

ـــ **محمد بن عبد العزيز العواجي** : إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني ، مكتبة دار المناهج الرياض السعودية الطبعة الأولى ، 1467هـ.

ـــ **محمد عكاشة** : تحليل النص " دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي " ، مكتبة الرشد ناشرون ،الرياض، السعودية الطبعة الأولى1435هـ/ 2014 م.

ـــ **محمد بن عمر جار الله الزمخشري:**

ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجد، الرياض ط1، 1998م.

ـ أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط1، 1419هـ/1998م .

ـــ **محمد فخر الدين الرازي:** التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى 1401 هـ / 1981 م.

ـــ **محمد أبو الفضل جمال الدين ابن منظور:** لسان العرب، ضبط وتعليق خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث الجزائر. ط1، 2008م.

ـــ **محمود شاكر:** مداخل إعجاز القرآن ، مطبعة المدني ، القاهرة ، مصر ، 2002م.

ـــ **مصطفى صادق الرافعي** : تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان ، (1425هـ/ 2005م) .

ـــ **مصطفى غلفان** :

ـ اللسانيات العربية الحديثة ، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية،جامعة الحسن الثاني . عين الشق . كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، سلسلة رسائل و أطروحات ، رقم 04، 1998م.

ـ اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، الطبعة الأولى 2013 ، دار ورد الأردني للنشر والتوزيع.

ـ اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين ، شركة النشر والتوزيع المدارس ، الدار البيضاء المغرب الطبعة الأولى 2006م.

ـــ **مصطفى مسلم** : مباحث في إعجاز القرآن ، دار المسلم للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية) الطبعة الثانية ، 1416هـ / 1996 م.

ـــ **نصر حامد أبو زيد:**

ـ مفهوم النص (دراسة ي علوم القرآن) المركز الثقافي العربي بيروت ،ط4،1998م .

ـ إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، المركز الثقافي العربي،(الدار البيضاء ، بيروت) ط7 ، (2005م) .

ـــ نعمان بوقرة :

ـ المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، دراسة معجمية ،جدار للكتاب العلمي،عمان (الأردن) ،ط 1 ، 2009 م .

ـ مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب ،عالم الكتب الحديث ،إربد (الأردن) ط1 ، 2008م .

ـ الخطاب والنظرية والإجراء ، دار جامعة الملك سعود للنشر، المملكة العربية السعودية .

ـــ منذر عياشي : الأسلوبية وتحليل الخطاب ، مركز الإنماء الحضاري حلب (سوريا) ط1 ، 2002 م.

ـــ هادي نهر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي ،دار الأمل للنشر ، الأردن،ط1،(1427هـ ـ 2007م).

ـ الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري: الديوان ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1963م.

ـــ وليد محمد مراد : نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى 1403هـ / 1983م .

ـــ يوسف نور عوض :علم النص ونظرية الترجمة ، دار الثقة للنشر والتوزيع ،مكة المكرمة (السعودية) ط1 ، 1410 هـ .

المراجع الأجنبية :

Brown Gillian and George Yule , Discourse Analysis, Cambridge _ University Press, London (1983).

Dominique Maingueneau : Les termes clés de l'analyse de discours , seuil ,Février , Paris 1996 .

Emil Benveniste , Problèmes de linguistique générale ,T 1 ,Edi Gallimard Paris ,1966.

Halliday ,M.A.K and Ruqaya Hassan , Cohesion in English , Longman ,1st pub, Nzw Yourk ,1976 .

Van Dijk . T.A. Text and Context (Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse) ,Longman ,London, 1977.

الفهرس

فهرس الموضوعات :

مقدمة ..... أ ـ ز

مدخل : التفكير النصي في الثقافة العربية القديمة.....8 ـ 30

أولا : ملامح التفكير النصي في الثقافة العربية القديمة 09

ثانيا : آليات تحليل الخطاب القرآني في الدراسات القرآنية 15

1 السياق عند علماء التفسير 15

2 المناسبة عند علماء القرآن 19

3 النظم عند علماء الإعجاز 25

ثالثا : كتاب "إعجاز القرآن" لأبي بكر الباقلاني ـ رؤية نصية في التحليل ـ.....26

أبو بكر الباقلاني 29

الفصل الأول : اللسانيات النصية وإشكالية البحث اللساني العربي المعاصر .....31 ـ 70

أولا : اللسانيات النصية : الأطر النظرية والتحول المنهجي 32

1 نشأة اللسانيات النصية 32

2 مسار الدراسات اللسانية النصية 34

2 ـ 1 المرحلة الأولى 35

2 ـ 2 المرحلة الثانية 35

2 ـ 3 المرحلة الثالثة 37

ثانيا:اللسانيات النصية في الثقافة العربية الحديثة(فوضى المصطلح وتلقي النظرية)...38

1 فوضى مصطلحات لسانيات النص 38

2 تلقي اللسانيات النصية في الثقافة العربية الحديثة 45

2 ـ 1 دراسات نظرية مفاهيمية 46

2 ـ 2 دراسات تطبيقية 51

2 ـ 3 دراسات تأصيلية في التراث العربي.....56

خلاصة 70

الفصل الثاني: بلاغة الخطاب القرآني من النظم إلى الإعجاز.....71ـ 125

تمهيد : الإعجاز و البلاغة.....72

أولا : الإعجاز من الفطرة و الذوق إلى الاستدلال و التعليل 76

1 علاقة الإعجاز بالعربية في رأي الباقلاني.....83

1 ـ 1 عند الأعاجم 84

1 ـ 2 عند أهل العربية غير الفصحاء 84

1 ـ 3 عند أهل العربية الفصحاء 84

ثانيا : الإعجاز(مفهومه و مرجعياته الفكرية والثقافية).....87

1 مفهوم الإعجاز.....87

1 ـ 1 لغة 87

1 ـ 2 اصطلاحا 88

2 المرجعيات الفكرية والثقافية لقضية الإعجاز في التراث العربي.....91

3 اتجاهات المفكرين في بيان الإعجاز القرآني.....97

3 -1 الاتجاه الأول : الإعجاز خارج الخطاب القرآني 97

القول بالصرفة 98

3 - 2 الاتجاه الثاني : الإعجاز داخل الخطاب القرآني.....101

3 - 2 - 1 مضمون الخطاب القرآني 101

أ - القول بأخبار الأمم السابقة 102

ب - القول بالأمور الغيبية 103

3 - 2 - 2 نظم الخطاب القرآني 106

ثالثا : النظم(الأسس والمفاهيم).....107

1 مفهوم النظم 107

1 - 1 لغة 107

1 - 2 اصطلاحا 108

2 أثر علم الإعجاز في نشأة فكرة النظم 110

3 تطور قضية النظم عند علماء العربية 111

3 - 1 الجاحظ..... 113

3 - 2 ابن قتيبة..... 114

3 - 3 الخطابي 115

3 - 4 أبو هلال العسكري..... 118

3 - 5 الباقلاني 119

3 ـ 6 الجرجاني 122

خلاصة 125

الفصل الثالث:معايير الإعجاز عند الباقلاني ــ مقاربة نصية 126 ـ187

أولا : النص والخطاب (تداخل المفاهيم)..... 127

1 مفهوم النص 127

1 ـ 1 الاصطلاح اللغوي..... 127

1 ـ 2 النص في التراث العربي..... 128

1 ـ 3 النص في اللسانيات النصية الحديثة..... 129

1 ـ 4 معايير النصية 137

2 مفهوم الخطاب..... 139

2 ـ 1 في المعاجم اللغوية 139

2 ـ 2 الخطاب في التراث العربي 141

2 ـ 3 الخطاب في الدراسات اللسانية النصية المعاصرة 142

3 العلاقة بين النص والخطاب..... 149

3 ـ 1 علاقة ترادف 149

3 ـ 2 علاقة الكتابية و الشفهية 149

3 ـ 3 علاقة الانجاز 150

ثانيا :منهج الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) 151

1 الغاية من تأليف كتاب(إعجاز القرآن).....151

2 مضمون الكتاب ونماذج من القضايا التي ناقشها الباقلاني 155

3 منهج الباقلاني في دراسة الإعجاز 159

3 ـ1 الآليات الإجرائية في دراسة الباقلاني لقضية الإعجاز 161

3 ـ 1 ـ 1 الإجمال والتفصيل 162

3 ـ 1 ـ 2 النقد 163

3 ـ 1 ـ 3 الموازنة 164

3 ـ 2 أسلوب الباقلاني في الموازنة 165

3 ـ 3 منهج الباقلاني في بيان نظم القرآن 167

ثالثا : معايير الإعجاز عند الباقلاني 169

1 النظرة الشمولية للقرآن 172

2 التناسب في الفصاحة والبلاغة 173

3 موضوع الخطاب 175

4 الفصل والوصل 177

5 تقسيم الخطاب 178

6 مناسبة الألفاظ لمعانيها 178

7 اختيار الألفاظ في مواقعها 179

8 نظم الحروف 179

9 بديع التأليف وحسن النظم 180

10 سهولة القرآن وقربه من الأفهام 184

خلاصة : 187

الفصل الرابع: انسجام الخطاب (قراءة في المفاهيم والآليات المنهجية في كتاب إعجاز القرآن) .....188 ـ 249

أولا : دلالة لفظ الخطاب 189

1 معاني لفظ الخطاب في القرآن الكريم 189

1 ـ 1 ما ورد بلفظ الخطب.....189

1 ـ 2 ما ورد بلفظ الخطاب 191

2 دلالة لفظ الخطاب عند الباقلاني 195

3 أنواع الخطاب عند الباقلاني 197

ثانيا مبدأ انسجام الخطاب عند الباقلاني 199

1 مفهوم الانسجام 199

1 ـ 1 في الاصطلاح اللغوي 199

1 ـ 2 في التراث العربي 200

1 ـ 3 في الدراسات النصية الحديثة 201

2 الانسجام عند الباقلاني 203

ثالثا : مظاهر الانسجام عند الباقلاني 207

1 النظم 207

2 تغير موضوع الخطاب 208

3 النظرة الكلية إلى النص القرآني 210

رابعا : نماذج من التحليل النصي للخطاب عند الباقلاني 210

1 قراءة الباقلاني لمعلقة امرئ القيس في ضوء فكرة النظم..... 211

ـ خلاصة حول قراءة الباقلاني للمعلقة 222

2 تحليل الباقلاني لنصوص قرآنية 225

ـ خلاصة 235

3 نقد الباقلاني لقصيدة البحتري اللامية (أهلا بذلكم الخيال) 235

4 مظاهر الانسجام في تحليل الباقلاني لقصيدة البحتري 238

4 ـ 1 الملاءمة بين المعاني 239

4 ـ 2 حسن الخروج والانتقال من معنى إلى آخر 241

4 ـ 3 وصل المعاني 242

5 خلاصة حول منهج الباقلاني في" إعجاز القرآن " 247

5 ـ 1 منهجه في بيان إعجاز القرآن الكريم 248

5 ـ 2 منهجه في تحليل الشعر 248

خاتمة .....250 ـ 254

ملحق 256

الأبيات التي حللها الباقلاني من معلقة امرئ القيس 256

الأبيات التي حللها الباقلاني من قصيدة البحتري 262

قائمة المصادر والمراجع .....266 ـ 279

العربية 266

الأجنبية 279

فهرس الموضوعات .....281 ـ 288

ملخص باللغة العربية 290

ملخصة باللغة الأجنبية 292

ملخص

تسعى هذه الأطروحة إلى محاولة للكشف عن دور النظم في انسجام الخطاب عند أبي بكر الباقلاني من خلال كتابه (إعجاز القرآن) ، فتناولتْ هذا المؤلف بالدراسة والتحليل في ضوء لسانيات النص ، و عرضت عدة قضايا متعلقة بهذا الموضوع منها :

ـ ملامح التفكير النص في التراث العربي .

ـ تلقي اللسانيات النصية في الثقافة العربية الحديثة .

ـ دراسة لأهم معايير الإعجاز القرآن عند الباقلاني وفق المقاربة النصية .

ـ انسجام الخطاب عند الباقلاني قراءة في المفاهيم والآليات ونماذج من الممارسات النصية التي أجراها على نصوص من الشعر والقرآن الكريم استنادا على آلية النظم.

وقد توصلت الدراسة إلى أن علماء الإعجاز القرآني وخاصة الباقلاني لهم باع طويل في الدراسات النصية قديما ، وأن انسجام الخطاب عنده يتحقق من خلال النظم ، وذلك ما يميز الخطاب القرآني عن غيره من الخطابات العربية الأخرى .

ملخص

باللغة الأجنبية

Sommaire :

Cette thèse cherche à tenter de révéler le rôle de la versification dans la cohérence du discours d'Abou Bakr Al-Baqlani à travers son livre (iajaz al coran) .J'ai traité avec cet oeuvre avec une étude et une analyse au cours de la linguistique textuelle, et présenté plusieurs questions liées à ce thème , notamment:

Allusions de la pensée textuelle dans le patrimoine arabe.

Recevoir de la linguistique textuelle dans la culture arabe moderne.

Une étude des critères les plus importants des miracles du Coran d'Al-Baqlani selon l'approche textuelle.

La cohérence du discours d'Al-Baqlani, une lecture de concepts, de mécanismes et d'exemples de pratiques textuelles qu'il a mené sur des textes de la poésie et du Saint Coran en basant sur le mécanisme de la versification.

L'étude a conclu que les érudits des miracles coraniques, en particulier Al-Baqlani, ont une longue réputation dans les études textuelles anciennes, et que la cohérence du discours selon Al-Baqlani est obtenue par la versification, et c'est ce qui distingue le discours coranique des autres discours arabes.